الجامعة الأردنيـة
كلية الدراسات العليا

التاريــخ: / /

نموذج رقم (١٦)
اقرار والتزام بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها لطلبة الماجستير

أنا الطالبة: تهاني عفيف يوسف جابر الرقم الجامعي: ٨٠١٠٣٦٨٠

تخصص: التفسير الكلية: الشريعة / أصول الدين

عنوان الرسالة / الاطروحة: منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

اعلن بانني قد التزمت بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة باعداد رسائل الماجستير والدكتوراة عندما قمت شخصيا" باعداد رسالتي / اطروحتي بعنوان: منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية. كما أنني أعلن بأن رسالتي /اطروحتي هذه غير منقولة أو مستلة من رسائل أو اطاريح أو كتب او أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيسا" على ما تقدم فانني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في الجامعة الأردنية بالغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: تهاني عفيف يوسف جابر التاريخ: ١ / ٢ / ٢٠١١

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع .... التاريخ ٢ / ٧ / ٢٠١١

الجامعة الأردنية

نمــوذج تفــويض

أنا الطالبة كناني عميق يوسف جابر ، أفوض الجامعة الأردنية بتزويد نسخ من أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

التوقيع:

التاريخ: ٢ / ١ / ٢٠١١م

منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

إعداد

تهاني عفيف يوسف جابر

المشرف

الدكتور أحمد إسماعيل نوفل

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون ثاني، ٢٠١١

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (منهج القرآن الكريم في التغيير الفردى)

يوم الخميس بتاريخ: ٢/ ١٢/ ٢٠١٠م

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
- **الدكتور:** أحمد إسماعيل نوفل (مشرفاً) أستاذ مشارك- تفسير- أصول الدين	....
- **الأستاذ الدكتور:** محمد خازر المجالي (عضوا) أستاذ دكتور- تفسير- أصول الدين	....
- **الدكتور:** جهاد فيصل النصيرات (عضوا) أستاذ مساعد- تفسير- أصول الدين	....
- **الدكتور:** صلاح عبد الفتاح الخالدي(عضوا) أستاذ مشارك- تفسير- (جامعة العلوم الإسلامية)	....

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع......التاريخ...........

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

إليك.... يا من وصلت كلماتي بين يديك... واستقرّت رسالتي محمولة على كفيك... وأخذتَ بتقليب صفحاتها قارئاً لها بأيّ قصد لديك... أو أي نيّة بين جنبيك... سواء أكنت ناقداً ... أم قارئاً... أم هادياً لناظريك... وأملي أن تجد لها مأوىً في نفسك التي هي بين جنبيك...

إنّي أقدمها إليك... عساها أن تجد في نفسك خيراً ولو كان مثقال ذرة لديك... واعلم أني لا بد أن أرسلها هديّة حبّ إلى كل من كان سبباً وعوناً في أن أقدمها إليك.... أبي الحبيب نبض قلبي وعطر وجودي... وفرحة عمري... أمي الحبيبة نسمة حياتي... ولحن مسمعي... ونور عيني... إخوة الرحم ... وكذا إخوة الروح... الذين مدّوا الأياديَ يوم واجهتني صعاب الطريق... تتلقّفني أكفهم... وتشدّني سواعدهم ... كي أصمد وأسير...فتبقى قواي تشتدّ في مسيرتي بينهم إلى أن وصلتْ كلماتي بين يديك...

واعلم... أن هناك منارات أرشدتني... فآوتني... وأنارت ظلمات جهلي... فعلمتني... وسطّرت بنور أقلامها حروفاً على رسالتي فوجّهتني... وأبت إلا أن يعلو طُهْرَ النفوس فوق خُبْثِها... ونُبْلَ الأخلاق فوق دنيئها... وما كان محمود الخصال فوق ذميمها...أستاذي ومعلمي... وفي المقام كأبي...أستاذي الدكتور:"محمد نبيل" طاهر العمري...

ولم أنسَ أحباء القلب... وعشقاء العمر... من تنازعني إليهم نفسي... من أحرق بُعْدُهُمْ قلبي...من ترحّلت إليهم كل يوم روحي....فلسطين الحبيبة بكل شبر فيها... الأقصى الغالي...بكل ركعة فيه.... ولم أنسكم يا أهل الرفعة والسموّ يا أهلها... يا من قلتم ربنا الله ثم اسْتَقَمْتُمْ... يا من تتنسمون نسمات فلسطين الحبيبة.... وأنتم صامدون... نازفون... دامعون.... ولكن بنصر الله آملون...لكم رسالتي هذه بكل نبضة نبضت من قلبي وأنا أكتبها.. وأملاً بعَودة لفلسطين... وداعية أن يكون لها نصيب من ولادةٍ جديدة.... لجيل جديد... بنهج القرآن يستنير...

تهاني عفيف يوسف جابر

بسم الله الرحمن الرحيم

"قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ"(النمل ٤٠)

(فالحمد والشكر لله أولاً وأخيراً على نعمه التي لا تُحصى)

إن الشكر عملة ندرت في زمن حكمته المادة وطغت؛ لأنه من القيم العظيمة التي تجعل للحياة معنى يفوق تلك المادة التي يركض خلفها الناس لينحدروا معها؛ فـ "مَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ"، وفي مقابل الشكر لا يكون إلا الكفر والطغيان. فلما تمعّنت وتأمّل مسيرة حياتي وأنا أكتب رسالتي وكلماتي، وجدت أنني مدينة للكثير من الناس لأجعل هذه العملة النادرة (الشكر) هي سبيل الحوار معهم؛ فوجودهم في حياتي يجعلني أقف موقف العاجز أمامهم.

إلا أن هناك من تألّق خلال هذه المسيرة في تقديم العون لي، فقدّموا لي ما يجعلني أقف أمامهم موقف العاجز عن التعبير، وأول الناس وأولاهم هما أبي الحبيب وأمي حرستهما رعاية الله، فلولا فضل الله عليّ بهما لما ابتدأتُ الطريق، وثانيهم أستاذي الكبير د."محمد نبيل" العمري أحاطته عناية الله، الذي لولا فضل الله عليّ لما أتممت ما ابتدأت به. أما ذاك العظيم، صاحب مواقف الرجال، ومن أراني أن للحياة معنىً يوم نرفض مادتها، وللأحداث مواقف يوم نبتغي رضا الله فيها، مَنْ وقف وقفة جعلت فرحتي وراحتي طوال مسيرتي هما رِفْقَتي، والبسمة والضحكة لا تزول عن شفتي، والعلم والمعرفة لا تفتر عن عقلي، إنه نعمة امتنّها الله عليّ، أستاذي ومشرف رسالتي د. أحمد إسماعيل نوفل حفظه الله.

ولم أنس باقي أساتذتي وصديقاتي وإخواني وأخواتي الذين كان لهم أياديّ لا تخفى في شدّ همّتي في هذه المسيرة، وكانوا عوناً من الله تعالى لأتجاوز كثيراً من صعابها، أدام الله عليهم حسن قولهم وجميل فعلهم ليكون لهم رصيد رحمة من الله ورضوان.

وأختم تقديم شكري بقولي:((شكراً لمن ظلمني؛ فقد عرفت بأنّ الله معي)).

تهاني عفيف يوسف جابر

منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

إعداد: تهاني عفيف يوسف جابر

إشراف الدكتور: أحمد إسماعيل نوفل

الملخص

لقد جاءت هذه الدراسة موسومة بعنوان ((**منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي**))، حيث تناولت طريقة القرآن الكريم في تغيير الفرد بإخراجه من الظلمات إلى النور، وتغييره بعد خروجه إلى النور بارتقائه في مراتب الإيمان والعمل الصالح ليزداد إيماناً مع إيمانه، وتم عرض ذلك في تمهيد وخمسة فصول.

تناول التمهيد الحديث عن التغيير بين المنهج الإسلاميّ والمناهج المادية،وما يؤدي ذلك إلى نشوء فرد يتسم بسمات الحضارة التي تتناسب مع المنهج الذي يسلكه.

- **والفصل الأول:** جاء بتعريف للمصطلحات التي لازمت الموضوع خلال سير الدراسة، والتي تعتبر الرابط بين الفصول الخمسة؛ لأنها محور الحديث ومداره وهي: (المنهج، التغيير، النفس، الاستعداد)، وجاء بالحديث عن جوانب استعداد النفس للتغيير، وعلاقة التغيير الفردي بالتغيير الاجتماعي، منتهياً بذكر أهداف التغيير كما جاء بها القرآن الكريم.

- **أما الفصل الثاني:** فقد تناول بيان تدرجات القرآن الكريم في إيجاد أسس التغيير الفرديّ، لتكون المرحلة الأولى من الأسس هي أسس بناء جوهر الإنسان فكراً وعقيدة، والمرحلة الثانية هي أسس ارتقاء الإنسان في سلوكه الناتج عن عقيدة القرآن الكريم في نفسه، حتى وصوله إلى درجات من الكمال الإنسانيّ النسبيّ.

- **والفصل الثالث:** ذكر الأساليب القرآنية التي عملت كمؤثرات لتحقيق التغيير في نفس الفرد، فاستخدم القرآن أساليب تعريف الفرد بما جاء بالقرآن، إلى أن يأتي بالأساليب التي توصل الفرد إلى التنفيذ العمليّ لأوامر القرآن.

- **أما الفصل الرابع:** فاحتوى على ذكر خصائص القرآن الكريم التي ميّزته عن غيره من اتصافه بالاستقلال، والوسطية، والجمال، ليكون من نتاجه تغيير الفرد، ثم جاء ذكر آثار منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي.

- **والفصل الخامس:** جاء بذكر موانع التغيير الفردي النفسيّة، والموانع الحياتيّة البيئيّة، التي تمنع الفرد من الاستجابة لله ولرسوله لتحقيق تعاليم القرآن الكريم سارية في حياة الفرد. ثم اختتمت الدراسة بذكر مجموعة من النتائج والتوصيات.

إن هذا ما قدمتُ، وإن الله يحب المحسنين، فإن أحسنت فأسأل الله أن أبلغ من الإحسان ما يجعلني فيمن قَبِلَ وأحبّ، وإن أخطأت فإن الله يحب التوابين، ويغفر للمستغفرين، فأستغفره وأتوب إليه توبة يغفر لي زلّتي، ويكتبني فيمن غفر لهم وأحبّ.

بسم الله... عليه توكلت... وبه أستعين

المـقَدِّمَــة

الحمد لله الذي أنزل القرآن للناس كافة، عربيّاً غير ذي عوج لعلهم يتقون، أو يُحْدِث لهم ذكراً، وأنزله هادياً إلى نور الهدى وسبل السلام كما قال:"يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(المائدة ١٦).

وله المنّة، إذ قال:"لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران١٦٤)، فالصلاة والسلام على من امتنّ الله به علينا، محمد صلى الله عليه وسلم النبيّ الأميّ معلم الأمة الأمين، أرسله الله بالبيّنات والزبر وبالكتاب المنير، وأمره فقال"...وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل٤٤)، فوقف عليه السلام أمام الناس، قبل لقاء الله، وبعد تمام هذا الدين، وارتقاء الناس في الهدْيِ القويم، يستشهد الناس أبَلَّغَ أمانة الله جل في علاه، فشهدوا له، فردّ مستشهداً الله على أنفسهم: "**اللهم فاشهد**". فرضاك اللهم على آله وصحبه، ومن شهد له، وسار على نهج القرآن الكريم، واهتدى بهدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين، وبعد؛

إن شمولية التغيير وتكامله هي أبرز سمة من سمات التغيير في القرآن الكريم، فمنهج معالجته ينبغي أن يكون باتباع منهج شموليّ متكامل، ولا يُفهم من هذا أن يُنظر إلى موضوع التغيير نظرة عامة لا نهاية لها؛ ذلك أن مثل هذا التعميم يؤدي إلى غياب الوضوح في المنهج القرآني لعملية التغيير.

ولا شك أن القرآن الكريم منهج حياة، وأن الحديث عن التغيير في القرآن الكريم لا بُدَّ أن يشمل كل جوانبها التربوية، والاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية...، وعزل التغيير الفردي تحت عنوان

واحد خروج عن المنهج الصحيح في التعامل مع هذا الموضوع المهم، فالتغيير عبارة عن عملية شاملة ومتكاملة، تبدأ من الفرد وتنتهي بارتقاء الأمة التي وصفها القرآن الكريم بالخيريَّة.

ثم إنِّ القرآن الكريم لا يضع مخططاً لكل جزئيات هذا الموضوع وتفاصيله، وإنما يحدد الأسس والمسارات العامة، ثم يترك المجال لحركة الفرد والمجتمع كي يأخذا دورهما الطبيعي الذي يتم في ظل قوانين وسنن أودعها الله تعالى في الوجود كله، لذا اقتضت الدراسة توظيف العلوم الأخرى في تحديد بعض المفاهيم والمقاصد من بعض الآيات لعدم انشغال المفسرين فيها من جهة، ولاشتغال هذه العلوم بهذه الجوانب من جهة أخرى، ومن هذه العلوم علم النفس للبحث في مجال الآية(حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وعلم الفلسفة الإسلامية أيضاً لاختصاصه في البحث في دقائق الأمور الفرعية المتفرّعة عن قضية التغيير الفردي على وجه الخصوص والتغيير الإنساني عموماً، وعلم البلاغة العربية الذي نزل القرآن به مغيّراً الناس، مثيراً لمدارك الإحساس، مفعّلاً الفكر، مستشهداً النفس على عجزها من عن الإتيان بمثله.

إنَّ التركيز على الجانب الفردي في عملية التغيير كأساس النشأة الإنسانية، وإغفال أي جانب آخر من جوانب التغيير الإنساني عموماً، يجعل الموضوع متناثر المعاني والأهداف، إذ جاء الموضوع في القرآن الكريم متماسكاً من حيث ملازمة كل جانب للآخر، فالفرد هو الأساس والجذر لعملية التغيير الذي يقوم عليه البناء التغييريّ، وما المجتمع إلا السقف العلوي لهذا الأساس، فلا بد لأي باحث في جانب التغيير الفردي من التطرق إلى الجوانب الأخرى لبيان تكامل المنهج القرآني، لذا فلا بد للبحث في هذا الموضوع – **التغيير الفردي**– من النظر في جميع الأبعاد الإنسانية، المتعلقة بالتغيير الفردي، بوصفها تفريعات ناتجة عنه، وآثاراً مترتبة عليه.

إنَّ التدرج في عملية التغيير الذي تميّزت به الأسس القويمة التي جاء بها القرآن الكريم يصقل واقعاً جديداً، ويجعل النقلة من ظلمات الجهل إلى نور الهداية ضمن منهج القرآن الكريم أمراً

محققاً، لترتقي الأمة الإسلامية من الحضيض الذي هي فيه، إلى العلو والرفعة المنشودة التي رسم معالمها المنهج القرآنيّ.

إن الالتزام بهذا المنهج الرباني المنظَّم بمراحله المختلفة يجعل من عملية التغيير في الفرد وفي الإنسانية حركة ناجحة في نهاية المطاف، لتحقيق التوازن والانسجام النفسي والفكري على جميع المستويات، الفردية، والاجتماعية، والعالمية، وعلى مختلف الصُّعُد الحياتية.

إنّ التطبيق الشامل للمنهج القرآني بجميع تفاصيله لا بد أن يؤتي ثماره في صبغ الحياة بالصورة الإسلامية المشرقة، وهذه الصبغة تتمثل بكون العبودية قائمة لله وحده في كل تفاصيل الحياة، قال تعالى: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ "(**البقرة ١٣٨**).

<u>مشكلة الدراسة:</u> <u>لقد جاءت هذه الدراسة للإجابة عن الأسئلة الآتية :</u>

١ -ما المقصود بمصطلحات الدراسة (التغيير، المنهج، النفس، الاستعدادات)، وما أهمية وجود استعدادات تهيّئ الفرد للتغيّر نحو الصراط المستقيم؟

٢ -ما هي أهداف القرآن الكريم من التغيير الفرديّ؟

٣ -كيف ينتقل الإنسان بين الدرجات التأسيسية في المنهج القرآني صعوداً وارتقاءً إلى أن يصل إلى أعلى درجات الالتزام بالمنهج القرآني؟

٤ -هل تميز المنهج القرآني عن غيره من المناهج عندما قاد عملية التغيير؟وما آثار هذه الميّزات؟

٥ -ما أساليب القرآن الكريم المتبعة في التربية والارتقاء للفرد المجتمع في عملية التغيير؟

٦ -ما هي الموانع التي تمنع من الاستجابة للمنهج القرآنيّ، فتؤدي إلى عدم التوجه للالتزام به؟

<u>أهمية الدراسة: تبرز أهمية دراسة هذا الموضوع فيما يلي:</u>

١ -إن هذا النوع من الدراسات المنهجية يتفق وروح العصر، ويُظهر إعجاز القرآن الكريم في شتى جوانب الحياة الإنسانية، والفرديّة على وجه الخصوص.

٢ – الربط بين سنن الله في الأنفس والآفاق بعملية التغيير التي يبدأ بها الإنسان في نفسه.

٣ – ارتباطها بالقرآن الكريم، من حيث إبراز خصائص المنهج القرآني في التغيير، والكشف عن أساليب القرآن الكريم في تحقيق التغيير على أرض الواقع، لإيجاد الفاعلية العملية للتوجه نحو منهج الله تعالى، المتمثل في كتابه وصحيح سنّة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

٤ – عدم الكتابة بهذا الموضوع من قبل بدراسة علمية تأصيلية، تتناول هذا الموضوع بمختلف جوانبه، وفق منهجية معتمدة في الدراسات القرآنية.

٥ – اتصال الموضوع بالإنسان الذي هو مستخلف في الأرض، وبقيام هذه الوظيفة تصلح الأرض وما عليها ومن عليها، كما أن بصلاح هذا الإنسان يصلح الكون كله، وتعود الحياة من جديد مصبوغة بصبغة الله.

<u>أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى تحقيق ما يأتي:</u>

١ - محاولة تفعيل الفهم، وتحفيز التأمل للقرآن الكريم، من خلال التعرّض لاستخلاص جوانب من منهجيّة القرآن الكريم في التغيير، وربطها بما يقوم عليه الواقع الحاليّ.

٢ - الإشارة إلى ملاءمة المنهج القرآني للنفس الإنسانية من جهة، ولقيام الحياة به على أحسن صورة من جهة أخرى، ومرونة هذا المنهج في أساليبه، وثباته في أسسه، لتحقيق التغيير الفردي كهدف مرحليّ يقود عملية التغيير حتى تبلغ الإنسانية أرقى نسبة في درجات السمو والكمال الإنسانيّ المتمثل في اتباع المنهج.

٣ - ملاحظة دور القرآن في التغيير الفردي والاجتماعيّ تاريخيّاً، ومتابعة استمرارية هذا الدور وفاعليته إلى اليوم، وتوجيه الأنظار إلى أهمية المسيرة القرآنية في مواجهة التحديات الإنسانية.

٤ - الإشارة إلى بعض الأسرار في آيات القرآن الكريم، والتي لها واضحُ التأثير على النفس الإنسانية، وعلى النفس الإنسانية المستجيبة لمنهج الله على وجه الخصوص.

الدراسات السابقة:

(١) منهج القرآن الكريم في التدرج في التغيير ،الدكتور أحمد فريد أبو هزيم ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد:٧ سنة النشر ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٣م:

لقد تحدث الباحث عن المنهج معرفاً به، وموضحاً أهميته، ومبيّناً ضوابط العمل التغييري، والتدرج في عملية الإنجاز، مضمّناً قسمين، القسم الأول منه كان يبحث في الأطر العامة لدراسة منهج القرآن الكريم في النزول، و القسم الثاني منها متخصص في تجاوب الوحي مع المؤمنين، واحتوى مقاصد أربعة: (انتزاع العقائد الباطلة، سياسة التدرج في التشريع ومنهجه، سياسة التدرج في إبراز العظات، وسياسة التدرج في التجاوب مع الأحداث والنوازل).

إلا أن الباحث لم يؤصل لمنهج التغيير الفردي بأصولٍ ومعالمَ واضحةٍ في مختلف جوانب الموضوع، إنما كان التركيز على جانب التدرج في أحد مطالبه، ومع أهمية البحث وإشارات الكاتب إلا أنها كانت موجزة مختصرة مركّزة بخاصيّة واحدة من خصائص منهج القرآن في التغيير وهي التدرج. لذا جاءت هذه الدراسة لتكون مضيفة خواص أخرى اختص بها منهج القرآن الكريم في التغيير.

(٢) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي، (الطبعة الرابعة/ ١٣٩٨– ١٩٧٨):

شرح المؤلف في تفسير قول الله تعالى:"إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (**الرعد١١**)، محاولاً أن يوضح أن أساس مشكلة تخلف المسلمين هو جهلهم، وكان الجهد منصبّاً على بيان أن وظيفة تغيير ما بالنفس هي وظيفة الإنسان، وأن تغيير الله لحال الإنسان إنما يكون بعد أن يحقق الإنسان شرط تغيير نفسه.

ويبيّن المؤلف أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية أثرت على نفس الإنسان وفكره فغيرتها، وأن هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع، التي يرتقي المجتمع أو يتخلف بحسبها....

إلا أن المؤلف لم يتنقل بين آيات القرآن الكريم ليعرض التأثير المغيِّر الذي ينتج عنها، وإن احتوى الكتاب على بعض الآيات، لكن لم يتم استنباط منهج تغييري متسلسل انتهجه القرآن الكريم.

وجاءت هذه الدراسة كمحاولة لتوظيف الآيات القرآنية بما يخدم التغيير الفردي في جوانبه المختلفة لبيان رؤية واضحة للمنهج بطريقة منهجية تأصيلية.

(٣) حركة التغيير الاجتماعي في القرآن، محسن عبد الحميد،(مطبعة الحوادث– بغداد، ط١/١٩٩٨م):

قام الباحث بعرضٍ لحركة التغيير في القرآن الكريم بشكل موجز مختصر، حيث بيّن باختصار أن الإنسان قائد عملية التغيير، وجعل لحركة التغيير العقيدة والشريعة أسساً، مُتْبِعاً ذلك بملامح حركة التغيير في المجتمع، ولكن ضمن نطاق ضيّق في الموضوع الواحد، وذكر أهداف التغيير الاجتماعي من إنشاء مجتمع عابد، عالم، وفاضل وعامل، وخُتِمَ الكتاب ببيان موقف الكاتب من الحضارة الحديثة.

إلا أن الكتاب يحتوي على إشارات غير منظمة بتدرج التغيير الذي احتواه منهج القرآن، والتغيير الاجتماعي عبارة عن نتاج التغيير الفردي في منهج القرآن المنتظم الدقيق، وليس هو المقصود من عملية التغيير. وتأتي دراستي للتركيز على إظهار المنهج القرآني في التغيير الفردي بخصائصه ومجالاته وأساليبه.

(٤) النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم ،زكريا بشير إمام،(مطبعة الخرطوم، طبعة١/١٩٩٨م):

قام الكاتب بدراسة جانب التغيير الاجتماعي من بدايات نشأته –الفرد– دون توظيف آيات القرآن الكريم بطريقة منهجية تؤصل منهج القرآن الكريم في التغيير، فالباحث لم يراعِ الانتقالات

المغيّرة في النفس، ودور القرآن في التغيير فرداً، إنما انطلق من نظريات اجتماعية، واستدل بإشارات من آيات القرآن الكريم على النظرية الاجتماعية، ولم تكن دراسته دراسة قرآنية منهجية مؤصلة.

والمؤمَّل من دراستي هو محاولة إظهار النسق الذي سار عليه المنهج القرآني في التغيير الفردي مع قدرات الفرد، وفقاً لمجريات الأحداث، والاستجابة لمتطلبات الحياة ومستلزماتها.

- لذا تميّزت هذه الدراسة بما يأتي:

اعتماد الآيات القرآنية أصلاً في خدم التغيير الفردي في جوانبه المختلفة لتُحَقق جوانب من الرؤية القرآنية للموضوع، بطريقة منهجية تأصيليّة تُبيّن أسسه، مع إبراز التغييرات التي يحدثها الالتزام بتطبيق منهج القرآن في التغيير على الفرد، للتوصل إلى أهم النتائج والآثار المتحققة على كافة المستويات.

١ - إبراز خصائص القرآن في التغيير الفردي، وجوانب الإعجاز التي كان لها الدور البارز في التغيير على المستوى الفردي.

- منهج البحث: استدعت طبيعة الدراسة اتباع المناهج التالية:

- المنهج الاستقرائي: ويقوم على جمع آيات القرآن، وتصنيفها، لاستقرائها وتبويب قوانين التغيير الفردي لها.

- المنهج التحليلي: والذي اعتمد على تحليل الآيات القرآنية من خلال تفسيرها، وبيان مدلولاتها، وآثارها في التغيير الفردي بشكل خاص، والإشارة إلى آثارها على مختلف المراحل على وجه العموم.

خطة الدراسة:

- **المقدمة:**

- **التمهيد: صورة التغيير بين المنهج القرآني والمنهج الماديّ.**

- **الفصل الأول: مستلزمات التغيير، وأهداف القرآن الكريم منه، واحتوى على ما يلي من مباحث ومطالب:**

- **المبحث الأول: تعريف المصطلحات:(المنهج، التغيير، النفس، الاستعداد) في اللغة والاصطلاح.**

- **المطلب الأول: تعريف المنهج لغة واصطلاحاً، وشروطه.**

- **المطلب الثاني: تعريف التغيير لغة واصطلاحاً.**

- **المطلب الثالث: تعريف (النفس، الاستعداد).**

المبحث الثاني: الاستعدادات النفسية للتغيير الفردي الفطرية والخلْقية والروحية ومطالبه:

- **المطلب الأول: الاستعدادات الفطرية للتغيير.**

- **المطلب الثاني: الاستعدادات الخلْقية للتغيير.**

- **المطلب الثالث: الاستعدادات الروحية للتغيير.**

- **المبحث الثالث: أهداف المنهج القرآنيّ المرحليّة، وغاياته المحوريّة من إحداث عملية التغيير الفردي، ومطالبه:**

- **المطلب الأول: أهداف المنهج القرآني من إحداث عملية التغيير الفردي.**

- **المطلب الثاني: غايات المنهج القرآني من إحداث التغيير الفردي.**

- **الفصل الثاني: أسس المنهج القرآني في التغيير الفردي جوهريّاً وارتقائيّاً، واحتوى على المباحث التالية ومطالبها:**

- **المبحث الأول: أسس المنهج القرآني في التغيير الجوهري للفرد.**

- **المطلب الأول: قواعد بناء التفكير المنهجي.**

- **المطلب الثاني: قواعد بناء التصوّرات السليمة عن الذات الإلهية.**

- **المبحث الثاني: أسس المنهج القرآنيّ في التغيير الارتقائي لبلوغ الكمال الإنسانيّ:**

- **المطلب الأول: أسس المنهج القرآني الارتقائية في التغيير الفردي.**

- المطلب الثاني: أسس المنهج القرآني لتحقيق الكمال الإنساني النسبي.

- <u>الفصل الثالث:</u> أساليب القرآن الكريم في التغيير الفردي، وشمل هذا الفصل ما يأتي من مباحث ومطالب:

- المبحث الأول: الأساليب القرآنية المنهجية لإحداث التغيير الفردي.

- المطلب الأول: أساليب القرآن الكريم في التعريف المنهجيّ.

- المطلب الثاني: أساليب القرآن الكريم في التقريب المعرفي.

المبحث الثاني: الأساليب القرآنية في التوجيه والتنفيذ العمليّ، واحتوى على:

- المطلب الأول: الأساليب القرآنية للتوجيه الإلزاميّ.

- المطلب الثاني: الأساليب القرآنية في تحفيز التنافس للارتقاء.

- <u>الفصل الرابع:</u> خصائص المنهج القرآنيّ في عملية التغيير الفرديّ، وآثاره، واستلزم ما يلي من مباحث ومطلب:

- المبحث الأول: خصائص المنهج القرآنيّ في عمليّة التغيير:

- الخاصيّة الأولى: اختصاصه بالاستقلال:

- الخاصيّة الثانية: اختصاصه بالوسطيّة.

- الخاصيّة الثالثة: اختصاصه بالجمال.

- الخاصية الرابعة: خاصية الكمال.

- المبحث الثاني: آثار التغيير الفردي على المستوى الفردي والاجتماعي.

- المبحث الثاني: موانع التغيير بالمنهج القرآني، النفسيّة الذاتية، والحياتية البيئية:

- المانع الأول: المانع النفسي الذاتي.

- المانع الثاني: المانع الحياتي البيئيّ.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

تمهيد: صورة التغيير بين المنهج القرآني والمنهج المادي

لقد تعددت مناهج التغيير المادية المختلفة، وسعت لإحداث موجة من النقلات النوعيّة المتنوعة، واستعملت الأساليب المادية والمعنوية المتعددة، بل وما زالت تُستحدث تلك الأساليب لتحريك عجلة التغيير نحو هدف واحد، هو إقامة الحياة على عشوائية الحركة، واضطراب النفس، والسعيٍ الحثيث نحو سراب بعيد، وهذا السراب هو السعادة المرجوّة التي يظن الإنسان أنها متحققة بحصوله على ماديات الحياة، إلا أنه يفاجأ بأنه سيتوقف هذا السعي الحثيث وراء ذلك السراب دون الحصول عليه، مما أدى إلى ضياع العمر دون تحقيق غاية سامية وقد أشار القرآن إلى هذه القضية يوم جاءت خواتيم سورة الكهف بقول الله تعالى:" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً"(**الكهف١٠٣-١٠٧**). إن لنفس الإنسان جوانب ثلاث:

معرفية: وتكون بوجود العقل البشري، **وسلوكية:** وتكون نتاج عمل العقل البشريّ، **وروحية:** وتشكّل الرابط بين العقل والسلوك، والباعث للحركة والحياة في الجسد.

وبوجود أيّ خلل في أي جانب منها كان لا بد لمنهج الله تعالى أن يبيّن طريقة واضحة لتغيير النفس نحو ما أمر الله تعالى.

كما أنَّ للتغيير- في كل زمان- اتجاهين اثنين: فالاتجاه الأول: اتجاه إسلاميّ إيمانيّ؛ وهو الذي يرتقي بالفرد، والأسرة، والجماعة، والأمة، تدريجياً إلى أعلى درجات السمو، وهذا الاتجاه السامي هو ما نهجه القرآن للتغيير من واقع الفرد والمجتمع والأمة، والغريب أنه هو التغيير الذي يغفل عنه الكثير من الناس. **أما الاتجاه الثاني** اتجاه ماديّ مضطرب، يتجه بجوانب الإنسانية نحو الهبوط التدريجيّ إلى هوّة التخلف الفكري، والنفسي، والسلوكيّ، واهتمامه الأول المادة والمظهر، وله وسائله وأساليبه التي تجتمع تحت راية (فرّق تسد)، أي أن التفريق بين الإنسان ومنهج القرآن

الكريم هو بعينه أن يسود أي داعٍ لغير صراط الله تعالى، وهذا المنهج هو منهج أول عاصٍ لله على وجه الأرض- إبليس- الذي سعى لأن يُبعِد الإنسان عن منهج الرحمن، وبهذا يضمن له الانسلاخ عن أصل فطرته الخيّرة.

لقد غيّرت المناهج المادية المضطربة الإنسانية في كل مراحلها، الفردية والجماعيّة من أسرة أو مجتمع، حتى تحول واقع الناس من ارتقاء أمة إلى انحطاط أُمِيّة، وأقصد بها-الأميّة- الجهل بالحق، وبميزان القسط والعدل، والجهل أيضاً بالتعامل المنهجي السليم المنظِّم للحياة، فالحياة التي يحياها الناس اليوم تقوم على النظرة المادية، والعشوائية في التفكير وكلّها قاتلة لكل قيمة معنوية، أما العشوائية في التفكير فعملها إبادة المعرفة الإنسانية التي تنهض بها الإنسانية فرداً ومجتمعاً وحضارة، أما التعامل المنهجي المستقيم فهو التعامل من خلال أسس قويمة، مبدؤها العقيدة، وباستخدام أساليب سليمة تزينها الأخلاق الكريمة، وكلها - الأسس والأساليب- متوجّهة نحو تحقيق هدف واحد، هو الإقبال على توحيد الله تعالى في تفاصيل حياة كل فرد، العلمية والعملية والعبادية، وعدم قيام الحياة - كما هي اليوم- على أساس فصل الدين عن الحياة، ومادية النظرة، وعشوائية التفكير المنتج لتخبط الإنسان في الأرض.

لقد تعددت الأمثلة لحملات الغزو التغييري المفروضة علينا من مناهج الغرب، وما رافقها من غزو نفسيّ وسلوكيّ، وما تضمنته من فلسفة لا تقوم على أساس قويم، فأساسها الإلحاد، والملحد نفسه لا يعرف كيف جاء، وما يثير العَجَب أن القلوب تعلقت بهذا الأساس الفاسد، وبُهِرَت بمظاهر ماديّة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل وعُطِّلت العقول حتى اتخذت من ذلك الغزو التغييريّ شعار التحضّر والرقيّ، فاختل ميزان الحكم في العقل، لانحرافه عن القيمة المعنويّة للحياة إلى القيمة الماديّة، فعاد الناس إلى جاهليّتهم التي وصفها جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة حين قال:" كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ،

ويَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ،....إلخ"(١)، فجوهر الناس كان ظلمات الشرك بالله، وما ينتج عن هذا الجوهر سوى الظلم في التعامل مع الإنسان، وسوء استخدام مسخرات الكون في الحياة، فتكون الحياة ظلمات بعضها فوق بعض كما وصف الله تعالى الضالّ عن سبيله المبتعد عن منهجه:"أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ"**(النور٤٠)**، فتغيّر كل ذلك يوم جاء الإسلام مخرجاً الناس من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل، فيكون الحلال ما جعله الله بمنهج القرآن والحرام ما حرمه فيه أيضاً.

لقد جاء هذا الغزو الغربيّ، فنشر الفتن، وغيّر الناس بإبعادهم عن هدف حياتهم ليعودوا كما كانوا في الجاهلية، وعن أسس دينهم، وعن سلامة قلوبهم، وعن كرامة إنسانيّتهم، وعن عزّة نفوسهم، فهانوا في نظر عدوّهم، لما هانوا في نظر أنفسهم.

---

(١) **الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)**، المشرف العام على الطبعة عبد الله عبد المحسن، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بمشاركة عادل مرشد وعادل غضبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، باقي مسند الأنصار، من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ج٣- ص٢٦٦، وقال الهيثميّ في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرّح بالسماع.

ولما كانت الماديّة قد طغت([1])؛ لأنها قامت بكل محاولة لهدم كل بناء قائم على منهج القرآن، كان هذا تحقيق لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم:" لَيُنْقَضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً كَمَا يُنْقَضُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً"([2])، وفي رواية أخرى:" فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا..إلخ"([3]).

لقد انتقضت عرى الإسلام المغيِّرة بالغاشية التي غشيت فئة العلماء كأول عروة مفعّلة للتغيير نحو منهج الله تعالى، فهم الذين يملكون قدرة التغيير بقدر ملفت للنظر، فالتغيير بمنهج القرآن الكريم عملية معرفية؛ أي أنها تقوم على تشكيل معارف صحيحة في الإنسان عن الله وعن نفسه وعن الحياة والكون، والعلماء باعتبارهم عرّوة العلم والمعرفة، وهم أول عرى التغيير في الأفراد والجماعات؛ لأن نشر المعارف الصحيحة هي وظيفتهم في الحياة، ورسالتهم التي يحيون لأجلها، وغايتهم التي يسعون لتحقيقها، فكان نقض هذه العروة هو من سهام الغزو التغييريّ الغربيّ، ولقد أدرك عمر رضي الله عنه بفطنته خطورة نقض هذه العروة يوم أشار إلى أن زلة العالم تهدم

---

(١) انظر ما كُتِبَ عن نشأة المادية، وكيف تغيّرت نظرة الإنسان لنفسه ولمركزه في الكون، عند: قطب، محمد ،**معركة التقاليد**، مكتبة الأقصى، بدون رقم طبعة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م،ص٦٣-ص٩٣.

(٢) الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل(ت١٤٢هـ)، **مسند الإمام أحمد**، مسند الشاميين، من حديث فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيِّ، ج٣٦، ص٤٨٥، وانظر: الدارمي، أبو حمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام(ت٢٥٥هـ)، **سنن الدارمي**، حققه د.محمود أحمد عبد المحسن، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٦، والطبراني، الحافظ إبي القاسم سليمان بن أحمد(ت٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، حققه حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي،ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٨-ص٩٨، **قال شعيب الأرنؤوط إسناده قويّ جيّد، أو حسن لغيره. وقال الحاكم في المستدرك الإسناد كله صحيح ولم يخرجاه** (أي البخاري ومسلم).

(٣)**الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل(ت١٤٢هـ)**، مسند باقي الأنصار، حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ الصُّدَيِّ بْنِ عَجْلَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الْبَاهِلِيِّ، ج٣٦، ص٤٨٥، والعروة : ما يُستمسك به ويُعتصم من الدين، عُرَى الإسلام : أي حُدُوده وأحكامه وأومِره ونواهيه.

الإسلام([1])، واليوم ظهر علماء الزلات، ولقد سطّر قلم الرافعيّ كلمات عن هذه العروة التي إذا انتقضت تفشّى الجهل في الناس، فوجود زلات العلماء يعني اقتداء الناس بها، وبهذا ينتشر الزلل بين الناس بدل أن ينتشر العلم،وينحرف مستر المعرفة من معرفة الحق ومنهجه إلى معرفة الباطل وسبله، فيصف الرافعيّ قائلاً:".. ومن تراه في ثياب المعلم يلتبس بالفشء([2])، كما يلتبس الداء بعضو حيّ، لا يدعُ أبداً أن يغمز غمزة، ويبتلي بما فيه من ضَعْفَةٍ وبلاء، فلا يصلح إلا على إفساد الحياة، ولا يقوى إلا على إضعاف القوي، ....فأصبحت الحياة بلا غاية، والإنسانية بلا معنى، ... ثم كان من طبيعة البحث العلميّ أن يستجرّ الفاسد بالصحيح، ويخلط اليقين بالظن، ويضرب المقطوع به في المشكوك فيه، متى استقام هذا فصار عملاً، واتسق فصار نظاماً، خرج إلى تشبيه الباطل بالحق، وتلبيس الخطأ بالصواب، فيكون من العِلْمِ ما هو عِلْمُ وقت، وجَهْل وقتٍ بَعْدَه.."([3])، وبهذا برزت خطورة نقض أول عرى التغيير التي تصل بالإنسانية إلى تطبيق منهج القرآن الكريم أو البعد عنه.

إن نتاج هذه الظاهرة– علماء الزلات– في المجتمع الإسلاميّ عقول لا تحسن أن تبني فكرة، ورجالاً ونساءً لا يقدروا على حمل مسؤولية أسرة، مما أدى إلى نقض البناء الأسريّ كعروة ثانية من عرى التغيير للفرد ونشأته، فالعادات والتقاليد المدسوسة جعلت بداية الأسرة من شاب باحث عن جمال المظهر دون الجوهر، وفتاة همّها غنى المادة دون المعنى، ومنصب الدنيا دون الخلُق،

([1]) انظر: **سنن الدارمي**، مصدر سابق، ص٨٧.

([2]) **وفَشَأَ المَرَضُ يَفْشَأُ فُشُوْءاً: إذا انْتَشَرَ فيهم**، انظر: الطالقاني، ابن عباد(٣٨٥هـ)، **المحيط في اللغة**، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، المجلد الثاني، ص٤٨٥.

([3]) الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٠-١١، باختصار.

فصار ميزان الحكم المظهر والمادة، وأخذ البناء التأسيسيّ للأسرة دون الظفر بذات الدين، أو الوقوع على صاحب الدين والخُلُقِ، ودون حساب أبعاد هذا الاختيار العشوائي وخطورته على الفرد والمجتمع، ودون النظر فيما جاء به المنهج النبويّ عند تحديد منهجيّة اختيار الأساس الأسريّ، وبعدها نجد الصراع بين الرجل (زوجاً وأباً)، والمرأة (زوجة وأمّاً)، ليقوم بناء الأسرة بناءاً ماديّاً، وينشأ الأفراد متأثرين به، فتكون الأسرة مكان هدم للنفوس لا بناء لها، ويكون نتاجها جيل الميل لا جيل الاستقامة.

وفي مقارنة بين منهج البناء في الواقع الحاليّ الذي يَعتبر الرقيّ عبارة عن المظاهر الماديّة، ومنهج البناء في الواقع الإسلاميّ الذي يعتبر الرقيّ والتحضر اعتبارات المعنى أولاً والمادة وسيلة إليه، نجد أن أبا بكر الصديق كان خليفة وُكّل بخزائن دولة، وهذا الخليفة كان مثالاً لكمال الارتقاء بتطبيق القرآن، ولقد سطّر التاريخ موقفه يوم تولى الخلافة ليمثّل الشخصيّة التي بناها القرآن فيقول:" أما والله ما أنا بخيركم،... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعصم بالوحي ، وكان معه ملك، وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبتُ فاجتنبوني،...ألا فراعوني ! فإن استقمت فأعينوني، إن زغت فقوموني"(١)، وفي رواية أخرى:"أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"(٢)، فأيّ منهج يبني الإنسان كي يَعرف قدر نفسه فيحكمها، ويتميّز بأداء مسؤولياته كلّها؟، أما رجل المنهج الماديّ، فهو يعتبر تحمّل المسؤولية المادية والتربوية التزامات مرهقة؛ لأنه يعتقد المسؤولية سجناً يحبسه، وقيداً يقيّده، ومجرد ماديات يقضيها

---

(١) انظر: الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري (ت٢١١هـ)، **مصنف عبد الرازق**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظميّ، منشورات المجلس العلمي، بدون رقم طبعة ولا سنة نشر، حديث رقم: (٢٠٧٠١)،ج١١، ص٣٣٦.

(٢) **المصدر السابق**، نفس الجزء والصفحة، حديث رقم: (٢٠٧٠٢).

لأسرته، دون أن يسأل نفسه عما اقترفته يداه، ولا يسمح بأن تُسدى إليه النصيحة، فينسى الله من أعماله، فتكون هذه الأعمال لكسب الدنيا فقط، ولخسارة الآخرة، ولربما خسر الدنيا والآخرة.

لقد أبى أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه إلا منهج الحق، بتمثيله موقف الرجال الذين بناهم منهج القرآن، يُقَوِّم نفسه قبل أن يقوّم غيره، ويَعْرِف قدر نفسه، ويوقن أنه بشر معرّض للصواب والخطأ، ويعلم علم اليقين أن هناك يوم الدين، سيجزيه الله عن تقصيره فيما آتاه إياه، وعلى غير ما كان عليه أبو بكر كان الرجل الباني للأسرة في الواقع، على أساس رجل المادة الذي يظن أن كرامته تهان إذا اتبع الحق القادم من أفواه الضعفاء، وهذا الأساس الذي بُنِيَ على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، ومنها ينتج الأفراد الذين يواصلون مسيرة الانهيار.

وما نتاج أسرة كهذه أبناء يعتزون بالإثم، بردود أفعال نفسيّة، مناقضة للفطرة السليمة، والمنطق العقليّ، فيشملهم الشعور بالبحث عن نقص يشوب حياتهم، فيتوجهون إلى سدّ فراغهم بمتابعة الوسائل الإعلاميّة الغازية، بما فيها من سُمٍّ للأفكار، ومنبع للانحلال، ودسٍّ لسوء العادات، وبمرور الزمن، وتتابع الأحداث، ينشأ الجيل الذي يوصف بالرقيّ الذي يُبنى على أساس المادة والمظهر، دون قيام على الأخلاق المنبعثة من عقيدة القرآن بمعانيها وقيمها، فينشأ الفرد متغيّراً من الاستقامة إلى الانحراف، ومن سلامة النفس إلى سقمها، يخلط الحق بالباطل، والحقيقة بالزيف، فيخرجون من النور الذي منحوه بالفطرة الخيّرة إلى الظلمات التي مثلها العصر الجاهليّ الحاليّ، فجاءت نداءات النجدة بمنهج القرآن الكريم في التغيير الفردي، ليبدأ مسيرته التي بدأها يوم ربّى رجالاً كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ونساء كعائشة وأسماء بنتا أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً، ولقد أورد القرآن الكريم نماذج لنساء حققن مراتب

الكمال الإنسانيّ كمريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون([1])، ولقد سطّرت الكتب سيرةِ الرقيّ في أطهر أسرة وأزكاها، حين حملت في ثناياها قصة تعامل النبيّ عليه الصلاة والسلام بحسن خلقه مع أزواجه، وحسن قيامه بواجباته، فقال في وصف نفسه:"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"([2])، والقرآن الكريم يدعوا إلى الاقتداء بهذا التعامل لبناء الفرد في أسرة أساسها القرآن الكريم فقال الله **تعالى:**"لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً" **(الأحزاب٢١).**

---

(١) كما أخبر النبيّ عنهنّ فقال:" كَملَ مِن الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكملْ مِن النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَم ابْنَة عِمْرَان وَآسِيَة امْرَأَة فِرْعَوْن وَإِنّ فَضْل عَائِشَة عَلَى النِّسَاء كَفَضْل الثرِيد عَلَى سَائِر الطَّعَامِ"، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة(٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، شرح وتحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، كتاب الأنبياء، باب:" وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون.... وكانت من القانتين"، حديث رقم:(١٥٦٧)، ج٤- ص ٦٢٠، والتأمّل في قوله عليه الصلاة والسلام حين قال:"**ولم يكمل**" بإيراد لفظ (لم) التي تدخل على الفعل المضارع فتصرفه إلى المضيّ، دليل على أن هذا القول يعني أنه يكون في المستقبل من يحقق الكمال الإنسانيّ من النساء، وليس كما يظن الواهمون، فيقومون باحتقار النساء، وإلغاء قيمة أعمالهن وأخلاقهن، انظر حال المرأة والفكرة عنها في العصر الحالي، تجده مرجعاً للتخلف المعرفي في فهم الحديث، وهذا من أهم أهداف الغزو، قتل الأم التي تعتبر مدرسة البناء والتغيير عند خلخلة مكانتها، وإهدار قيمتها.

(٢) الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى(ت٢٧٩هـ)، **جامع الترمذي**، إشراف ومراجعة صالح عبد العزيز، دار السلام، الرياض، ط١/١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، ص٨٧٨، وقال الترمذي حديث حسن غريب صحيح، و**ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(٢٧٣هـ)، حققه بشار معروف، دار الجيل، بيروت، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، ج٣ – ص٣٩٧. **قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ مَا أَقَلَّ مَنْ رَوَاهُ عَنْ الثَّوْرِيِّ**

إن الغزو الفكريّ يهدف إلى انحراف الحكم الصادر عن العقل **(ميزان الحكم العقليّ)** للفرد والجماعة، والحكم العقلي هو قدرة الفرد على التمييز بين ما كان صواباً وما كان خطئاً، وهذا الانحراف يعني أن يتوجه الإنسان في إصدار القرارات إلى ما يحقق المصالح المادية الحياتية، والغفلة عن الآخرة، واغترار النفس أمام مغريات الحياة الماديّة، مما يشكّل الخطر في بناء الأسرة التي تعتبر أساسَ بناء الحضارة، واجتماع أُسَرٍ على أسس المادة والمظهر، يعني قيام المجتمع بعاداته وتقاليده على الماديّة التي جاء بها الغزو الغرب في حملة التغيير السلبيّ، ومن هذه الوجهة كان لا بد من عودة اتباع منهج القرآن الكريم في التغيير، لكي يعود بناء الحضارة إلى الارتقاء الإنسانيّ بخطىً ثابتة، تناسب كلّ عصر وزمان، لاتصافه بعالمية المنهج الرباني، لذا لا بد من اليقظة السريعة التي تعيد الأمر إلى نصابه، وميزان الحكم العقليّ إلى قسطه، بولادة النفس الهادفة إلى الارتقاء الحقيقيّ بكل وسائله وأساليبه مؤسسة بأسس قويمة، وإنقاذ الفرد بإنشائه النشأة القرآنية السليمة، لإقامة مجتمع يعكس في عاداته وتقاليده الاستقامة والأخلاق، ويذهب زبد الباطل جفاءً، ويحيق المكر السيئ بأهله، ويكون نتاج محاولات الغزو والمكر بالفشل، وهذه اليقظة وعد من الله تعالى الذي لايُخلف الميعاد؛ لأنها هي النور الذي يخرج الناس إليه فقال تعالى:"اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"(البقرة٢٥٧)، فميّزة القرآن المُعْجِز هو ذاك البقاء والدوام الذي حُفِظَ به.

إن في المعادلة لقضية التغيير في القرآن الكريم شطرين، **فالشطر الأول:** انتقال من ظلمات إلى نور وهو ما يسمى بالتغيير الإيجابيّ المتقدم بالفرد نحو رقي الدنيا والآخرة، وهذا التغيير ورد في القرآن الكريم بمسمى (الصلاح) وما يدلل على هذا المصطلح، ومثالها قوله تعالى:"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا **مُصْلِحُونَ** "(هود١١٧)، **وقوله:**"إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ **وَأَصْلَحُواْ**

وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً"(النساء١٤٥،١٤٦)([1]) فتوبتهم في القلب وإصلاحهم يعني تغيُّرهم إلى الصواب، **أما الشطر الثاني:** فهو خروجٌ من النور إلى الظلمات وهو التغيير السلبيّ الذي يصل بالإنسان إلى التهاوي في دركات الشقاء في الدنيا والآخرة، ومسمّاه في القرآن الكريم (الفساد) وما يدلل على هذا المصطلح، ومثالها قوله تعالى:"الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ"(النحل٨٨)، وقوله:"وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ"(النمل٤٨)، فالمفسد هو كل من لا يريد للعدل الإلهي والأوامر الربانية أن يأخذا دورهما الطبيعي في الحياة، وهذا يعني قيام الباطل على الحق، وهو الفساد بعَيْنه.

لقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى مقاصد من يمكر بالإسلام وأهله كخادمين لتحقيق الفساد في الأرض، كما أشارت إلى وعد الله بطمسه لتصحيح الفكر والاعتقاد، وتوجيه النظر إلى النهاية، وكل ذلك جاء في آيات موجزة معجزة، تصف منهج التغيير كمعركة قائمة بين الحق والباطل، فالتغيير بمنهج القرآن الكريم هو تجارة بين الله وعباده لن تبور، وهذه التجارة زادُها التقوى، وربحها الجنة الدائمة التي لا تزول، ولقد وعد الله تعالى أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، فما هم عليه هو دين الحق الذي سيظهر على الدين كله بإذنه تعالى، فقال تعالى:"يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ *هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"**(الصف٨ – ١٣).**

([1]) والآيات المشيرة إلى قضية الصلاح أو الإصلاح كثيرة، وكلها تنطوي في ثناياه موضوع التغيير الإيجابي الذي تتحقق فيه سنة الله تعالى بتغيير حال الصالح فرداً أو جماعة بإفاضة النعم عليه وتمكينه في الأرض، وعلى منوال ذلك فإن الآيات التي تشير إلى (الفساد والإفساد والمفسدين) كثيرة، وكلها تنطوي أيضاً في ثناياه موضوع التغيير السلبي، والذي تتحقق فيه سنة الله تعالى في إزالة المفسد وتعذيبه في الدنيا جزاء إفساده، واستبداله بمن هو أصلح منه... إلى آخر ما تشير إليه آيات القرآن الكريم.

<u>**الفصل الأول:مستلزامات التغيير الفردي وأهداف القرآن منه :**</u>

****– المبحث الأول: تعريف مصطلحات الدراسة:**

– المطلب الأول: تعريف المنهج لغة واصطلاحاً:

– المطلب الثاني: تعريف التغيير لغة واصطلاحاً

– المطلب الثالث: تعريف مصطلح النفس لغة واصطلاحاً.

<u>****– المبحث الثاني الاستعدادات النفسية للتغيير (الفطرية، الخلْقيّة، الروحية) :**</u>

– المطلب الأول: استعدادات النفس الفطرية للتغيير.

– المطلب الثاني: استعدادات النفس الخلْقية للتغيير.

– المطلب الثالث: استعدادات النفس الروحية للتغيير.

<u>****– المبحث الثالث: أهداف القرآن الكريم من التغيير الفردي:**</u>

– المطلب الأول: أهداف القرآن الكريم المرحلية للتغيير الفردي:

– القسم الأول: الأهداف المنهجية.

– القسم الثاني: الأهداف العملية.

– المطلب الثاني: غايات القرآن الكريم من إحداث التغيير الفردي:

– القسم الأول: الخلافة والعمل الصالح.

– القسم الثاني: التمكين في الأرض.

المبحث الأول: تعريف مصطلحات الدراسة

المطلب الأول: المنهج لغة واصطلاحاً:

- **أولاً: المنهج لغة:** مصدرٌ ميمِيٌّ([١]) من الجذر الثلاثيِّ نَهَجَ، وقد حمل هذا المصدر في ثناياه معانيَ عدّة، والمِنهاج كالمنهَج يكون اسماً وصفة([٢]). "النون والهاء والجيم أصلانِ متباينان: الأوَّل: النَّهْج، الطّريق. ونَهَج لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مُستقيم المَنْهج ، والآخر الانقطاع. وأتانَا فلانٌ يَنْهَج، إذا أتى مبهوراً منْقَطِع النَّفَس"([٣]).

وعند إطلاق لفظ المنهج بمعنى الطريق يدل على أنه "بَيِّنٌ واضِحٌ وهو النَّهْجُ"([٤])، فعند بيان الطريقَ وإيضاحه يُقال نهجت الطريق، لكي يُتخذ مسلكاً، ومرجعاً عمليّاً، ويدلل هذا اللفظ – النَّهْج– على "الطريق المستقيم،...".([٥]) ولم يرد من هذا الجذر في القرآن الكريم إلا في موضع

---

(١) المصدر الميمي في علم الصرف يسمى كذلك لكونه مبدوءاً بميم زائدة، ومنهج من مصدر ثلاثي غير معتل لذا يكون على وزن مَفْعَل، انظر: الحملاوي، الأستاذ الشيخ أحمد، **شذا العرف في فن الصرف**، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية عشر/١٩٥٧م،ص٧٣.

(٢) ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي (٤٥٨هـ)، **كتاب المخصص**، قدّم له الدكتور خليل إبراهيم جفال، دار أحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ، ١٩٩٦م) ، ج٣– ص ٣٠٧.

(٣) ابن فارس ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥)، **معجم مقاييس اللغة**، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ، المجلد الثاني، ص ٥٢٨.

(٤)ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، مؤسسة التاريخ العربي، ط٣/ ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م، مجلد ١٤/ص٣٠٠.

(٥) المصدر السابق ص٣٠٠، بتصرف.

واحدة وهو كلمة ((منهاج)) أي الطّريقُ الواسع([1])، وذلك في قول الله تعالى: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً"(المائدة٤٨) أي طريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه([2]).

وقد تبيّن من خلال المعنى اللغوي أن المنهج يقوم على الوضوح والبيان والاستقامة، أي أن يسلك الإنسان الطريق الواضح البيّنة، ولا يوجد أوضح من الاستقامة، فالطريق المستقيم واضح لأنه لا عوج فيه لتخفى الأشياء عن الأنظار، كما أنه هو الأفضل لقيام العمران، لذا فإن هذه الكلمة تضمّ في دلالاتها الدلالة على معنى الطريق العامر([3]).

– **ثانياً: المنهج اصطلاحاً**([4]): لقد اتكأ العلماء في التخصصات المختلفة عند صياغة معنى المنهج في الاصطلاح على المعنى اللغويّ، فالمنهج في الاصطلاح هو "الطريق المؤدِّي إلى الكشف عن الحقيقة العلمية من خلال التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدِّد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة"([5])، معلومة"([5])، فهذا الطريق "موصل بصحيح النظر فيه إلى المطلوب، وبالمعنى العلمي: هو

---

(١) انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد(ت١٧٠هـ)، **كتاب العين**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤–ص٢٧٠.

(٢) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **تفسير الكشاف**، شرحه وراجعه يوسف الحمادي، مكتبة مصر، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ج٢– ص٣٣، وقد ذكرت قول الزمخشري في معرض الحديث عن التعريف اللغوي لأنه استند في تفسيره للآية على الأصل اللغوي ولم يزد على معناه شيئاً.

(٣) انظر: الهروي، أبو عبد القاسم بن سلام(ت٢٢٤هـ)،**غريب الحديث**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الجزء الثاني، ص٤٢.

(٤) علماً أن المعنى الاصطلاحي للمنهج يختلف حسب العلم الذي يستخدمه.

(٥) انظر: بدوي، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي**؛ وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م، ص٤–٥.

مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معيّن لبلوغ هدف معيّن"(١)، حيث يمتاز هذا الطريق بانتظام المعلومات العلمية انتظاماً منهجيّاً ليتم من خلالها الكشف عن الحقائق، وتشكيل التصورات السليمة باعتماد أسس أوّلية تقود إلى فرز القضايا وتبويبها وتحليلها، ثم استخلاص المبادئ والقوانين العامة منها.

ويعني منهج القرآن الكريم : الطريقة السويّة البيّنة المنضبطة التي اتخذها القرآن الكريم سبيلاً له، بما تضمنته – الطريقة – من أسس، وما استخدمه القرآن من وسائل وأساليب للوصول لأهدافه ومقاصده.

***- ثالثاً: شروط منهج القرآن الكريم من خلال التعريفات الاصطلاحية:**

من خلال النظر في التعريفات السابقة تبيّنَ أن كلمتي الاستقامة والبيان قد لازمتا معنى كلمة منهج؛ حيث إن المنهج لا يتحقق معناه إلا بوجودهما، فمن لم يكن له طريق مستقيم بيّن فلا نهج له، وعدم وجود هاتين الصفتين ينفي صحة التعبير بلفظ (المنهج)، وعلى هذا نعتبرهما شرطين للمنهج، يقول الله تعالى في وصف القرآن الكريم بما فيه من تفاصيل منهجيّة، مخاطباً بقوله سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم:"لَّقَدْ أَنزَلْنَا ايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(النور: ٤٦)، فالقرآن الكريم بمنهجه جامعٌ لشرطي البيان والاستقامة.

١ – **<u>الشرط الأول: البيان:</u>** وجود صفة البيان في المنهج مؤدٍ لتحقيق الوضوح كنتيجة له، ومعنى بَيَنَ: (يقال تَبَيَّنْت الأَمر أَي تأَمَّلته وتوسَّمْته،... والتَّبْيين التثبُّتُ في الأَمر والتَّأَني فيه...،

(١) الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مكتبة مدبولي، القاهرة/ الطبعة الثالثة،١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ص٨٤٥.

والبَيان الإفصاح مع ذكاء...، أي إظهار المقصود بأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القلْب مع اللَّسَن، وأَصلُه الكَشْفُ والظهورُ"([1]).

ويتحقق بيان القرآن الكريم بما استخدمه من أساليب لإيضاح الفكرة وإظهار الحق، حيث إن تفاصيل هذا المنهج لا يشوبها الغموض، فكل أمر أخذ فيه الغموض مكاناً فلا منهج له، وهذه أحد ميّزات منهج القرآن عن أي منهج آخر، فالبيان في القرآن الكريم يمثل الطريق المعبد الممهد الذي يكون للسائر فيه السلامة التامة والأمان الدائم.

<u>(٢)- الشرط الثاني: الاستقامة:</u> الاستقامة من الأصل اللغوي **(قوم)**، وهو الاستواء والاعتدال([2])"وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح"([3])، يقول الله تعالى:"فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى "**(طه ١٣٥)**، وقوله تعالى: "..فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ..."**(فصلت٦)** أي في "التَّوَجُّه إليه دون الآلهةِ"([4])، وهو عكس الاعوجاج والميل، "وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح"([5]).

والاستقامة تعنى الاعتدال،" فالعَدْل ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم"([6])، وتأتي بمعنى القصد لقوله تعالى:"وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" **(النحل٩)**، فيقال:"القصد: استقامة الطريق وقوله تعالى: :"وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ" أَي على الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاءُ إليه بالحجج

---

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، مادة **(بَيَنَ)**.

(٢) انظر: المصدر السابق مادة **(قَوَمَ)**.

(٣) المصدر السابق، مادة **(قَوَم)**.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، مادة **(قَوَم)**.

(٦) المصدر السابق، مادة **(عَدَل)**.

والبراهين الواضحة، وقوله:"وَمِنْهَا جَائِرٌ" أَي ومنها طريق غير قاصد، فالطريق عندما يكون قاصداً يكون سهلاً مستقيماً"(١).

إن وجود هذه الصفات في منهج القرآن الكريم يسهل على الإنسان المعرفة بشكل منظم ومنضبط، ومرجع الأمر بعده إلى مدى اطلاع الإنسان على تفاصيل هذا المنهج، ومدى الاستجابة لأساليب هذا المنهج، والتدرج في السير وفق الأسس المتينة، فمدى الفهم ومقداره هو الذي يرسم معالم المنهج القرآني في أمر ما بذهن الإنسان، كما أن الطريق المستقيم هو أقصر السبل ليصل الإنسان للغاية.

وقول الله تعالى: "فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى"**(طه١٢٣)** أي لا يحيد عن الصراط المستقيم، فالضّالُّ هو "كل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم؛ لإضلاله وجه الطريق، فلذلك سمى الله جل ذكره النصارى ضالّين، لخطئهم في الحق منهج السبيل، وأخذهم من الدين في غير الطريق المستقيم"(٢).

"ومن المعلوم لدى دارسي علم النفس أن الشخصيّة المستقيمة- بصرف النظر عن معيار الاستقامة- يطلق عليها صفة (السويّة)"(٣) وتوصف الشخصية الضَّالة المبتعدة عن الاستقامة والملازمة للاعوجاج في مسيرة حياتها بأنها الشخصية المنحرفة، بصرف النظر عن مدى انحرافها.

---

(١) انظر: المصدر السابق **(قَصَدَ)**.

(٢) الطبري، ابن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، قدّم له الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، المجلد الأول، ص١١٥، بتصرف.

(٣) السامرائي، فاروق السامرائي وأحمد الدغشي، بحث بعنوان: **(الأساس الفطري في التربية الإسلامية)**، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلّد ٢٤، سنة ١٩٩٧م، ص٢٨٢.

ولقد جاء في الحديث الشريف قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قل آمَنتُ بالله ثم اسْتَقِمْ)([١])، فالإيمان والاستقامة عليه هو السبيل في إخراج الفرد من الظلمات إلى النور.

لقد وردت كلمة الطريق في القرآن الكريم بمعنى المنهج([٢]) في عدّة مواضع منها إخبار الله تعالى عن قول الجن في وصف القرآن الكريم: "قَالُواْ يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ"(**الأحقاف٣٠**)، قال الآلوسي في تفسير قول الله تعالى: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(هود الآية ١١٢)، بأن "هذا أمر بالدوام على الاستقامة ولزوم المنهج المستقيم، وهو -المنهج- الوسط بين الإفراط والتفريط وهي -الاستقامة- كلمة جامعة، تشمل كل ما يتعلق بالعلم، والعمل، وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد، والأعمال المشتركة بين النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين"([٣]). ويقول عز وجل:"إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ" (**فصلت ٣٠**)، وهذه الاستقامة في كل حال؛ ليكونوا قد "اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك"([٤])، على أن يكون "دواماً متراخياً ممتد الأمد"([١])، وأن

---

(١) النيسابوي، مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، صنع فهارسه محمد بن نزار وهيثم بن نزار، دار الأرقم، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، **كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام حديث رقم:(٦٨)،عن سفيان بن عبدالله الثقفي/ ص(٤٩)**.

(٢) علماً أنها وردت في غير ذلك وسياق الآية لا يعطي معنى المنهج لها.

(٣) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م، مجلد ٤/ ص٣٤٥.

(٤) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(ت٦١٧هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، طبعة، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، المجلد الثاني، ص٢٧٢٤.

المستقيمين على منهج الله قد "جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل"(٢)، والصعوبة في المداومة على ذلك، والاستمرار عليه(٣)، "فليس المراد منه القول باللسان فقط؛ لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، بل لا بد من أن يكون مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية"(٤) والعمل الصالح، "فرأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى"(٥).

والاستقامة موجبة "لاكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين..."(٦)، كما أن الاستقامة "لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام

---

(١) الطنطاوي، محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، مراجعة عبد الرحمن العدوي، دار المعارف، القاهرة، المجلد الأول، ص٦٠٥.

(٢) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المجلد التاسع، ج١٣، ص١٧٣.

(٣) انظر: الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، **التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث، ط٤، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، المجلد الثامن، ج٢٢- ص٨٥.

(٤) **المصدر السابق**، المجلد ٩، ج٢٧- ص٥٦٠.

(٥) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي(ت٧٢٥هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٥- ص٣٦٣.

(٦)الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد ٩، ج ٢٧- ص٥٦٢.

بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.."([١]). ومن خلال ما سبق نجد أن للمنهج عناصر أساسية لا بد أن تتحقق لقيامه:

١ - **الأهداف والغايات** التي يتوجه النظر إليها، والتي ينضبط المنهج ليبلغها([٢])، وهي تتمحور في محاولة معرفة بعض أسرار الوجود وغايته، فمعرفة أسراره الوجود هدف مرحليّ، ومعرفة غاية الوجود هدف محوريّ (غاية).

٢ - **الأسس الضابطة**، والمبادئ والقواعد، الشاملة لجميع جوانب الفرد، **والأساليب** المستخدمة لتسيير طريق الفرد وفق المنهجية القرآنية المتبعة([٣]).

٣ - **استعدادات شاملة** تُعِدُّ الإنسان **وتهيّؤه** لاستقبال توجيهات المنهج، والتزام طريقه([٤]).

المطلب الثاني: تعريف التغيير لغة واصطلاحاً:

(١)- **التغيير لغة:** قال ابن فارس"الغين والياء والراء أصلان صحيحان، الأول منها يدل على إصلاح وصلاح ومنفعة، ومنها الغيرة أي الميرة([٥])، لأنها من الصلاح والمنفعة، والآخر على اختلاف شيئين، ومن الثانية الاستثناء (بغير)، وقولنا هذا الشيء غير ذاك أي سواه وخلافه"([٦]).

---

(١) حقي، إسماعيل حقي البروسوي (ت١١٣٧هـ)، **تفسير روح البيان**، تعليق وتصحيح أحمد عبيد، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، المجلد الثاني، ص٤٨.

(٢) انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل أهداف القرآن الكريم من التغيير الفردي.

(٣) انظر: الفصل الثاني من هذه الرسالة أسس منهج القرآن الكريم الجوهرية والارتقائية.

(٤) انظر: المبحث الثاني من هذا الفصل استعدادات النفس الإنسانية للتغيير.

(٥) **والميرة:** من (مير) أي جَلَب الطعام..، وقد مار عيالَه وأَهلَه يَمِيرُهم مَيْراً إذا جلب لهم الطعام، والميرة هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع لا يُؤْخَذُ منها زكاة لأَنها عَوامِل، **انظر: لسان العرب** الأصل (مير).

(٦) ابن فارس ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥)، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص٣٠٧، بتصرف.

والتغيير من (غيَّرَ) على وزن (فعّل)([1])، وهو مصدر قياسيٌّ لفعل رباعيّ، وهذا المصدر يفيد **التكثير والمُبالغة** من الوجهة الصرفيّة، والفعل الخماسيّ (تغيَّر) من هذا الأصل فعل مطاوع ومصدره (تغيُّر)، يُقال غيّرت الشيء فتغيَّر([2]). ومنه قول الله تعالى:".. وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ..."(محمد١٥)، "والغِيَرُ من تغيَّر الحال، وهو اسم بمنزلة القِطعِ والعنَبِ وما أَشبههما([3])، ...ويجوز أَن يكون جمعاً واحدته غِيرَةٌ ... وتغيَّر الشيءُ عن حاله تحوّل، وغَيَّرَه حَوَّله وبدّله كأَنه جعله غير ما كان"([4])، فيكون التغيير إذن اختلاف الحال عن أصلها.

إن توجه المعاجم اللغوية– في ظني– إلى تفسير التغيير بالتحويل والتبديل، راجع لدلالة الكلمات الثلاث على وجود اختلاف في الشيء عن أصله، أما في الحقيقة فإن معنى كل منها مختلف عن الآخر([5])، فالتغيير لفظ جامع شامل لمصطلحي التحويل والتبديل، والاختلاف بين المصطلحات

---

(١) انظر في وزن فعّل: البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي(ت٣١٦هـ)، **الأصول في النحو**، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الجزء الثالث، ص١١٦.

(٢) الحملاوي، أحمد، **شذا العرف في فن الصرف**، ص٧١.

(٣) أي كوزن قَطَّعَ: قِطّعاً، عنّب: عِنَباً، وكذلك غيَّر غِيَراً.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، الأصل (غير).

(٥) الأَصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر، أما التحويل من حَوَلَ الذي يحمل معنى الانقلاب والنقل من حال إلى حال ومكان إلى مكان وحَوَّله جَعَله مُحالاً، وتَحَوَّل عن الشيء زال عنه إلى غيره. انظر: **لسان العرب**، في الأصلين (بدل) (حول)، وما دلّ على اختلاف معانيها أيضاً ما جاء في القرآن من اختيار لفظ التغيير للنفس، أما التبديل والتحويل فقد اجتمعا في قول الله تعالى **((ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً))** واجتماعهما دليل على اختلافهما؛ لأنه دقة دلالة ألفاظ القرآن الكريم كفيلة بتمييز كل كلمة عن الأخرى، وفي ذلك دليل من دلائل بلاغة القرآن الكريم، إذن لا يمكن أن يأتي لفظ مكان لفظ ولو اشتركا ظاهريّاً في المعنى، إلا أن هناك اختلاف في حقيقة الأمر.

اختلاف نوعي، قال أبو حيان:"والتبديل يقع موقعه التغيير، وإن كان التغيير أعم منه"([١])، فالعلاقة بين المصطلحات علاقة العموم والخصوص، إذ أن التغيير يحمل المعنيين". وتَغَايرتِ الأَشياء اختلفت، والمُتغَيِّر الذي يُغَيِّر على بَعيره أَداته ليخفف عنه ويُريحه..... ففي حديث الاستسقاء: "مَنْ يَكْفُرِ اللهَ يَلْقَ الغِيَرَ"([٢]) أَي تَغَيُّر الحال وانتقالِها من الصلاح إِلى الفساد......"([٣]).

وللتغيير في المعنى اللغوي صورتان: **أولاهما:** تغيير صورةِ الشيء دون ذاته: يقال غيّرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان([٤]). وتتناسب هذه الصورة مع التغيير الوارد في الآية الكريمة:"وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً "**(النساء١١٩ -١٢٠)**، أي سيبقى الأصل وهو ذات الخلقة، والتغيير في

---

(١) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (٦٥٤هـ- ٧٥٤هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، بعناية عرفات حسونة، دار الفكر / سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، الجزء الرابع ، ص٧١.

(٢) جملة ((**من يكفر الله يلق الغير**)) جاء في قصة طويلة حوت أبياتاً شعرية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، عندما دعا بنزول المطر فأجابه الله، فقام رجل من كنانة، وأنشد شعراً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الجملة الشطر الثاني من آخر بيت حيث قال فيه:

(ومن يشكر الله يلقى المزيد...... ومن يكفر الله يلقى الغير)

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن يك شاعراً يحسن فقد أحسنت »، إذن هذه الجملة ليست حديثاً، إنما هي قول رجل من بني كنانة في أحد أبيات قالها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وشكر الله على سقياه لهم، انظر: البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين(ت٤٥٨هـ)، **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، وثّق أصوله عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، مادة (غير).

(٤) السيد، عبد الحميد مصطفى، الأفعال في القرآن الكريم **(دراسة استقرائية للفعل في القرآن الكريم في جميع قراءاته)**، دار الحامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص١٠١٤.

الصورة وهو تحوّل في الخلقة مع بقاء أصلها، **وثانيتهما:** تبديل شيء بغيره، نحو غيّرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما(١).

وينبغي التفرقة بين التغيير والتغيُّر، فالتغيير هو"إحداث شيء لم يكن قبله"(٢) وهو عملية إرادية، أما التغيُّر فهو "انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى"(٣) والانتقال يكون غير إراديّ أحياناً، كما أن حركته متوجّهة من خارج الإنسان إلى داخله.

(٢)- التغيير اصطلاحاً: التغيير ضد الثبات، وهو تعبير عن حركة دائمة تكتنف المخلوقات الحيّة والكون عبر الزمان، ومن هذه المخلوقات الإنسان، وهذه الحركة عندما يختص بها الإنسان يكون لها خصوصيّة، حيث إنها تتعلق بالجانب المعنويّ غير الماديّ، أما المخلوقات الأخرى فالتغيير متعلق بالجانب المادي.

أما من جانب العلوم التي بحثت في هذا المصطلح، فإن للتغيير في تعريفه الاصطلاحي اختلاف حسب العلم الذي يبحث فيه على النحو التالي:

***- التغيير عند الفلاسفة:** "هو انتقال الشيء من حال إلى حال أخرى، وعند أرسطو هو الانتقال من الضد إلى الآخر، وله عندهم حالات، منها الانتقال من الوجود إلى الوجود، وهو الحركة والتغيير، وقد يتم دفعة واحدة ويسمى طفرة(١)، وقد يتم بالتدريج ويسمى تطوراً"(٢).

---

(١) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص١٠١٤.

(٢)الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي(ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، وضع حواشيه محمد باسل السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ/٢٠٠م، ص٦٧.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

والتغيير عند الفلاسفة يكون بتغيير صفة أو أكثر من صفات الشيء، أو حلول صفة مكان الأخرى، ويكون هذا التغيير إما بالكم (زيادة ونقصاً) أو بالمكان ويسمى الانتقال، أما التغيير بالجوهر فهو تغيير بالكون أو بالفساد(٣).

*- **<u>التغيير عند علماء الاجتماع</u>:** درج علماء الاجتماع على تخصيص كلمة التغيير بالتغيير الاجتماعي، واستعملوا هذا المصطلح للدلالة على "ظاهرة التحول والنمو والتكامل والتكيف والملائمة التي يتعرض لها كل نظام حضاري، ... فالتغيير عندهم لا يوجد حكماً تقويميّاً في اعتبار التغيير من الحسن إلى السيئ والعكس؛ لأن هذا المصطلح عندهم يقرر الواقع المجرد كما يكون في المجتمع، فهو يُعرَّف عندهم بالتحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي، سواء في تركيبه أو بنائه أو وظائفه"(٤).

إنّ التغيير الاجتماعي عند علماء الاجتماع يكون "كنتيجة لتفاعل التشكيلات الثقافية وتحوّلها، وكنتيجة للتأثير التراكمي للاختراع والانتشار والنزعة التوفيقية"(٥).

---

(١) **والطفرة** من طفر إذا وثب، وفي الوثوب معنى المفاجأة، والتغيير المفاجئ يستدعي وجود صدمة، لذا لم يتخذ القرآن في منهجه أسلوب التغيير المفاجئ، إنما تعامل مع النفس بالتدرج البنّاء، لإحداث التطوّر والارتقاء، وهذا يتبيّن من خلال الأسس المتدرجة التي نهجها للناس.

(٢) الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مصدر سابق، ص١٩١، بتصرف، والتطوّر هو الانتقال من حال إلى أحسن منها، أي الارتقاء بعد دخول الإنسان دائرة الإيمان، وهو تغيير إيجابيّ.

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٥٠ بتصرف.

(٤) صابر، محي الدين، **التغيير الحضاري وتنمية المجتمع** ، مركز تنمية المجتمع ،١٩٦٢م، ص٧١، بتصرف.

(٥) سميث، شارلوت سيمور، **المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية**، ترجمة علياء شكري وآخرين، مراجعة وإشراف محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة/ المشروع القومي للترجمة، بدون رقم طبعة، ص ٢٧٦.

وأما ما يتعلق بالإنسان كفرد فهو ينحصر في مجرد التربية والتثقيف للأفراد إلى أن يتم ظهور الشخصية الفرديّة، والفرد نواة لا بد أن يظهر ثمارها على المجتمع في إصلاحه ولو بعد حين(١).

فالتغيير في كتب علم الاجتماع إذن لم يَظهر كمختصّ بالفرد، إنما حُصر بمصطلحات الإصلاح والتربية برؤية عابرة، ولمحة سريعة، وإشارات موجزة.

<u>*- التغيير في نظر المفسرين:</u> ظهر مفهوم التغيير عند المفسرين من خلال تفسير الآيات القرآنية التي وردت فيها الألفاظ الدالة على التغيير مثل:(يغيّر، يغيّروا)، حيث إنها وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار، وهذا التجدد والاستمرار يحمل معنى الحركة نحو التقدم أو التراجع، وقد كان التغيير في آيتين: في سورة النساء، سورة الأنفال وسورة الرعد، صراحة، وكان موجوداً في باقي آيات القرآن الكريم ضمناً ومعنىً(٢).

وتوجز نظرة المفسرين للتغيير بأنها: انتقال حالة الفرد أو الجماعة من النعمة المادية إلى ضدها في حالة عدم الحفاظ عليها بأداء الطاعات وشكرها.

وقد ورد لفظ التغيير في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

- **أولها:** في سياق إخبار الله عن وعد الشيطان الرجيم الذي اتخذه على نفسه لإضلال الناس، كما رود في آية التي سورة النساء:"وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ

---

(١) انظر: أبو مصلح، د.عدنان ،**معجم علم الاجتماع**، دار أسامة ، عمان- الأردن، ط١/ سنة ٢٠٠٦م، ص١٣٠.

(٢) ومقصدي من قولي وجود التغيير في آيات القرآن الكريم ضمناً ومعنىً، أي أن القرآن الكريم كله داعٍ للتغيير، والتغيير سواء أكان هذا التغيير للفرد أو للجماعة هو هدف بحدّ ذاته، ولما كانت كل آية في القرآن الكريم تهدف للتغيير فإنها تضمّنت معنى التغيير، وعليه فإن القرآن كله هادف للتغيير، إذن فهو يحتوى في كل كلمة فيه ما يؤدي إلى وجود التغيير.

الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً" (١١٩)، فمن الأقوال الواردة في تفسير هذه الآية أن المقصود تغييره هو فطرة الله التي فطر الناس عليها وهو دين الله(١)، يعني أنهم ولدوا على الإسلام فأمرهم الشيطان بتغييرها، وهو معنى قوله عليه السلام: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٢).

"وقيل: تغيير خلق الله هو أنَّ كل ما يوجده الله لفضيلة فاستعان الإنسان به في رذيلة فقد غيّر خلقه... وإلى هذه الجملة أشار المفسرون، ولهذا قالوا : هو تغيير أحكام الله"(٣).

أما في سورتي الرعد والأنفال: فالعلاقة بينهما وثيقة، فقد جاء في سورة الرعد – وكان التغيير غير مخصص– **قوله تعالى:**"لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ"(**الرعد١١**)، **أما سورة الأنفال**

قال الله جل شأنه: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"(**الأنفال٥٣**)، والآيات تحمل معنى التغيير الإيجابيّ – نحو منهج الله – والتغيير السلبيّ – ضد منهج الله–

(١) لقد أوردت كل التفاسير هذا المعنى عند ذكر هذه الآية.

(٢)أخرجه البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي(ت ٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، **كتاب الجنائز بَاب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ، حديث رقم ١٢٦٦**، المجلد الأول، ج٢– ص٥٧٦.

(٣) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان(ت٧٤٥هـ)، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود، علي عوض، بمشاركة زكريا النوتي وأحمد الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٣– ص٣٦٩، كما رودت أقوال كثيرة في المقصود من التغيير، منها أن المقصود: الواشمات، والمتنمصات، والمتفلجات،... إلخ، انظر :القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المجلد الأول، ص٩٧٤– ٩٧٥.

في الحقيقة، إذ الناظر في معنى الآيتين يجد أن من كان في نعمة فعصى فقد أبدلت حاله إلى سوء، ومن كان في نعمة فحفظها بالشكر وزيادة الطاعة فقد تمت نعمة الله عليه بدوامها.

وبناء على ما سبق يكون معنى **منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي**: الطريقة المنظمة المنضبطة التي اتخذها القرآن الكريم في سبيل تحقيق استقامة النفس الإنسانية، المؤدية إلى استقامة السلوك الإنسانيّ، بإعمال كل الاستعدادات النفسيّة في الفرد لتحقيق استقامتها والارتقاء بها، وذلك يكون باتخاذ الإجراءات والأساليب الدافعة لذلك والمؤثرة فيها، ووضع الأسس الثابتة التي تتنقّل النفس بين درجاتها ارتقاءً لها، بتشكيل ميزان حكم عقليّ دقيق في حياة الفرد، لتحقيق هدف خلافة الله تعالى في الأرض كما أراد، بجعل العبودية خالصة لله وحده. لذا فإن عملية التغيير عملية تمتاز بالاستمرارية والتكامل، لا ينفك بعضها عن بعض، من عدّة وجوه:

أولاً: التكامل بين أعضاء جسم الإنسان في عملها من بداية العملية إلى نهايتها.

ثانياً: التكامل في مجالات الحياة الفردية كافة، فلا يعتبر التغيير لما في النفس كاملاً إلا إذا أدى إلى تغيير سلوكي.

ثالثاً: التكامل في مراحل عملية التغيير الفردية والاجتماعية والحضارية، فلا بد للتغيير الفردي من تأثيره على المجتمع، والانتهاء بقيام أمة إسلامية مصدرها الأول منهج القرآن الكريم، وصحيح سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثالث: تعريف مصطلحي (النفس، الاستعداد) في اللغة والاصطلاح

- **أولاً: تعريف النفس في اللغة والاصطلاح:**

لقد تعددت دلالات الجذر (نَفَسَ) ومعانيه في اللغة(١)، "فالنون والفاء والسين أصلٌ واحد يدلُّ على خُروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجعُ ما تفرع عن هذا الأصل"(١)، ويحمل

(١) ولم أذكر المعاني كلها لأنها ليست مقصد الرسالة، إنما اخترت ما يخدم الفكرة .

هذا الأصل مَعْنى "جُمْلَةِ الشيء وحقيقته، تقول قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نفسه أَي أَوْقَتَ الإِهْلاك بذاته كلِّها وحقيقتِه، والجمع من كل ذلك أَنْفُس ونُفُوس.... والنَّفْس ما يكون به التمييز"(٢)، ودليله قول الله **تعالى:** "الله يَتَوَفَّى الأَنفُس حِينَ مِوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" **(الزمر٤٢)**، "فالنَّفْس التي تكون وفاتها في منامها هي التي تزول بزوال العقل"(٣)، فتفارقه إذا نام، فلا يَعْقِل(٤)، "فهي الجوهر الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية"(٥).

أما التعريفات الاصطلاحيّة للنفس : فقد امتازت بكثرتها، وترجع هذه الكثرة لاختلاف العلوم كافة في تحديد ماهيّتها، وحقيقتها، وحالاتها، فبالنسبة للنفس عند علماء النفس تسمى الذات، أو يصطلحون عليها بمصطلح **(نفس ذاتي)**، وهي عبارة عن :"حالات الإنسان الجسدية والعقلية، وأفعاله وعملياته وفقاً للتجربة الانفعالية لتكامله، وهويته بالنسبة لنفسه في علاقتها بالماضي، والحاضر، والمستقبل، حيث تتشكل عن طريق الأنشطة والاتصالات، وعن طريق تغيير العالم المحيط أثناء نشاطه المرتبط بموضوع، وبتفاعله مع الآخرين، ... ويتم تقييم الذات (النفس) بواسطة الموضوع في مفهوم الذات، لتشكل نواة الشخصيّة الإنسانية"(٦).

---

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني، ص٥٧٤.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، **لسان العرب**، مادة **(نفس)**.

(٣) المصدر السابق، (نفس).

(٤) انظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ص١٥٣٩، وقد نقل هذا القول عن الزجاج.

(٥)الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي(ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، مصدر سابق، ص٢٣٩.

(٦) بتروفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، محرر الطبعة العربية سعد الفيشاوي، ترجمة حمدي عبد الجواد و عبد السلام رضوان، دار العالم الجديد، القاهرة، ط١/ ١٩٩٦م، ص٢٧٥، بتصرف بسيط.

لقد جاء ابن سينا في كتابه أحوال النفس ببحث مفصّل عن النفس في حدّها، وقواها، وعلاقتها بالبدن، ومراتبها،...إلخ([1])، وتبعه الإمام الرازي في اعتبار النفس " شيئاً واحداً ليست هي البدن، وليست متعددة، وأنها هي المبصرة، والسامعة، والشامة، والذائقة، واللامسة، وهي الموصوفة بالإدراكات عينها كالتخيل، والفكر، والتذكر، وتدبير البدن وإصلاحه، وأنها شيء ليست من أجزاء البدن، وأنها موصوفة بالإدراك والتحريك، وأن القلب هو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء، وأن النفس متعلقة به، وبواسطة ذلك التعلق تصير متعلقة بسائر الأعضاء"([2])، أما النسفي فيشير إلى أن النفس"هي الجسم المعاين دون ما فيه من المعنى الباطن"([3])، كما يبيّن الآلوسي أن مادة النفس هي البدن، وأن وجودها بعد وجود البدن؛ لأنه محلّها([4]).

كما أن الأبحاث الطويلة والآراء الكثيرة في حقيقة النفس والروح لا بدّ أن يكون اعتبارها من باب التفكّر المأمور به في القرآن الكريم لا من باب الظن بوجود القدرة على الإحاطة بالنفس وإدراك ماهيّتها، فإذا كانت الروح التي هي أحد استعدادات النفس غير مدرَكة، فكيف تُدرك علاقتها بالنفس؟، لقد عَلَتْ نسبة الجهل في معرفة جوانب النفس حتى طغى المجهول على المعلوم، وهذا

---

(١) انظر: ابن سينا، **أحوال النفس رسالة في النفس وبقائها ومعادها**، حققها أحمد فؤاد الأهواني، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، وقد كان منطلق ابن سينا في معرفة النفس القول: (من عرف نفسه عرف ربّه)، وله عدّة مؤلفات في النفس منها **الشفاء، ورسالة القوى النفسانية التي ألفها للأمير نوح بن منصور**...إلخ مؤلفاته.

(٢) انظر: الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الرازي(ت٦٠٦هـ)، **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق محمد صغير حسن المعصومي، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ص٢٩- ٣٠، وأيضاً ص٥١.

(٣) النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي(ت٧١٠هـ)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققها يوسف بدوي، راجعه محي الدين ديب، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١- ص٣١٨.

(٤) انظر: الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن لعظيم والسبع المثاني**، المجلد٥، ص٢٨٧.

ما دعا البعض لتأليف كتاب يسمى (الإنسان ذاك المجهول)[١]، إلا أن الأمر بالتفكّر في النفس لا يعني الظن بوجود القدرة على الإحاطة بها وإدراك ماهيتها أو كنهها، والدليل على ذلك يأتي من خلال التأمل في الآيات الوارد في الحث على التفكّر؛ فهي تشير غالباً إلى النظر في قضايا لا يقدر الإنسان على الإحاطة بها علماً، بل إن التفكّر فيها يزيد من إيمان الإنسان بربه لقدرة الإنسان على مشاهدة عظيم القدرة التي يعجز عن مثلها، وعجائب الصنعة وهذا يؤكّد عجز الإنسان أمامهما، فآيات التفكر جاءت في القرآن الكريم في الأمور التالية:

١ - **الجانب الأول للتفكّر**:التفكر في الكون من سماء وأرض وكواكب ونجوم وبحار وأفلاك، ومنها على سبيل المثال **قوله جل ذكره**:"وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**"(الرعد٣)، فمن ذا الذي يستطيع الإحاطة بعلمه بالتفاصيل** الكونية المذكورة في الآيات مهما بلغ عمله ومعرفته؟ الجواب هو الله وحده، فختمت الآيات بالحث على التفكر في تخصيص المتفكّرين بهذه الآيات فلن يعقل العجز عن إدراكها إلا من تفكّر.

٢ - **الجانب الثاني للتفكر**: التفكر فيما ورد من قصص السابقين، أي التفكر فيما مضى من زمان، وهذا مما لا يقدر الإنسان على الإحاطة به لوجوده في زمن ماضٍ لا يُعرف من هذا الزمان إلا ما وصل من أخبار، والإنسان يعجز كل العجز عن إرجاع الزمان للوراء ليعلم تفاصيل الحدث الماضي، ومثالها قوله تعالى عند ورود قصة أحد الغاوين كمثل يُضرب:"... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

---

(١) هذا الكتاب من تأليف أليكس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**.

يَتَفَكَّرُونَ" (الأعراف١٧٦)([١])، فالقصة أحد أساليب تحفيز التفكّر، إلا أن المعرفة محدودة بما تم ذكره في الآيات الكريمة.

٣- **الجانب الثالث للتفكّر**: التفكّر في كلام الله تعالى في القرآن، وهو من أحد الأمور التي لا يحيط بها الإنسان علماً إنما العلم في كلمات الله في كتابه معجز للبشر إلى يوم الدين، كقوله **تعالى**:"لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(**الحشر٢**)، ومما لا شك فيه أن الإنسان عاجز عن الإحاطة الشاملة بمراد الله من كلامه، ولو كانت لديه القدرة على إدراكه لما عجز عن الإتيان بمثله.

ومثل تلك الجوانب كلها كان التفكر في النفس، فلن يستطع الإنسان وصولاً إلى إحاطة بها مهما بلغ علمه فيها، فقال جل وعلا:"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ"(الروم٨)، وبهذا فإن الإشارات القرآنية في الحث على التفكّر، يكون فيما لا يقدر الإنسان على إدراكه إدراكاً شاملاً، ويكون التفكّر فيما لا يستطيع أن يحيط به علماً، إنما كامل العلم عند الله، والتفكّر فقط لزيادة اليقين والإيمان بالله والتدليل على وجوده وقدرته، هذا دليل على أن من أهم الأسس التي انتهجها القرآن الكريم للتغيير هي استمرارية شعور الإنسان بالعجز أمام القدرة الإلهية؛ فكلما زاد تفكّر الإنسان بالجوانب السابقة كلما زاد استشعاره بالعجز أمامها([٢]).

وعلى ما سبق؛ فإن حدّ موضوع النفس بحدود، وتقييده بقيود، هو بمثابة بحث فيما لا يُدرك تمام الإدراك، فالبحث من باب زيادة المعرفة لا من باب الوصول إلى إحاطة بهذا الأمر المتفكّر

([١]) في قول الله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"

([٢]) انظر مبحث الأسس الجوهرية من الفصل الثاني في قضية البناء الفكري من خلال العجز الإنساني كأساس من أسس التغيير.

فيه؛ لأنه لا استقرار لحال النفس كي يُعرف حدُّها، ولكن آيات القرآن الكريم تكشف أن لنفس صلة بجوانب الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الصلة هي وجودها في موقعها المتوسط الجامع لكل جوانبها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

والخلاصة: إن مصطلح النفس مسمّىً يُطلق على"المركز المتوسط الذي يملك قدرة التعامل مع العمليات الحسية والعقلية والشعورية- القلبية- والسلوكية والروحية، والتي تترجم الخبرات، والأفعال، والعمليات العقلية للإنسان، التي يمرُّ بها خلال تفاعله مع أفكاره الداخلية، وبيئته الخارجية، والمتحكمة في الحياة الشعورية واللاشعورية بمظاهرها الداخلية والخارجية"([1])، ومن هنا جاءت أهمية تحديد التغيير بالنفس؛ لأنها الموقع الاستراتيجيّ والمتوسط لضمان تغيير كامل وشامل في الإنسان على مستوى الفرد والجماعة.

***- ثانياً: تعريف الاستعداد في اللغة والاصطلاح:**

التعريف اللغوي للاستعداد: أصل الاستعداد من (عدّ)، وقال ابن فارس فيه أن :"العين والدال أصلٌ صحيح واحد...يحمل معنى الإعداد الذي هو تهيئة الشَّيء"([2]).

([1]) انظر: كاريل، أليكس، **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ص١٨،ص٢١،ص٢٢١، **ويعرّف الشعور بأنه**: مجموعة الوقائع النفسية، كالأفكار والصور والعواطف وأنواع الإدراك الحاضر في شعور الفرد في زمن ما. انظر: سالمي، د.عبد المجيد وآخرون، **معجم مصطلحات علم النفس**، دار الكتاب بيروت، ط١، ١٤١٩- ١٩٩٨م. ص١٤٢، **ويُعرّف اللاشعور**: بأنه مجموعة المحتويات غير الحاضرة في مجال الشعور، أو هو كل المحتويات المكبوتة التي مُنعت من العبور إلى نظام ما قبل الشعور، نفس المرجع ص٢٠٥

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص ١١٨.

- **أما التعريف الاصطلاحيّ للاستعداد:** فقد جاءت في تعريف الاستعداد اصطلاحاً بأنه"وجود إمكانية – مسبقة– للوصول إلى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب، سواء أكان هذا التدريب مقصوداً أم غير مقصود"(١)، وهذا التعريف إنما هو استعداد الفرد السابق لعملية التغيير، وهو في علم النفس ذو دلالتين، الدلالة الأولى تعني"(الاستعداد المسبق أو التهيّؤ) ويعَدُّ أساساً لوصف استعداد الفرد لتقييم المواقف والعمل بما يتفق والخبرة السابقة"(٢)، أما الدلالة الثانية فهو يحمل معنى الجاهزيّة.

بعد حصول عملية التغيير يصبح الفرد مستعدّاً وجاهزاً لما بعدها، فيكون معنى استعداده في هذه الحالة(الجاهزيّة): "وصول الكائن الحي إلى مستوى مناسب من النضج يمكّنه من تحصيل الخبرة أو المهارة، عن طريق عوامل التعلم الأخرى المؤثرة"(٣)، وهذه هي الدلالة الثانية من دلالات المصطلح، وبالنسبة للإنسان فقيام شخصيته على أسس متينة، تضمن– هذه الأسس– للإنسان توازنه، وهذا التوازن محقِق لحسن خلافته على أرض الله تعالى بتطبيق أوامره الواردة في القرآن الكريم، وحسن الخلافة يضمن تغيير كل ما لا يرضى الله تعالى به، بضبطه وفق التفاصيل الواردة في منهج القرآن الكريم وصحيح سنة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

علماً أن وصول الإنسان إلى درجات الاستعداد والجاهزيّة متفاوت ومتعدد، ويعود ذلك إلى الفروق الفردية في طبائع الناس أولاً، واختلاف مدى الاستجابة لتشريعات القرآن الكريم الراجع إلى التفاوت في همم الأفراد للتغيّر الإيجابيّ ثانياً، إلا أنه من تمام العدل الإلهي أن أوجد استعداداً عاماً

---

(١) زيدان، د.محمد مصطفى، **معجم المصطلحات النفسية والتربوية**، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص٣١٥، بتصرف.

(٢) بتروفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مصدر سابق، ص٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤٠.

يكتسب الإنسان به مقداراً من الصفات الخُلُقية– مثلاً الفطرة والخِلْقة–، وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلاً منهم من فِطَر، وبحسب ما وهب كلاً منهم من استعدادات خاصة وهمّة تتفاوت في علوّها، فوجود الاستعداد العام سبيل لتحقيق التغيير الأساسيّ وهو الجوهريّ الذي يتمثل بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، أما وجود الجاهزية المتفاوتة فهي سبيل لتفاوت درجات الارتقاء بين الأفراد، والتغيير الجوهريّ والارتقاء هما أسس التغيير في منهج القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الاستعدادات النفسية للتغيير الفطرية والخلقيّة والروحية

إن معرفة الإنسان لنفسه هي سبيله لإيجاد الطريقة التي يجب عليه أن يتعامل بها معها، وعندها يكوّن نظاماً تنفيذيّاً ذاتيّاً ينظم فيه علاقته مع نفسه التي إن نجح في تحقيقها نظّم علاقته مع ربه والناس، وهذه أحدى الضروريات التي جاء بها الإسلام، وهي تنظيم علاقة الإنسان بنفسه، فإذا انتظمت علاقته مع نفسه عرف كيفية تغييرها حسب ما يُحْيِيها، ونسّق بينها وبين علاقته مع الناس، فعرف ما له وما عليه.

ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد جاء بالمنهج المراعي لكل هذه الاستعدادات دون الخروج عن قدرتها وطاقتها، بل هي من أهم الأسس التي أقامها، بأن سيّر النفس وفق طبيعتها الفطرية والخلقية والعملية، وجاء بما ينظمها ويحفظ سلامتها، دون إكراه للنفس، مع منحها كامل الإرادة في اختيار الأعمال، والتبعات التي تحاسب بها النفس تكون مقابل اختيارها حُسْناً أو سوءاً.

كما أنه لا بد من معرفة مكنونات النفس الإنسانية، والاستعدادات التي تهيّأت في هذه النفس ليتم توظيف كلّ منها وفق المهمة الطبيعية والأساسية التي خُلِقتْ لها، وليتسنّى للإنسان إدراك ذاته ليُظهر إمكاناتها، وليتجنب تشتيت طاقاتها غير المتناهية، ومن وجهة أخرى فإنها سبيل "لمعرفة طريق تزكية النفس، فتفيد استعداد النفس لقبول الهدايا....، فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل

إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وإنما يتحقق الكمال بقدر معرفة الله، ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى"(١)، فكمال المعرفة يستوجب كمال الالتزام، وهو السبيل لوصول الإنسان إلى مراتب الكمال في التطبيق العملي لمنهج القرآن الكريم.

لقد شملت استعدادات النفس الإنسانية للتغيير بشكل عام – دون حصر– الجوانب التالية:

– المطلب الأول: استعداد النفس الفطريّ للتغيير:

وهو من أهم الاستعدادات الأولى للتغيير، حيث أن التغيير الإيجابيّ هو كل حركة نفسيّة يكون نتاجها الحفاظ على الفطرة سليمة من كل ما يشوبها أو يلوثها.

لقد ذكر ابن فارس أن "الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على فَتح شيء وإبرازه... والفطرة هي الخِلْقة "(٢)، أو شقّه، أو الابتداء والاختراع(٣)، وتعني الفطرة الجِبِلَّةِ والطَّبْعِ المُتَهَيِّء لقبول الدِّين، فلو تُرك عليها لاستمرَّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها(٤).

والفطرة عند علماء النفس: مجموعة الخصائص الطبيعية الأولى التي يكون عليها المولود في وقت مولده، وتكون إما ظاهرة أو كامنة(٥). **والفطرة السليمة:** مجمل الآراء العامة غير الخاضعة

---

(١) الغزالي، أبو حامد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٥١، باختصار.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ،ص ٣٥٨.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (فطر).

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (فطر).

(٥) سالمي، عبد المجيد سالمي وآخرون، **معجم مصطلحات علم النفس**، ص١٩٠.

للتأكيد العلمي([1])، حيث إن هذا النوع من الاستعدادات يعتبر "استعداداً أوليّاً أو ذكاءاً عاماً يلزم للتعلم، واكتساب الخبرة، وتوظيف القدرات العقلية والبدنية التوظيف الذي يخدم مصلحة الفرد"([2]).

ولقد جاءت المعاجم الفلسفيّة بتعريف الفطرة بأنها مقابلٌ للمكتسب، وأضافت على ما سبق من تعريفات أن الفطرة "... الاستعداد الأمثل لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، ولا تنتقل من القوة إلى الفعل إلا بالتجلية أي بالتجربة والعمل"([3])، ويأتي التعبير عن الفكرة عندهم عن "ملكة الحقائق الأولية؛ وهي المعتقدات التي تحظى بالموافقة الضمنية العامة، ومبادئها حقائق لا تُستنبط، ولكنها واضحة بذاتها، ومستقرة في عقل الإنسان، وتفرض نفسها عليه في لغته، وتحكم سلوكه، ومنها العادات والآراء التي تكون لدى غالبية الناس، والتي يقيمون عليها ممارستهم اليومية، ويسميها البعض ملكة الفهم التي يتم بها إدراك المعاني، و فيها أساس كل معرفة، ومنها الفطرة الناقدة"([4]).

وفي علم التفسير الذي هو منطلق لما سبق من علوم تم تعريف الفطرة تعريفاً يجمع كل ما سبق فذكرت بأن الفطرة هي: "الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل، التي هي معدَّة ومهيأة لأن يميِّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه، ويؤمن به"([5]).

---

(١) بينيش، هلموت، **أطلس علم النفس**، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، المكتبة الشرقية، بيروت، ط١/ ٢٠٠٣م، ص٢٤.

(٢) الحفني، عبد المنعم ، **الموسوعة النفسية علم النفس في حياتنا اليومية**، ص١٥٥.

(٣) صليبا، د.جميل، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، ط١، ج٢- ص١٥٠- ١٥١.

(٤) الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، ص٥٩٧ بتصرف بسيط.

(٥) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق عبد الله الأنصاري، عبد العال إبراهيم، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمدان آل ثاني أمير دولة قطر، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، مجلد ١١- ص٤٥٣.

إن الاستعدادات الفطرية عبارة عن مداخل لتغيير النفس تتلخص بما يأتي:

- **المدخل الفطريّ الأول: الإنسان موحّد بالفطرة:** إن الإنسان متديّن بفطرته، ويؤمن بالتوحيد على نحو إجماليّ كليّ لا على التفصيل؛ لأن في فطرته "ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها"(١)، ويعني أنه باحث عن تلبية حاجة في نفسه، شعور بالضعف، فلا بد له من البحث عن إله يوجِّه إليه حاجته للتدين، وفقره وضعفه في كسب أموره وتدبيرها، ولقد أشارت الآيات القرآنية إلى بحث إبراهيم عليه السلام عن الإله الأحق بالعبادة والتوجه، حيث إنه كان حكيماً في اتخاذ الأسلوب المناسب، ففي سورة الأنعام بيّنت الآيات كيف وظَّف إبراهيم عليه السلام هذه الحاجة الفطرية- أو الاستعداد- سبيلاً للدعوة إلى الله وتوجيه الناس إلى الله الحق، فجاء بأسلوب يرد الفطرة إلى أصلها بعد أن شابتها شوائب الشرك والانحراف، ليتنقّل بأفكار الناس ومعتقداتهم عن الإله، ليَخْلُصَ إلى أساس التوحيد الفطري، فيأتي بنتيجة منطقيّة مناسبة للفطرة، مجانسة للعقل، **قال تعالى في ذلك:**" فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"(**الأنعام**٧٦ – ٧٩).

إن توحيد الله تعالى متأصّلٌ في الفطرة الإنسانية، فيصف البيضاوي أولياء الطاغوت بأنهم خرجوا "من النور الذي مُنِحُوهُ بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد، والانهماك في الشهوات"(٢)،

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، راجعه ونقّحه خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، المجلد الثاني، ص٤٠٠.

(٢) البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد(ت٦٩١هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٥٥.

ويضيف الشوكاني بأن الناس "إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق، رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم"(١)، إذن فالتوحيد عبارة عن "ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى"(٢).

ويقول القرطبي ناقلاً عن القشيري في معنى (عابدين) في قوله تعالى:"إِنَّ فِي هَـذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ"**(الأنبياء١٠٦)**: "ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق، بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة"(٣).

ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث ما يؤكد فطرة الإنسان الموحّدة الخالية من شوائب الشرك، فمنها الحديث المشهور:"ما من مولود إلا يولد على الفطرة..إلخ"(٤)، وفي حديث آخر عن قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :" أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ

(١) الشوكاني، محمد بن علي(ت١٢٥٠هـ)، **فتح القدير**، ص١٣٥٥.

(٢) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، مجلد ٣، ج٨-ص١٣٩١.

(٣) انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المجلد الثاني، ص٢٠٧٨، وبعد البحث لم أجده قد نقل هذا الكلام من تفسير لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيري(ت٤٦٥هـ) أو أحد مصنفاته المتوفرة، حيث إنّ له مصنف آخر في التفسير وهو **التيسير في التفسير لم أقع عليه**، انظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ج٢/ ص٢١٢، كما أن هناك مؤلفاً آخر يُدعى عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري(ت٥١٤هـ) له مؤلفات منها **تفسير القرآن، والموضح في فروع الفقه الشافعي**، لكن لم أستطع الحصول على هذه المؤلفات لعدم توافرها، انظر: المصدر السابق، ج٢- ص١٣٢.

(٤) سبق تخريج الحديث الشريف في ص٣٨.

فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا...."(١) إلى آخر الحديث الشريف.

والخلاصة: إن التغيير الذي جاء به القرآن هو تخليص الإنسان من كل عوارض الشرك بالله تعالى، وإعادة الإنسان إلى أصل فطرته الموحّدة لله، وهو من أهم الاستعدادات الأوليّة لتهيئة الإنسان لقبول عملية التغيير نحو منهج القرآن الكريم.

- المدخل الفطريّ الثاني: الخير فطرة في الإنسان(٢):

لقد بيّنت آيات القرآن الكريم عند حديثها عن حقيقة وجود الله تعالى وصفاته أن الله جل وعلا "كان قبل كل شيء بغير حدٍّ، وهو بعد كل شيء بغير نهاية"(٣)، والله تعالى من صفاته الحق والنور، ويتمثّل كلُّ الخير في ذاته وصفاته، وهو الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعليه يكون وجود النور قبل الظلمات، وكذا الحق فإنه سابق للباطل، إذن فالإيمان سابق للكفر إذ أن

---

(١) **أخرجه الإمام مسلم في صحيحه**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم(٧٣٠٩)، ص١٣٦٧..

(٢) لا بد من الإشارة إلى أن هناك اختلافاً في اعتبارات الفطرة الإنسانية بين الخير والشر، فهناك من يقول إن الإنسان مفطور على اكتساب الخير والشر، وهناك من يقول إن الإنسان مفطور على الشرّ، والأغلب وهو الأصح الذين ذهبوا إلى أنه مفطور على الخير، وما سقته من حديث في هذا الصدد استدلال على مذهبهم، علماً أن كل المفسرين متفقون على أن الإنسان مفطور على الخير، ويتعاملون في تفسير الآيات القرآنية الخاصة بالإنسان على ذلك الرأي، والله تعالى أعلم.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، مصدر سابق، المجلد الثالث عشر، ج٢٧، ص٢٤٦. ، وجاء في حديث أخرجه **البخاري في صحيحه** في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى:"وهو الذي يبدأ الخلق ثمَّ يعيده"، عن عمران بن حصين، المجلد الثاني، ج٤- ٥٤٢.

الملائكة وحتى إبليس كانوا مؤمنين عابدين، إذن يكون الخير سابق للشر، فبداية الشرّ كانت من لحظة عصيان إبليس لله جل وعلا، ولقد خُلقَ آدم قبل أن تُعرف المعصية، والخير موجود بوجود الله تعالى، والله تعالى سابق لكل موجود، ولما خُلق آدم لم يكن إبليس قد عصى الله تعالى بَعْدُ، فأول شر كائن بعصيان إبليس لله، وعليه بُنيت كل الشرور في الحياة، بل كان كل شيء قبلها يسير وفق طاعة الله حتى إبليس، وهذا دليل على أن الحياة قبل معصية إبليس كانت قائمة على عبودية كل المخلوقات لله تعالى، وهذا من أدل الأمور على أن آدم كان مفطوراً على الخير مجبولاً فيه؛ لأنه لا يوجد في الحياة عند خلقه إلا الخير.

وإن سأل سائل: فما بال الشرّ يصدر عن الإنسان لدرجة تظهر نفسه بأنها هي الشرُّ ذاته؟

فالجواب: إن "الشر الذي يصدر من النفس الإنسانية يكون مجرد حالة نفسية عارضة للإنسان، نظراً لتأثره بعوامل خارجية، أو لسوء استخدام قواه النفسية، فإن لم يجاهد نفسه بإعادتها لأصلها الخيّر، طغت عليه حالة الشر حتى كأن الشر أساسه، على سبيل المجاز"(١).

كما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن في حديث رواه الترمذي أن أصل القلب الصفاء، وأن هذا الأصل إنما يغيّره ما اقترف الإنسان من ذنب، فروى أبو هريرة عن النبيّ عليه الصلاة والسلام:"إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صقل قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ"(٢)، حيث إن هذا الحديث جاء في

---

(١) السامرائي، فاروق السامرائي وأحمد الدغشي، بحث بعنوان: (**الأساس الفطري في التربية الإسلامية**)، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢) رواه **الترمذي في سننه** كتاب تفسير القرآن الكريم، باب ومن سورة المطففين، ص٧٦١، وقال **هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ**، **وابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(٢٧٣هـ)، كتاب الزهد باب ذكر الذنوب، ج٥-ص٦٣٦، **والإمام أحمد في مسنده**، في مسند أبي هريرة رضي الله عنه، مصدر سابق، ج١٣ص٣٣٣،

تفسير قول الله جل وعلا:"كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ"(المطففين١٤)، فلو كان الإنسان مفطوراً على الخير والشرّ لكان في قلبه أصلاً سواد وزاد عندما اكتسب الشر، وصفاء قلبه الذي يلوّث بالمعاصي دليل على سلامته من الشرّ، وكونه من أصلٍ خيّر.

لقد جعل الله –جل وعلا– الاستعدادات الفطرية تجهيزاً وتهيئة لهذا الإنسان ليحمل رسالة هذا الدين، وهذا الدين المرجع الذي يَرجِع الإنسان بتمسكه به إلى أصله الخيّر، فلو خلق الإنسان مفطوراً على اكتساب الشرّ لكان ظلماً في حقه– وحاشى لله–؛ وذلك لأن الله يعلم أن هناك من الشرور ما يحيط بالإنسان، فوجود فطرة الشر فيه وإحاطته بالشرور سبيل حتميّ لولوجه في دركات الشر، وكانت حجة الله تعالى على الناس أن جعل لهم الخير في فطرتهم، ليكون أصلهم هو ذاته مرجعهم، فإذا تفلّتت النفس عن أصلها جاء التزامها بمنهج الله ليكون مرجعاً لها، " فالتزام المنهج الذي يلائم الفطرة، هو الذي يعينها على الانفلات من القيود الطارئة على الفطرة الخيرة، والتحرر من ربقة الشهوات المقيدة!"(١)، لذلك جاء قوله تعالى:"وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"(الأعراف: ١٧٤)، فالسؤال المنطقيّ: إلى ماذا يرجعون عندما تُفصّل لهم الآيات؟ والجواب أن يرجعوا إلى أصل فطرتهم السليمة التي هي مبدأ خلقهم بعدما ابتعدوا عنها بعصيانهم، فهي منشأ وجودهم، و"المعنى

والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق عبد الغفار سليمان، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٦– ص٥٠٩.

(١) قطب، سيد، **هذا الدين**، مكتبة وهبة، ط٤، بدون سنة نشر، ص٣١، بتصرف.

ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بمقتضاه"(1)،إذن "فسلامة الفطرة متحققة في كل واحد، فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها"(2).

- **المدخل الفطريّ الثالث: الإنسان متعلّم بالفطرة:** إن فطرة التعلم في الإنسان لها دورها، فهي الوسيلة التي اتخذها القرآن الكريم لتغيير الإنسان فرداً وجماعة نحو المنهج الذي يضمن لهم السلامة والاستقامة، فالله تعالى خلق للإنسان كل المدركات التي تؤهله للتعلم، حيث إن التجهيزات الخلقيّة والعملية التي أودعها الله في الإنسان بدأ عملها في آدم يوم بُثّت الروح في جسده الذي تمت خلقته وفق حِكَمٍ ربّانية، ولو لم يكن الإنسان متعلماً بفطرته لما كان مخلوقاً متميّزاً عن باقي المخلوقات، فالحيوانات تتصرف بسلوكات غريزية دون تعلّم علميّ عقليّ، خالٍ من الإدراك والإرادة، أما الإنسان فإن من فطرته اكتساب الخبرات التي تنمّي قدراته الحسية الإدراكية السلوكية، وتؤهّل إرادته لأخذ دورها في الحياة في اتخاذ القرارات التي تحكم سلوكه، لتكون حياة الإنسان محكومة بإرادتين: إرادة الله العالم بما ينفع الإنسان، وإرادة الإنسان الذي يتخذ قراراته، ويحدد مسلكه في الحياة.

إن قول الله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"**(البقرة ٣١)**، دليل على أنّ أو عمل قام به آدم بعد خلقه هو التعلم، وأول اختبار واجهه آدم هو اختبار علميّ في إنباء الملائكة ما علمه الله إياه، وكل ذلك دليل على أن فطرة التعلم هي أول فطرة عمليّة تمّ تفعيلها في الجنس البشريّ منذ بداية الخلق، وبما أن عملية التغيير في الفرد تكون عملية معرفية

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المجلد الرابع ص١٠٢.

(٢) العمادي، محمد بن محمد الحنفي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ج٥- ص١٧٦. ويقصد أنَّ الحساب مترتب على مخالفتها.

تقوم في أساسها على تعلّم المعارف، واكتشاف المجهول، كانت فطرة التعلّم في الإنسان من أحد الاستعدادات الفطرية التي تهيّؤه التغيير.

كما أن وجود التعلّم مغروس بالفطرة يعني زيادة الخبرات والمعارف، وزيادة الخبرات والمعارف يعني التقدم في المسيرة الحياتية؛ وذلك لأن زيادة المعلومات الواردة على الإنسان تفرض عليه اتخاذ إجراء جديد أنسب لقيام المصلحة الحياتية، والتقدم يعني التغيير والتجديد في الحياة، إذن فإن الإنسان بفطرته متوجه إلى تغيير معارفه عن نفسه وربه والناس وكل ما في الكون.

إن نقيض العلم هو الجهل، وإن الجهل كفيل لأن يوصل الإنسان إلى الكفر بالله تعالى، وإنكار وجوده، أو الإعراض عن أمره مهما وجدت الدلائل، وأثبتت البراهين لزوم التوجه إلى منهجه، وقد بيّن ذلك قوله تعالى:"وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ"(الأنعام١١١)، فيكون الجهل الحائل بين الإنسان وبين أصله الموحّد لله والخيّر "بتضييع رأس ماله، وهو الفطرة الأصلية، والعقل السليم، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول واستماع الوحي وغير ذلك من آثار الرحمة"(١)، حيث إن وجود فطرة التعلم تكفل وجود آلية ترجع بالإنسان إلى أصله المفطور عليه، وهذا من رحمة الله تعالى بالإنسان، ومن تمام قيام الحجة عليه بأن جعل له من الخير الداخليّ –الفطرة– والخارجيّ – المنهج– ما يكفل له حسن الاختيار لنيل حسن الجزاء، ومن هذه الوجهة كانت عملية التغيير الفردي في القرآن الكريم قائمة على أصول معرفيّة تغذي معارف الإنسان عن الله والكون ونفسه والحياة، حتى يميّز من خلال هذه التغذية المعرفية بين الحق والباطل، وعندها يُعتبر التغيير الفكري منطلقاً للتغيير السلوكي للإنسان فرداً ومجتمعاً، وناهضاً بالإنسان إلى قمم التغيير الارتقائي.

---

(١) العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٢– ص٣٦١.

إن اجتماع الاستعدادات الفطرية يكفل وجود تهيئة فطرية لهذا الإنسان ليحمل رسالة هذا الدين، كما جاء في قول الله تعالى:"إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً "(الأحزاب٧٢)، ومعنى حملها:" أي "كلفّها وألزمها أو صار مستعداً لها بالفطرة"(١).

إن الاستقامة هي الرجوع إلى الأصل المستقيم كي يعود الإنسان إليه بعد مفارقة من خلال تعلم تفاصيل منهج القرآن الكريم، وبه يتحقق التغيير بالتوجه العملي لتطبيق منهج القرآن، "والذي يكفر بالله – الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها–...تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يُرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب"(٢) لذلك جاء في الآية الكريمة:"إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً" (النساء١١٦)، يقول سيد قطب: " وحين تستقيم النفس مع فطرتها، وحين تلبي حاجاتها وأشواقها، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجري مع الحياة في يسر وطواعية؛ وتمضي مع خط الفطرة الصاعد، إلى القمة السامقة؛ وهي تجد الأنس والاسترواح والطمأنينة والثقة في خط سيرها الطويل"(٣)، وفي وصولها إلى تلك القمم السامقة تحقيق لأعلى مراتب الالتزام بمنهج القرآن الكريم للوصول إلى مراتب من الكمال الإنسانيّ في الإيمان والعمل الصالح.

المطلب الثاني: الاستعدادات الخَلْقيَّة وعملياتها:

إن في جسم الإنسان "ذاتٌ ازدواجية، فالخارجية منها المادية في جسده، تقابلها الباطنية الروحانية لفِكْره ووجدانه وروحه، وهي التي تجعل منه شخصاً يتمتع بالقدرة على التحكم والتقرير الحرّ

(١) الشوكاني ، **فتح القدير**، مصدر سابق، ص١٤٢٦.

(٢) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مصدرسابق، مجلد ٢، ج٥– ص٧٧٨.

(٣) قطب، سيد، **كتاب هذا الدين**، مرجع سابق، ص٢٩.

لسلوكه"(١)، لذا فإن من الطبيعي صعوبة التفريق بين ما هو مادي وما هو روحانيّ للتَّوافق الازدواجي الذي يربطهما.

إن في جسم الإنسان تجهيزات عضويّة دقيقة، ودقّتها في الوجود والعمل دليل على إتقان الموجِد لها، وكمال خلقه، وجمال صنعه، وهذه التجهيزات تمثل استعدادات للتغيير والارتقاء كلما تمّ توظيفها وفق العمل الطبيعي الذي خُلقت لأجله.

أما ما يتعلق بموضوع الدراسة من استعدادات فهي كما يلي:

(١)- السمع والبصر (٢):

وهي المستقبلات التي تصل ما بين العالم الخارجي للإنسان والعالم الداخلي له، أي هي المداخل الموصلة للنفس المراد تغييرها، حيث تنقل الحقائق والوقائع من الحياة الخارجية للإنسان لترسم الحياة الداخلية له، فهي حلقة الوصل بين ما يكون حول الإنسان وبين ما يجري داخله، والنافذة المطلة على خارج الفرد.

ويقوم هذا الجانب من الاستعدادات على "أجهزة مزوّدة بأنظمة متخصصة لجمع المعلومات التي تمكّن من التقاط المعطيات بحيث يتم تخطيط السلوك"(٣)، ويتلقى منها المدركات، ويكيّف

---

(١) شوشار، يول، **دماغ الإنسان**، ترجمة خليل سابق، المنشورات العربية، بيروت، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ص١.

(٢) وقد سمّاها علماء النفس المستقبلات الخارجية.

(٣) المنصور، غسان، **المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس**، رسالة ماجستير في علم النفس سنة ٢٠٠٢م، إشراف د. على منصور، جامعة دمشق، ص١٧.

وجوده حسب الأخبار التي تصل إليه من العالم الخارجي([١])، والمستقبلات الحسية الخارجية للإنسان المتعلقة بعملية التغيير والمختصة بنقل تفاصيل الوقائع الخارجية هما (السمع والبصر)، فهاتان الحاستان تتخذان وظيفة نقل المنبهات المعرفية، أي هما نافذت المعارف.

والسمع والبصر من الاستعدادات الخَلْقِيَّة الأولى "للتلقي، والاستجابة والمعرفة والاختبار"([٢])، **فيقول الله تعالى:** "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً" **(الإنسان٢)، فهما**"حاستا الإدراك والتأمل المشكّلتان لاستعداد الإنسان للقبول والرفض"([٣])، ففي الآية الكريمة إشارة إلى أنهما نعمة الله تعالى على الإنسان بأن جعل له سمعاً يسمع به وبصراً يبصر به رأفة من الله تعالى وحجة على الإنسان([٤])، "لأنه يسمع بحاسة السمع الهدى والأدلة السمعيّة، ويُبصر بالبصر الهدى والآيات الآفاقية والأنفسيّة"([٥])، فَذِكْر السمع والبصر في الآية القرآنية السابقة "كناية عن التمييز والفهم، فهما آلتاهما، وهما أشرف الحواس تُدرَك بهما أعظم المدركات"([٦])؛ لأنها الحواس التي تعين الإنسان

---

(١) انظر: جلبي، د.خالص، **الطب محراب الإيمان**، دار النفائس، بدون رقم طبعة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، الجزء الثاني ص٢٠٢.

(٢) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، مجلد ٦، ج٢٩– ص٣٧٨٠.

(٣) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار(ت١٣٩٣هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ص١٨٠٤.

(٤) انظر: الطبري، ابن جرير، **جامع البيان**، المجلد ١٢، ص٣٥٦، بتصرف.

(٥) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المجلد العاشر، ص١٦٩ بتصرف.

(٦) الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان(ت ٧٥٤هـ)، **تفسير البحر المحيط**، بعناية عرفان حسون، مراجعة صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج١٠– ٣٥٩.

على التعلم والتكيّف مع الكون والحياة، وهما الحاستان اللتان تعينان الإنسان في البحث عما يوصله إلى توحيد الله، وهما كفيلتان بإدخال المعلومات التي على أساسها تتبني المقدمات العقلية.

إن تشكيل الإدراك الحسي يتم بالباحة الحسيّة النفسية، فلكل حاسة خارجية للإنسان تمتد خلفها باحة حسية أولية، "وهي ثانوية يتم فيها تكامل الإحساسات الابتدائية، وتعمل على تحديد هوية الجسم المحسوس والتعرف عليه، حيث تكون الإدراكات المحسوسة مسجلة في هذه الباحة التي تمثل المركز لتكامل الإحساسات الحالية ومرْكزاً ذاكرياً للمدركات الحسيّة السابقة بآن واحد"(١).

فالحواس تأتي بالمعلومات، ولكن لا تتم قراءتها ببساطة من خلال ما يصل من رسائل، فقراءتها هي عبارة عن عملية تسمى الإدراك، ويمكن تقسيم الإدراك إلى أنواع حسب عمل كل جهاز من الأجهزة الإدراكية، أي أن هناك إدراكاً بصريّاً وسمعيّاً وحركيّاً وحسّياً...إلخ(٢).

أما الانتباه فهو عمل أولي من أعمال حواس الاستقبال، يعمل على إيجاد قدرة الفرد للتكيف الذي يقوده إلى المعرفة العميقة للشيء المنبه إليه، فالمعرفة عادة تتضمن الانتباه للأشياء والحوادث، وحين يُنَبّهُ إليها الفرد تصبح أوضح وأميز في شعور الفرد، حيث إن التنبه للشيء يكسبه حافزاً أشد للعمل(٣)، فهذه مرحلة أولى من مراحل المعرفة، والمرحلة الثانية عملية عقلية إدراكية.

ولقد اعتنى القرآن الكريم بتوجيه هاتين الحاستين؛ لما لهما من سبيل على النفس في إيراد ما يحرك النفس ويوجّهها، فنجده يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر مثلاً لئلا تميل نفوسهم إلى

---

(١) بصل، مصطفى، **علم النفس الفيزيولوجي**، جامعة دمشق، ط٤، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص٨٤.بتصرف.

(٢) وكذا لباقي أجهزت الإدراك اللمسيّة والشميّة والذوقيّة. انظر: **المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس)**، ص١٨.

(٣) لذا كان من أساليب القرآن الكريم استخدام أدوات التنبيه وألفاظه في بعض الآيات الكريمة، سيكون له إشارات في فصل أساليب التغيير، إن شاء الله تعالى.

ما حرم الله، فيقول جل وعلا:"قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ..."(النور٣٠-٣١)، كما جاء في القرآن ما يدل على أن السمع هو وسيلة الاستجابة فيقول تعالى:"إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"(الأنعام٣٦)، وتعطيل السمع والبصر هو سبيل الضلال عن الحق، والولوج في الظلمات؛ لأن هذا التعطيل يعمي النفس عن الصواب، ويولّد الغفلة التي إن وجدت في النفس طغت ونسيت أصلها ومآلها، لقوله تعالى:"أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(النحل١٠٨).

(٢)- الدماغ ودوره في إصدار سلوك المتغيّر: اعتقد الناس منذ القدم أن الدماغ هو مجرد آلة، إلا أن الأبحاث المتعلقة به تظهره كعضو نامٍ "دائم التغيّر التطويري، معقّد الخلايا، حيٌّ متفاعل مع المؤثرات داخلية كانت أم خارجية، حيث تُنْتج خلايا المخ على الدوام زوائد ومستقبلات جديدة، وتنمو به روابط ونقاط اتصال جديدة، وتُغيّر من إفراز النواقل العصبيّة التي تثير الوظائف المخية على مختلف الأعمار"(١).

ويؤكد المتخصصون أن الكثير من عمل الدماغ ما زال مجهولاً رغم التقدم الذي وصل إليه العلم، ولكن هناك مؤثرات تزيد من القدرة على الاستفادة من هذا العضو، وتفعيله للوصول إلى قمة الرقي الإنساني بجميع الجوانب الحياتية، حيث إنه العضو الذي له الدور الأول في التأثير على الصحة النفسية للإنسان من خلال عملياته الجارية فيه، ولقد أدرك المفسرون أهمية هذا العضو في نقلة الإنسان وتغيّره، فقسم الرازي القدرات العقلية إلى ثلاثين قدرة، هي:" الإدراك، والشعور، والتصور، والحفظ، والتذكر، والذكر، والمعرفة، والفهم، والفقه، والعقل ، والدراية، والحكمة، واليقين، والذهن، والفكر، والحدس، والذكاء، والفطنة، والخاطرة، والوهم، والخيال، والبديهة، والأوليات،

(١) كاربر، جين، **المخ المعجزة**، مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥، ص٦، ص٩ بتصرف.

والروية، والكياسة، والخبرة، والرأي، والفراسة بنوعيها"[1]، حيث بيّن أنها قدرات خلقت في الإنسان لتؤهله للخلافة في الأرض.

ولقد خلق الله تعالى الإنسان خلقاً سوياً يتحرك بفعل الإرادة المتحركة التي تتنوع فيها الأفكار والمواقف مما يجعل مصيره مرتبطاً بإرادته[2]، لذلك جاء القرآن الكريم بالإشارات اللافتة للأنظار نحو التبصر والتفكر والبحث في النفس الإنسانية بقوله تعالى:"وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ"(الذاريات٢١)، لتعريف الإنسان بحقيقة نفسه، وطريقة خلقته، ليعرف الإنسان عظمة خالقه، ودقّة صنعته، ولهذا قعّد العلماء قاعدة تقول: "**من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه**[3]"، "والمعنى من عرف نفسه بالضعف والقصور، عرف ربه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال"[4]، وبهذا يكون قد أقام أسس العلاقة بينه وبين ربّه من خلال معرفته لنفسه.

---

(١) واعتبر كل نوع استعداداً خاصاً، فيصبح العدد ٣٠، الرازي، الفخر، **التفسير الكبير**، مصدر سابق، ج١- ص٤٢٠- ٤٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) أو " **من عرف نفسه فقد عرف ربه** "، انظر ابن سينا، كتاب أحوال النفس، ص٥، والآلوسي، روح المعاني، المجلد الأول،ج١- ص٨٢، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار مصر للطباعة،بدون رقم طبعة، سنة١٩٩٨م، ج٤، ص١٤٣، وقيل إنه حديث موضوع، انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي(١١٦٢هـ)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م، ج٢- ص٣١٢، علماً أن الفلاسفة والعلماء المسلمين قد اتخذوا هذه العبارة كقاعدة انطلقوا منها عند البحث في جوانب النفس.

(٤) الرازي، الفخر، **التفسير الكبير**، طبعة من إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، المجلد الأول، ص٩١.

إن من أهم العمليات الجارية في الدماغ الإنساني المترابطة دون انفكاك لها:

١- **عمليـة الإدراك**([1]): ورد معنى (الإدراك) فـي القرآن الكريم صراحة مقصوداً بـه العمليـة العقلية في موضع واحد ينفي به قدرة الإنسان على إدراك الله سبحانه وتعالى، ويثبت هذه القدرة مطلقاً لله تعالى في قوله تعالى:"لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"(**الأنعام١٠٣**)

والإدراك هو " عملية عقلية معرفيّة يتم فيها ترجمة المدخلات الحسيّة عديمة المعنى، بمشاركة العمليات العقلية المعرفية، وغير المعرفية إلى مدركات ذات معنى ودلالة"([2])، حيث إن الفرد عندما ينتبه "إلى منبه حسي، تستدعي خبرته السابقة معلومات ترتبط بالوضع الحاضر، وبهذا يضفي على المنبه معنى؛ وتدرك المنبهات على أنها أشياء أو حوادث ذات معنى أو أهمية عملية"([3]).

وتتفاوت أقوال المفسرين في تعريف الإدراك، فيعرّف الرازي هذه القوة الإنسانية على اعتبارها بلوغاً للمراد بأنها "تلك القوة العاقلة الواصلة إلى ماهية المعقول عند تحصيلها تلك الماهية"([4]).

([1]) عند قيام العقيدة الإسلامية في النفس على أسس سليمة، لا بد من الإدراك السليم لها؛ فعليها يقوم باقي الأعمال العقلية، ومن هنا جاء دوره في عملية التغيير، إذ أن تغيير المفاهيم المدركة من الانحراف إلى الاستقامة أحد الوسائل المنهجية في القرآن الكريم.

(٢) انظر: بني يونس، محمد (٢٠٠٤م)، **مبادئ علم النفس**، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع ،عمان، ص١٣٣-١٥٠.

(٣) برنهارت، **علم النفس في حياتنا العملية**، ترجمة إبراهيم عبد الله محيي، مكتبة أسعد- بغداد، ط٤، ١٩٨٤، ص١٩٨بتصرف.

(٤) الرازي، الفخر، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ج١-ص٤٢٠ بتصرّف، ويعرّف الإدراك بأنه البلوغ بقوله: "كما أن الإدراك هو البلوغ" انظر: **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، لسنة ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م، المجلد٦، ج١٦- ص١٠٩، ويقول أيضاً موضحاً لتعريف الإدراك:" ويقال :

أما الآلوسي فينظر إلى الإدراك من جانب التواصل بينه وبين الحواس والدماغ فيقول إن "أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة"(١)، وينتهي "إدراك الشيء بالوقوف على كنه الشيء، والإحاطة به"(٢)، وهذا النوع الأول من أنواع الإدراك.

وعملية الإدراك عملية متداخلة غالباً، إذ يدرك الفرد أكثر من شيء بأكثر من حاسة في لحظة واحدة، حيث يكوّن ما يسمى بتداخل وتمازج الإحساس، والعمليات السمعيّة والبصرية هي أساس عملية الإدراك في أغلب الأوقات(٣)، علماً أن "الإدراك عبارة عن مهارة فكرية بالأساس، أي أكبر بكثير من مجرد السمع والبصر، فلا يمكن الثقة في المدركات الأولية دون الاستعانة بالتفكير، ولا يمكن اتخاذ أفضل القرارات وإيجاد أفضل الحلول دون التفكير الإدراكي"(٤).

" إن أساس عملية الإدراك الحسي إضفاء معنى على الحقائق الحسيّة التي ينبّه إليها، معتمداً هذا المعنى على الخبرة والملاحظة العقليّة، ويعتمد من جهة أخرى على الإجابة اللغوية"(٥)، حيث إن

أدرك فلان فلاناً، وأدرك الغلام أي بلغ الحلم ، وأدركت الثمرة أي نضجت. فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء"، انظر: **التفسير الكبير**، الطبعة الرابعة، لسنة ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م، المجلد الخامس – ص ١٠٠.

(١) الآلوسي، شهاب الدين البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق، المجلد الثاني، ص١٦٧.

(٢) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود(٥١٦ هـ)، معالم التنزيل، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢–ص٩٩.

(٣) إلا أن هناك قسماً آخر من الإدراك وهو الإدراك بالحاجات العضوية، وهذا غير الإدراكات المعرفية التي تؤدي للتغيير، إنما هي إدراكات طبيعيّة يشترك فيها كل كائن حي، وتحتاج إلى تنظيم إشباعها من خلال المخزون المعرفي، وعدم تنظيمها يكون يمنع الفرد من التفاعل بالمنهج القرآني.

(٤) ماكوي، تشارلزدبليو، **لماذا لم أفكر في هذا من قبل**، مكتبة جرير، السعودية، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٧.

(٥) برنهارت، **علم النفس في حياتنا اليومية**، ص٢١٢.

العقل الإنساني يمنح الأشياء المعاني، ويضيف معلومات سابقة غير الحقائق الحسية المدركة، إلا أن الحقيقة الكاملة عن عملية الإدراك ما زالت مجهولة فلم تظهر تفاصيل عملها بدقة.

فبالإدراك البصري يدرك الإنسان ما حوله مما في هذا الكون من خلق، ناظراً ومتأمّلاً، منطلق الفكر في أفق الخلق، باحثاً مستدلاً على وجود خالق عظيم مسبّبٌ لهذا الإبداع الدقيق القويم، ليكون الإنسان من أقوم ما خلق، ومن أجلّ ما أحسن وأبدع، وعندها يدرك أن "العجز عن درك الإدراك إدراك"(١)، فعندما يعجز الإدراك عن إدراك هذا الصانع المبدع، فإنه يدرك أن هذا الخالق المبدع هو الأصل الذي لا بد من التوجه إليه، والتغيّر كما يريد ويأمر.

ولا بد من الإشارة إلى أهمية إدراك اللغة، فقد استخدمها القرآن الكريم وسيلة لإيصال البيان القرآنيّ للناس على اختلاف أجناسهم، ولقد عجز أصحاب البلاغة والفصاحة عن الإتيان بمثل لغة القرآن لأنهم عجزوا عن إدراك مكامن إبداعها، وحدود معانيها، ودقة دلالاتها.

إن البناء اللغوي يتطور كلما تقدم عمر الإنسان وكثرت خبرته، ولا يمكن تعلم اللغة ما لم تكن قائمة على فهم معانيها، " فيقوم المخ عند إنتاج اللغة بإدماج الأنظمة الصوتية والدلالية والتركيبية معاً حتى يصبح لدى الفرد تيار مستمر من الكلام عند إرادة التحدث، وعند سماع الكلام، ولفهم اللغة وإدراكها يقوم المخ بتحليل عناصر اللغة التي يسمعها، حتى يستخلص منها الرسالة التي تحتويها"(٢)، وتظهر الفروقات الفردية في فهم اللغة عندما "يبني الدماغ فروضاً حول السياق والمعنى العام، الأمر الذي يساعد على تفسير كثير من المدخلات باختلاف الأفهام بين كل فرد،

---

(١) الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **تفسير روح المعاني**، المجلد السابع، ص١٩٣، حيث أشار إلى أن هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) تمبل، كرستين، **المخ البشري مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك**، ترجمة عاطف أحمد، عالم المعرفة، بدون رقم طبعة، ٢٠٠٢م، ص٨٥.

فيكون كلا الرأيين المختلفين في قول معيّن دقيقاً في الطرح، إذ قد يتم تفسير المدخلات في كل فرد من خلال المستويات العليا للمخ تفسيراً مختلفاً"(١).

٢- عملية التفكير:

إن معاجم اللغة العربية تُرجع مادة (فكر)(٢) إلى ترداد لقضية ما، والترداد يعني تكرار توارد أمر ما في الذهن بحيث لا يغيب، بل يبقى حاضراً لا يغفل الإنسان عنه، وهذا الحضور يجعل الإنسان يحسب حساباً لهذا الأمر؛ لأن توارده بهذا الشكل يعني أهميّته بالنسبة له، حتى يتم اتخاذ القرار المناسب لهذا الشاغل، ويخزّن في الذاكرة كل متعلقات هذا الأمر.

إن ضرورة التفكير لقيام عملية التغيير تكمن في "ضرورته لاختبار الواقع، ويبدأ قبل المنطق، ويتطوّر إلى ما هو منطقيّ بحسب الأحداث النفسيّة، ويقوم على التمييز بين ما كان من أفكار ذاتية، وما هو صورة للعالم الخارجي، ويتعاون في إيجاد العملية التفكيرية الشعورية وكذا في اللاشعور، حيث إن منطقة اللاشعور تحتوي على صور للأشياء وصور للموضوعات من صنع المدركات الحسيّة البصريّة والسمعيّة وغيرها(٣)، فالتفكير: "عمليّة من عمليات المعرفة التي يعتمد على الإدراك والتذكر في اتخاذ القرار، فمادة التفكير تحتاج إلى نتاج ملاحظات سابقة، لذا فإنها

---

(١) **المرجع السابق**، ص٨٩.

(٢) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص ٣٢٨.

(٣) الحفني، عبد المنعم، **المعجم الموسوعي للتحليل النفسي**، مكتبة مدبولي، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ص٦٥، وأعني بكلمة (وغيرها) الحواس الأخرى اللمس والشم والذوق.

تستدعي عمليات التذكر"[١]، حيث إنها - عملية التفكير- من وظائف (الأنا)[٢]؛ لأنها تتعطّل عند انشغال هذه المنطقة- الأنا- بالصراعات المختلفة، كما أن التفكير قد يكون بالصور، وقد يكون بالألفاظ واللغة[٣]، حيث إن الأصل في التفكير أن يكون متميّزاً "بالقدرة على استخدام المجردات والتعميمات، والإمساك بالأساسيات والصفات المشتركة بهدف الحفاظ على الجوانب المختلفة للموقف في الذهن، ثم الانتقال من جانب إلى آخر في التنبّؤ والتخطيط للوصول إلى الاستنتاجات"[٤].

إن تعطيل هذه العملية- التفكير- بعدم الاكتراث لأي أمر، واتخاذ الأهداف الحياتية أهدافاً عبثية، أو الاهتمام بتفاهات الأمور المادية التي لا تعين الإنسان على التقدم الحياتي في الدارين، أو قيام عمل التفكير في القضايا الحياتية دون تنظيم له، أو أن يعمل عمله دون أن تقوم على

---

(١) برنهارت، **علم النفس في حياتنا اليومية**، ص٢٥٠.

(٢) **والأنا تنقسم إلى قسمين، الأول: الأنا أو (الهو- الهى)**، وهي عبارة عن بؤرة من الغرائز العمياء، سواء الجنسية أم العدوانية، تتجه نحو الإشباع الفوري بغض النظر عن علاقة الشخص بالواقع الخارجي، مع وجود الإدراك للمعلومات عن الواقع الخارجي وحالة الجسد، وتُحفظ المعلومات في الذاكرة، وهدف هذا القسم هو الحفاظ على الذات، أما القسم الثاني فهو ما يسمى **بـ(الأنا العليا)**: وهي المعايير الأخلاقية والمحظورات والمشجعات التي استوعبها الفرد بشكل غير واع في الغالب في مجرى التعليم، وتفصح عن نفسها على شكل (ضمير)، وقد تسبب مشاعر الخوف عند تعارضها مع الأنا السابقة الذكر، وأيضاً عند تعارض الأنا -غير العليا- مع الواقع الخارجي، حيث ينتج عن ذلك إجهاد ينقذ الفرد نفسه منه عن طريق آليات دفاعيّة، كالقمع، والتهرب، والتبرير، والنكوص...إلخ، حيث إن لها أثراً في البواعث المكبوتة في اللاشعور. انظر: أ.ف.بتروفسكي، م.ح.ياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مصدر سابق، ص١٠٢.

(٣)الحفني، عبد المنعم، **المعجم الموسوعي للتحليل النفسي**، ص١٦٦ بتصرف.

(٤) جابر، جابر عبد الحميد وآخرون، **معجم علم النفس والطب النفسي**، مصدر سابق، ج١-ص١٤.

أسس يُبنى عليها استنتاج العقل، وتحليلاته للقضايا والأحداث، واتخاذ القرار السلوكي والعملي المناسب للمواقف، كل ذلك يعني استهلاك العقل الإنساني في ما لا طائل منه، ولا فائدة تُرجى، ولا قيمة حقيقيّة تُجْنى، فهذه العملية أصل في تشكيل الإدراك السليم للمحيط الخارجي من مدركات سمعيّة وبصريّة، لذلك ركّز القرآن الكريم على هذه العملية بضبطها، وتوجيه عملها، وإيراد الأساليب المتنوّعة لاستمرار عملها لتكون عمليّة مستمرّة في أدق الأشياء وأصغر الأمور(١) وتردد فكر ما في الذهن يعني تغذية الخبرات في الإنسان؛ لأنه لو لم يفكّر فيما تعرّض له من مواقف فإنه لن يستطيع اتخاذ قرار مناسب إن تكرر الحدث نفسه معه، أو إن وجد ما يناسبه من قرار تم اتخاذه سابقاً في أمر آخر مشابه.

٤ -**عمليات التصوّر والخيال والذكاء:**

يعتمد التصوّر في الدرجة الأولى على قدرة استحضار الصور بأنواعها الحسيّة أو العقليّة؛ لكي تتم عملية الاستجابة لها، وهذا الاسترجاع هو عمل الذاكرة في الإنسان التي تصل الماضي بالحاضر، فالذاكرة مركز أساسي للخبرات التي يمر بها الإنسان خلال فترة حياته؛ لأنها -الذاكرة- الشعور بالماضي، "وتتضمن الذاكرة بصورة عامة عمليات خمس: الاستقبال، والمعالجة، والتعرف، والتخزين(الاحتفاظ)، والاسترجاع والنسيان"(٢)، وكل ما يؤثر في التذكر والاحتفاظ هو نفسه الذي يؤثر في التحصيل والاكتساب.

---

(١) انظر الفصل الثاني في الأساس الفكري.

(٢) انظر: صليبيا، جميل، **علم النفس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٩٧٢م، ص٣٤١، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٦-٤١٢.

إذن إن "التصور هو درجة الانتقال من الحواس إلى الفكر، حيث إنها تلي الإحساس مباشرة، وعودتها إلى الشعور بعد الإحساس بها، والتصور هو القدرة على استحضار الصور الحسية بأنواعها أو العقلية أو المجردة والاستجابة لها"([١])، وباستحضارها يأتي دور الذاكرة، ومن هنا يظهر الرابط بين التصور والذاكرة،" حيث إنها تنظم إلى الإحساسات الحاضرة فتزيدها وضوحاً"([٢]).

والتصور هو "عملية أوّلية لبدء عملية أخرى أكثر عمقاً وتعقيداً وشمولاً منها، وهذه العملية تسمى عملية **التخيّل**، وهي عبارة عن رسم صورة رمزية وصولاً إلى تكوين وتأليف جديد مغاير للأصل، ومن هنا يظهر ارتباطه بالإدراك والإحساس والتذكر، حيث إنه رجوع الصورة النفسية إلى ساحة الشعور، معتمداً على التصوّر الذي هو بقاء الإحساس في النفس بعد غياب المؤثر – ذكرى الإحساس–" ([٣]).

ومن الملاحظ أن من أهم الأمور التي جاء القرآن الكريم لتغييرها هي التصور المنحرف الناتج عن الفكر السقيم، المبنيّ على التفكير المنحرف والعشوائيّ، فلقد حرص القرآن على تغيير تصوّر الناس عن الذات الإلهية، والملائكة والرسل، والبعث والنشور، والقضاء والقدر، وغيّر تصوّره عن الإنسان والكون والحياة، وهذا التغيير كان من أهم الأسس التي جاء بها القرآن الكريم في التغيير الفرديّ، إذ بهذا التصور يقوم البناء العقدي في النفس المتغيّرة([٤]).

أما الذاكرة، فإن للتكرار والتأكيد على أهمّيتها في القرآن الكريم دور هامٌّ في تخصيص هذا الاستعداد بالاهتمام، ولقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى عملية التذكّر، ووصفها بأنها

---

(١)صليبيا، جميل، **علم النفس**، المرجع السابق، ص٣٤١، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٦.

(٣) صليبيا، جميل، **علم النفس**، مرجع سابق، ص٤٣٣– ٤٣٤، بتصرف.

(٤) انظر: الفصل الثاني من هذه الرسالة، أسس التغيير الجوهريّة.

دلالـة علـى للعقل السليم(١)، فقال تعالـى:"وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ"(آل عمران٧)، فالذاكرة تؤدي إلـى التثبيت للخبرات، والمساهمة الفاعلـة فـي البنـاء المنهجـي السليم، لـذا نجد القرآن الكريم يستخدم التوكيد بهدف التأكيد في قضيّة ما؛ كي يحفظ الإنسان ما تم التأكيد عليه، ويغرسه بالذاكرة، ويقيه هذا الحفظ من النسيان المؤدي إلى الغفلة وكمثال على ذلك الآيات التي جاءت في التأكيد على عداوة الشيطان كي تبقى حاضرة في الذهن لا يطويها النسيان، فقال تعالى:"إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ"(فاطر٦).

وتنوّع الأساليب بأكثر من أسلوب خطابيّ للإنسان يُعنى باستدعاء الذاكرة في أكثر من طريقة، كما أنه قد أعطى الذاكرة اهتماماً يوجه الأنظار نحو استغلال هذه الملكة، وجعل تفعيلها من أهدافه المرحلية، وساق لها الأوامر والعظات ليتذكر الإنسان، بقوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ **يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** " (النحل٩٠).

كما أن العلم لم يتوصل حتى الآن إلى تحديد مكان معيّن مسؤول عن عملية التذكّر بشكل مباشر، إلا أن هناك إشارات توجه الأنظار إلى وجود السجلات والحوادث الدائمة كألياف عصبيّة متشعّبة متلاحقة وكآثار على جزيئات البروتينات التي تتوالد في الخلايا، كما أنه يصعب القضاء على الذاكرة مهما فقد الإنسان من أجزاء الدماغ حسب التجارب التي أجريت(٢)، فأمر الذاكرة ما زال حتى الوقت الحالي مجهول المكان والكيفيّة، فتارة يُقال إن مركز الذاكرة في الدماغ، وتارة أخرى يُقال إن في القلب موقع يُعنى بالتذكر، وتارة أخرى يقال إن في الأعصاب نفسها قدرة على التذكر، والجمع بين كلها ممكن عقلاً ينقصه أن يؤيّد بالتجارب العلميّة.

---

(١) انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٣- ص١١٣.

(٢) انظر: فايفر، جون، **العقل البشري**، ترجمة الدكتور م.عيسى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م، ص١٣١و ١٣٣.

أما التخيّل فإن بلاغة القرآن هي المسيّرة له، والمشكّلة لإبداعه، وقد اتخذه القرآن سبيلاً لتغيير الفرد من خلال أساليبه([١])، فلقد استخدم القرآن أساليب التمثيل، والتشبيه، والاستعارة، والحذف، للتعريف والتذكير والتأكيد على قضايا القرآن الكريم باستخدام هذا الاستعداد وتوجيهه نحو المعرفة التي تؤدي إلى سلامة النفس الإنسانية التي جاء الآيات بالحث على تغييرها في قوله الله تعالى:"حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"(الرعد١١)؛ لأن الخيال نوع من التصوّر المبدع الذي يشير إلى التجربة الذاتية في استخدام هذا الاستعداد، وتقوم على تنظيم المعلومات الموجودة لدى الإنسان في تركيب جديد، ولا بد لقيامه أن يبصر الإنسان ويسمع ويحصل على الانطباعات ويحفظها في ذاكرته، ويؤثر فيها خبرة الفرد والانطباعات المتنوعة لكي تتطوّر إمكاناته في تركيب الصور([٢]).

ومن أهم الاستعدادات المرافقة لما سبق لما يُسمى **بالذكاء**، "فهو نوع من التفكير المنطقي، يُنتج معرفة عميقة وأكثر عمومية من التعقل، عن طريق فهم معنى وحدة الأضداد، يصبح من الممكن فهم الجوانب المختلفة للشيء المطروح في تباينها وتحولاتها المتبادلة، وخصائصها الجوهرية، حيث إن له القدرة على تحليل وتعميم المعطيات لكل من الخبرة الحسيّة وأفكار المرء الخاصّة، وتطوير الأفكار التي تعكس جدليّاً العالم الموضوعيّ"([٣])، فالذكاء "محصلة لمجموعة من القدرات والقوى النفسيةـ كالإحساس، والإدراك، والإرادة، والانفعال، والهيجان، والعاطفة، والتذكر، والتصوّر، والتخيّل"([٤])، وهو طريقة في العمل الفكري، وصفة يوصف بها التفكير الذي يُنتج السلوك المتغيّر

---

(١) انظر: فصل أساليب القرآن الكريم في التغيير الفردي.

(٢) انظر: فايفر، جون، **العقل البشري**، ص١٣١و ١٣٣.

(٣)أ.ف.بتروفسكي، م.ح.ياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مصدر سابق، ص٢١٦.

(٤) زريق، معروف، **الأذكياء**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص١٣.

المناسب للموقف، وهو أحد وظائف النفس المطالبة بالتغيير، كما أن العوامل الاجتماعية لها دور هام في إثارة هذه القدرة وصقلها وتنميتها.

لقد نظم الله تعالى عمل جسد الإنسان، وزوّده باستعدادات متصلة مترابطة بدقة متناهية تجعل من الصعب التفريق والتجزئة بينها، فهي محكومة بالتجانس العمليّ، ومتسقة بالتواصل المنتظم، حيث يستحيل استقلال واحد من هذه الاستعدادات عن الآخر في عمله، وإلا اختلت النفس، وكان نصيبها الانفصال الشتات العملي الذي يظهر مباشرة على سلوكات الإنسان، بل إن هناك من الدقة العجيبة في الترابط الخلقي والعملي في الجزئية الواحدة من هذا الإنسان ما لا يعرف العقل في وصفه تفسيراً ولا تحليلاً، لذا تكثر نسبة الجهل في كثير من أعضاء الإنسان، كالقلب مثلاً أو الدماغ..إلخ، فمنهج القرآن الكريم في التغيير يسير ليتعامل ويتواصل حتى آخر عضو من أعضاء الجسم مؤثرة ومتأثرة بطريقة تجعل من انفراد كل عضو عن آخر في عمله أمراً مستحيلاً، وهذا الأمر يضمن لعملية التغيير السير بين جوانب النفس بتكامل لا ينفك ولا ينفصل ولا يتجزّأ، وإن تجزّأ فالسبب يكون بوجود عائق أو مانع يمنع تمام التكامل والتناسق والانسجام، فتتوقف عملية التغيير عن إرساء قواعدها في ذلك الفرد، أو أنها تنعكس على السلوك ناقصة مختلّة تُنْبِئُ عن نقص وخلل في هذا الإنسان، فتمنع إصدار القرار السليم.

إنّ الاستعمال الصالح لإمكانات الإنسان هو المؤدي للتقدم الفردي الشخصي، وهو المناط الوحيد للتوازن النفسي الحياتي(١)، كما أنه السبيل الوحيد لاستخدام القدرات الخاصّة والطاقات العالية التي خُلقت في الإنسان، فعلى سبيل المثال؛ إنِ استعمل الإنسان الدماغ بالطريقة غير

---

(١) **المرجع السابق** ص١٣بتصرف

الإنسانية أو كما وصفها شوشار: (اللاإنسانية)([١]) يُقْعِدُ التوازن الفردي ويعطله، ويُعتبر في الفسيولوجيا([٢]) مرضٌ يؤدي بالإنسان إلى إساءة التصرف، فيتطلب جهداً كبيراً من التفكير والسيطرة على الذات([٣])، فمعرفة الإنسان لوظائف جسده ليست إذن قضية ارتياح فكري دون فائدة علمية، وإنما هي ضرورة ثقافيّة وحياتيّة متجهة نحو العمل؛ لأنها تتيح توجيه المستقبل الفردي والاجتماعي والدولي للإنسانية توجيهاً صحيحاً، والإنسان الذي يعجز عن إدراك ذاته يكون عاجزاً عن إدراك غيرها، وتلقائياً يكون عاجزاً عن إدراك مقدمات سليمة يبني عليها حياته على أسس قويمة،فتكون الحياة عندها قائمة على العشوائية، فمدركاته غير ممنهجة في اكتسابها وتحليلها([٤]).

(٣)- القلب والعلاقة العملية بينه وبين الدماغ:

---

(١) وهذا اللفظ ساقه المؤلف شوشار في كتابه المترجَم اختصاراً لمعنى عدم استخدام الدماغ استخداماً سليماً للأغراض التي وضع لأجلها، كتعطيله عن التفكير، أو التمييز، أو أي عملية من عملياته التي تجري فيه، والتي يرجع تعطيلها إلى إهمال الإنسان في تنويع مهارات التدريب العقلي الحياتي.

(٢) **والمقصود بالفسيولوجي (physiology)**: وهو علم وظائف الأعضاء، وهو بناء الترابط بين المتغيّرات النفسيّة والوظيفة العضوية، ووصف لعمليات الشعور والسلوك والوظائف العضوية العصبيّة. ويقوم علم النفس الفسيولوجي على فهم النفس باعتبارها سمة خاصة للمادة بالغة التنظيم تنشأ أثناء تفاعل المخلوقات الحية مع البيئة، ويمكن أن تؤثر بشكل فعّال على طبيعة هذا التفاعل في عكسها لهذه البيئة، كما يعمل على الإلمام بمعرفة حول الأشكال المختلفة لاعتماد الأفعال النفسية على أساسها الوظيفي، وعلى دور هذه الأفعال كوظائف للمخ في تنظيم وترتيب النشاط الحيوي للإنسان والحيوان، انظر: أ.ف. بتروفسكي، م.ج.ياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مصدر سابق، ص٢٥٣.

(٣) شوشار، يول، **دماغ الإنسان**، ص١٢ بتصرف.

(٤) انظر: **المرجع السابق** ص١٢.

وأصل لفظ القلب في اللغة من (قَلَبَ) التي تحمل أصلين في اللغة، " أحدهما يدلّ على خالِص شَيءٍ وشَرِيفِه، والآخَرُ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة"(١)، ففي محاولة للربط بين المعنيين وقضية التغيير فالمعنى الأول الذي يدلل على خاص شيء وشريفه يدلل على الفطرة السليمة في الإنسان التي لم تشبها شائبة، لذلك ولقد دلل صاحب كتاب العين على ذلك عندما قال:" وجئتك بهذا الأمر قَلْباً أي محضاً لا يشوبه شيء"(٢)، أما المعنى الثاني في أن القلب هو رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة فهو التغيير عمليّاً عن هذا الأصل المحض السليم، وهذا التقلّب هو من ميزات القلب الذي إذا تقلّب تغيّر الإنسان عن وجهته إلى وجهة أخرى بتفكيره وسلوكه وإحساسه وروحه...إلخ، أي تغيّرت نفسه وفق تقلب القلب، لذلك "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ...إلخ"(٣)، كما جاءت الإشارة القرآنية إلى الدعاء بعدم الزيغ عن الهدى في قوله تعالى:"رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ "(آل عمران٨)، فالزيغ هو الميل(٤)، وبضمان عدم الميل الذي هو أول درجات التقلب ضُمن عدم التقلب من الأصل.

---

(١)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، طبعة دار الكتب العلمية، مجلد ٢- ص٣٦٦.

(٢) الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، حرف القاف، باب القاف واللام والباء معهما.

(٣) **انظر: سنن الترمذي**، كتاب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بَاب مَا جَاءَ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْ الرَّحْمَنِ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قَالَ أَبُو عِيسَى وَفِي الْبَاب عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَائِشَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَنَسٍ وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَدِيثُ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَنَسٍ أَصَحُّ.

(٤) انظر **معجم مقاييس اللغة** الأصل (زيغ).

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم عند الإشارات إلى الإيمان والكفر والهدى والضلال إلى ذكر القلب وتوجيه النظر إليه، فمنها أنه خص القلب بالتذكر عند قوله تعالى:"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"(ق: ٣٧)، ومنها في وصف الله تعالى لضلال الضالين فقال فيهم:" كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ"(الحجر: ١٢)، ومنها أيضاً تخصيصه بأنه مكان الشعور الانفعاليّ كالرحمة كما في قوله تعالى:"...وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً.."(الحديد: ٢٧)، وكذلك هو موضع الشعور بالخوف كما في قوله تعالى:"وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.."(الأحزاب٢٦).

ولقد كثرت الأقوال في حقيقة القلب الإدراكية على غير نتيجة مستقرّة، وهذا يرجع إلى الجهل التام بالعلاقة العملية بين العقل والقلب، حيث إن بينهما تواصلاً يستقر نتاجه في النفس من حيث المعرفة والتوجيه لها، فالإنسان يجد نفسه أحياناً سائراً مع ما يمليه عليه قلبه من إحساس بشيء ما، ويتخذ ردود أفعال خارجة عن إرادته عند مختلف المشاعر من خوف أو حزن أو فرح...إلخ، ولقد أشارت الآيات أن القلب يفكّر كما في قوله تعالى:"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"(الأعراف١٧٩)(١)، هذا التفكير القلبيّ هو نتاج الارتباط بين القلب والعمليات الجارية في الدماغ، حيث إن التفكير عملية متكاملة بين المراكز الدماغية، وللارتباط الوثيق بين الدماغ والقلب يطلق القرآن على القلب بأنه هو يفكّر ويفقه ويعقل(٢)، فالإنسان عندما يتخذ قراراً مخالفاً لما يمليه

---

(١) وهذا دليل على أن تعطيل كافة الاستعدادات هو المانع من التغيير إلى منهج الله تعالى، وهو محقق للغفلة التي نهى عنها القرآن الكريم، فالغفلة هي سبب الهلاك في الآخرة.

(٢) يقول القرطبي في الآية ١٧٩ من سورة الأعراف أن معنى (لهم قلوب لا يفقهون بها: أي" بمنزلة من لا يفقه، لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً" انظر: الجامع لأحكام القرآن، الأعراف ١٧٧، ويقول

عليه قلبه يكون سلوكه خارجاً عن إرادته، أما إذا اتخذ قراراً يتوافق فيه ما ينتج عن تفكيره وما يستشعره قلبه فيكون ما يقوم به من سلوك هو بكامل إرادته، فالإرادة هي التوافق التام بين نتاج التفكير وإحساس القلب بحيث يكون السلوك الناتج نابع عن الرغبة التامّة التي لا يوجد لها مخالف في نفس الإنسان، لأن وجود خلاف بينهما مسبب للتردد والحيرة في النفس، ويؤدي أيضاً إلى صدور سلوكات مضطربة غير مستقرّة، كما أن الإنسان الذي يمتاز سلوكه بالخطأ غالباً ما يعاني من وجود هذا الخلاف.

كما أنّ نتاج العمليات العقلية يستقرّ قناعة في القلب، ويقيناً فيه، ومن ذلك قول إبراهيم لربّه جل وعلا عندما طلب منه أن يرى كيف يحيى الموتى معللاً سبب هذا الطلب بأن ما سيدركه بعقله سيستقرّ في قلبه ليزيد إيماناً ويقيناً فقال تعالى:"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..."(**البقرة٢٦٠**).

إن التعامل التبادليّ والتواصل المنظم بين القلب والعمليات الجارية في الدماغ له دوره في إحداث التغيير في نفس الإنسان، فهو كفيل بإيجاد العقلية المؤدية إلى التوازن النفسي النابع عن الانسجام بينهما وتوافقهما، فبمدى التواصل المنظم والمنضبط، ومدى الانسجام بينهما، ومدى الاتفاق الكامن في تواصلهما يكون تحقيق التوازن النفسي، حيث إن توجيههما لأمر واحد، وهدف

البغوي في معنى فقه القلب:" أي لا يعلمون بها الخير والهدى" انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج٢-ص١٨٢، ويشير الآلوسي بأن الذين لا يفقهوه في قلوبهم، بأنهم لا يفقهون الأسرار، انظر الآلوسي، **روح المعاني**، المجلد الرابع، ج٥- ص١٢١، ويقول أبو حيان في أنهم:"لمَّا كانوا لا يتدبرون شيئاً من الآيات، ولا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا يسمعونها سماع تفكر، جُعِلُوا كأنهم فقدوا الفقه بالقلوب، والإبصار بالعيون، والسماع بالآذان، وليس المراد نفي هذه الإدراكات عن هذه الحواس، وإنما المراد نفي الانتفاع بها فيما طلب منهم من الإيمان"، انظر: الأندلسي، أبو حيان، **البحر المحيط**، في تفسير الآية١٧١ من سورة الأعراف.

واحد ومنهج واحد يعنى الانسجام التبادليّ بينهما دون نزاع هوى أو شهوة، فالهوى محله القلب، وإذا وافق مبادئ منهج الله التي عقلها الإنسان، وصار هواه تبعاً لهذا المنهج، انتهت ثورة الانفصام بينهما(١)، وانتفت مسافة الانفصال في عملهما(٢).

إذن فإن أصل تكوّن **العقل أو التعقّل** هو العمليات الجارية في الدماغ وتفاعلها مع القلب ونتاجها يظهر على باقي الأعضاء، فالعقل له ثلاثة معانٍ:

"**الأول:** غريزة يعرف بها الإنسان ما ينفعه وما يضرّه، ويتم بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يُقذف في القلب به يستعدّ لإدراك الأشياء"(٣)، **والثاني:** الفهم والبيان، **والثالث:** هو البصيرة والمعرفة بقدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة"(٤)، فهذه قوة تنتهي بصاحبها أن يعرف "عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمّي صاحبها عاقلاً من حيث إقدامه وإحجامه، بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة"(٥).

---

(١) وهذه الثورة هي الجهاد النفسي، فإذا انتصرت المدخلات (تعاليم منهج القرآن) التي أقرّ الاقتناع بها باستعدادات الإنسان كافة، كانت الغلبة للاستقامة في سبيل الهدى، وتوجه هوى القلب لها بقدر الجهد المبذول، وإذا كانت الغلبة لهوى القلب المتوجه نحو الشهوة الدنيوية كان السبيل سبيل الضلال في الدنيا.

(٢) وقد أشار الغزالي إلى العلاقة بين العقل والقلب في عنوان بيان حقيقة العقل، انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار مصر للطباعة، بدون رقم طبعة، سنة ١٩٩٨، الجزء الأول، ص١١٥.

(٣)انظر: المحاسبي، الحارث بن أسد(ت٢٤٣هـ)، **العقل وفهم القرآن**، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٥٤-١٥٥.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٥١-١٥٤.

(٥) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، مصدر سابق، الجزء الأول، ص١١٥.

كما أن التعقّل– في علم النفس– نوع من التفكير المنطقيّ، وهو"عبارة عن عنصر في حركة الفكر نحو الحقيقة، لذلك يعمل داخل المعرفة الجاهزة من خلال المعطيات المكتسبة من الخبرة، لكي يصوغها وفقاً لقواعد دقيقة تماماً، وهذا يضفي على التعقل طبيعة روحيّة معيّنة ذاتية الحركة، ويصاحب ذلك نظام صارم من التصنيف والحكم والاتجاه إلى تبسيط الفكر وتخطيطه، ويسمح بتصنيف صحيح للأحداث وتنظيم للمعرفة"([١]).

([١])أ.ف.بتروفسكي، م.ح.ياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، محرر الطبعة سعد الفيشاوي، ترجمة حمدي عبد الجواد، عبد السلام رضوان، دار العالم الجديد، القاهرة، ط١– ١٩٩٦م، ص٢٦٠.

- المطلب الثالث: الاستعدادات الروحية:

إن البحث في تفاصيل الروح ضربٌ من العبث، وهذا القول ليس قراراً بشريّاً، إنما هو تقرير ربّانيٌّ جاءت به الآية الكريمة في سورة الإسراء عندما توجّهت العقول نحو البحث عن حقيقتها، فأكّدت الآية الكريمة على نفي القدرة الإنسانية والعلم البشريّ من الوصول إلى إدراك ماهيّتها، فقال تعالى:"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً"(**الإسراء٨٥**)، فهذه الآية هي إثبات أن الإنسان الذي علّمه الله تعالى ما لا يعلّم الملائكة قاصر العلم مع تفوقه على الخلق كافة فيما آتاه الله تعالى من قليل العلم؛ لأن العلم المطلق لله وحده، حيث إن هذه الروح لا تُعرف ماهيّتها لأن في إدراك ماهيّتها إدراك لما لا يُدرك، فالله تعالى نفخ في الإنسان من روحه لقوله تعالى:"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ"(**الحجر٢٩**)، ولأن الإنسان لن يستطيع إدراك ماهيّة محدِثها وموجدها، فمن أحد الأمور التي تؤكد على نفي القدرة على إدراكها هو عدم إدراك موجدها، إنما إدراك وجوده مع تنزيهه.

إلا أنه في مقام الحديث عن منهج القرآن في التغيير الفردي، لا بد من أن يأتي توجيه النظر إلى وجود استعدادات روحية، وهي من جوانب استعدادات النفس البشرية للتغيير، والجانب الذي سيُشار إليه هو علاقة الروح بالقرآن من خلال عرض القرآن للفظ الروح، فالقرآن روح من عند الله كما قال تعالى:"وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(**الشورى٥٢**)، وفي نظرة جامعة بين هذه الآية وبين بيان الله تعالى بأن روح الإنسان هي من روح الله تعالى في قوله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ"(**الحجر٢٩**) يعني وجود عدّة اعتبارات:

- **أولها:** أن هناك ارتباطاً روحيّاً خفيّاً بين روحين من عند واحد أحد هو علاقة واضحة عند ابحث في كلمة الروح في القرآن، فالقرآن والإنسان كلاهما لا يمكن أن يُدرك سرّهما.

– **ثانيها:** إن الروح هي الجانب المعنوي من الإنسان، فعندما قال تعالى:" فَإِذَا سَوَّيْتُهُ" يعني الجانب الماديّ الذي كان من صنع يديه جل وعلا – بلا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف–، وعندما قال جل شأنه:" وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي" عُني الجانب المعنويّ المكمّل للجانب الماديّ المتقَن، وبهذا استحقّ الإنسان كمال الصنعة التي أتقنها جلّ وعلا؛ لأنه امتاز بأنه سوّاه ونفخ فيه ولم يقل له كن فكان.

– **ثالثها:** أن الروح سرّ انبعاث الطاقة الحركية في الجسد، وأن فيها ما يجعل جريان الحياة بكل تفصيلة من تفاصيل الإنسان، حيث كان آدم جسداً لا حركة فيه حتى انبعثت فيه الروح، وعليه فإن الروح لها جانبان: جانب باعث للحركة وجانب باعث للحياة، وهناك فرق بينهما، فالحركة قد تكون بلا روح، فهي عملية يشترك بها الإنسان والحيوان والكواكب والآلات، فبالنسبة للإنسان هي سلوك قد يحمل معنى، وهذا المعنى قد يكون له قيمة وقد لا يكون له قيمة، ويحدد هذه القيمة المنهج الذي يسلكه الإنسان، ويكون السلوك ذو قيمة بقدر وجود التكامل العلمي بين ماديّة الإنسان ومعنويّته، ولا يكون الإنسان ذا قيمة معنويّة إلا باتخاذه سبيلاً يعطيه تكريماً، ويحقق التوازن النفسي الناتج عن التكامل العملي بين المادة والمعنى، ولا سبيل للكرامة الإنسانية، والتوازن النفسي، والتكامل العملي إلا في منهج القرآن الكريم، والقرآن هو روح من عند الله تعالى يبعث في الجانب الماديّ للإنسان الحياة لقوله تعالى:"أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"**(الأنعام ١٢٢)** فحددت الآية الحياة بوجود قيمة المنهج المنظّم، والمستقيم، والواضح، الذي يُخرج الإنسان من الظلمات التي تمتاز بالعشوائية، والاعوجاج، والغموض، موصلاً إياه إلى النور، كما أن الحياة هي التلاقي بين روح الإنسان وروح القرآن وكلاهما من روح الرحمن، أما رأيت الأنبياء والصالحين والشهداء يبقى أنس أرواحهم بين الناس حتى إن النسيان لا يُفنيهم؟، وكذا الأمر بين الأحياء بعضهم بعضاً عندما يُفضّل الأنس بأحدهم على الأنس بالآخر كما أشار النبيّ في قوله:"الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ،

وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"(١)، فيقول تعالى في المؤمنين الذين أيدهم بروح منه:"لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ **وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**(المجادلة٢٢)**.

وخلاصة القول: إن الروح في الإنسان متصلة بالقرآن شاء الإنسان أم أبى، فإذا عزز الإنسان هذا الاتصال كان نصيبه أن تصبح الروح الباعثة للحركة روحاً باعثة للحياة تبقى في حياتها حتى ولو بعد الموت، أما إذا كان اختيار الإنسان هو فصل هذه العلاقة القائمة فإن نصيبه من الروح يكون ببعثها للحركة دون الحياة، وهذا ما أشار إليه من قوله تعالى:"أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ..."، فالقرآن هو الباعث لروح الحياة والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه **البخاري في صحيحه** كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ج٤، ص٥٨٩.

المبحث الثالث: أهداف القرآن الكريم من التغيير الفردي

– المطلب الأول:الأهداف المرحلية للتغيير الفردي

وتعرّف الأهداف المرحلية بأنها: الأهداف الأولية التي تنتقل من هدف إلى هدف بعده إلى هدف آخر...إلخ، في مراحل مختلفة، وصولاً إلى الغاية النهائية التي توصِل الأمر إلى قمته([1])، أي أنها أهداف انتقالية، كل مرحلة منها تأتي لتحقيق مرحلة أعمق، مع ضمان استمرار عمل سابقتها، حتى تجتمع في النهاية كل الأهداف في نقطة واحدة **تسمى الغاية** لتكون المصب النهائي لكل الأهداف المرحلية المتحققة. والأهداف المرحلية – دون حصر لها– كما يأتي من أقسام:

*– القسم الأول: الأهداف المنهجية:

وهي الأهداف المتعلقة بالطريقة التي يحقق بها الفرد "اكتساب السلوك الذي يتعلم به العلم، أو يحصل به على الفن، ويفيد منها في معاشه"([2]). وهذه الأهداف تستمر في سيرها خلال السلسلة المتكاملة لها؛ لأنها الطريق الموصل لتحقيق الأهداف الأخرى.

وتوصف الأهداف المنهجية بأنها **معيارية** لأنها " تهتم بتنمية أنماط معيارية للسلوك والمعتقدات لدى الفرد من خلال التعلم"([3])، وتشكّل المقياس الذي يميّز فيه الفرد بين الصحيح والسقيم، والطيّب

---

(١) انظر: النحوي، د.عدنان على رضا، **التربية في الإسلام النظرية والمنهج**، دار النحوي للنشر، ط١،١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص٢٣٧، بتصرف وإضافة.

(٢) سيد، د. فتح الباب عبد الحليم، **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، دار عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص١٩، بتصرف.

(٣) مرسي، د.محمد منير، **التربية الإسلامية أصولها وتطوّرها في البلاد العربية**، عالم الكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٥٥.

والخبيث، والخير والشر، ومقصدها تنمية التعلم الذاتي والمكتسب عند الإنسان في كل المراحل الإنسانية، وتنتهي بإيجاد الميزان العقلي للحكم على كل ما يتعرض الإنسان خلال حياته.

إن دور الأهداف المنهجيّة تنمية ما يسمى ((**بالميزان العقلي الحكمي**)): وهو عملية عقلية، تعمل بوجهتين إما منطقيّة، أو نفسيّة، فالحكم المنطقيّ يكون بإدراك وقوع نسبة بين أمرين إيجاباً أو سلباً، أما من الوجهة النفسيّة، فإنه "قرار ذهنيّ يثبت به العقل مضمون الاعتقاد، ويقلبه إلى حقيقة"([١])، وبه يتم بها إصدار الحكم على الأشخاص والأشياء والمواقف الحياتية، لينتج عنها مجتمعة سلوكاً قويماً، وبه تتحقق أسس بناء الشخصية القويمة، وهذا الميزان يقبله المنطق وتستريح له النفس، وجاء في القرآن الكريم الإنكار والتعجيب من حال من يختل ميزان حكمه إلى غير ما أمر الله تعالى؛ لأن في أمره وحكمه تعالى مبتغى النفس الفطريّ وبه راحتها فقال:" أ َفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ"(المائدة٥٠)، لذلك جاءت الآية الكريمة مبيّنة أن القرآن في نزوله حكم إلهيّ على كل منا حواه، وأن أي حُكْمٍ آخر مخالف لما في القرآن الكريم إنما هو نابع عن خلل نفسي، وتابع إلى هوىً وضلال، فقال تعالى:"وَكَذلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ"(الرعد٣٧)، والجدير بالذكر أن هذه الآية وردت في سياق سورة الرعد المتحدثة عن التغيير صراحة كمنهج متبع وسنة إلهية جارية.

فتحقيق الأهداف المنهجية يؤدي إلى إعادة تشكيل التفكير وصياغته ضمن نطاق سليم يضمن عدم التأثر بأي مانع من موانع التغيير للفرد، ويعين على التغيير العقدي للفرد، ويقوي أسس هذه العقيدة في النفس، ويضمن له الارتقاء إلى مستوىً أعلى دائماً؛ لأن التفكير "يصرّف القلب في معاني الأشياء لتدرك المطلوب"([٢]). **ويتفرع هذا النوع من الأهداف إلى:**

([١]) صليبيا، جميل، **علم النفس**، مرجع سابق، ص٥٢٣.

(٢) الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت ،١٤٠٥، ص٨٨

(١)- الهدف المنهجي للاكتساب والتوجيه(البيان):

إن قوام الأهداف المنهجيّة كما ورد في القرآن الكريم هو تحقيق البيان، وقد "قال بعض الحكماء: شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان"(١)، ليكون الهدف المنهجي **((هدفاً بيانياً))** في بداية الأمر، وهذا الهدف هدف واسع المدى في كتاب الله تعالى- كما قال الحكماء- لا ينحصر؛ ولأنه لا يوجد حدٌّ أعلى يصل الإنسان إليه بل يبقى متطلعاً للاستزادة من بيان القرآن الكريم على مدى حياة الإنسان؛ لأنه متعلق بفطرة التعلّم التي كانت أول فعل لآدم بعد أن خُلق، والاستزادة من الارتقاء في درجات العمل داخل دائرة المنهج القويم متصل بالزيادة في اكتساب المعارف وتوجيهها.

لقد دللت الآيات الكريمة على الهدف البيانيّ من خلال إما ورود لام التعليل كما في قول الله **تعالى:**"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(إبراهيم٤)، **وقوله تعالى:**"يُرِيدُ اللّهُ **لِيُبَيِّنَ** لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"**(النساء٢٦)** أوما يؤدي معنى التعليل ومثالها قوله تعالى:"... يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ **أَن تَضِلُّواْ** وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**"(النساء١٧٦)** بمعنى "لئلا تضلوا"(٢)، أوحرف الترجي (لعل) في أكثر من موضع، كما جاء في الآيات الكريمة: "... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَ**عَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**"(المائدة٨٩)، وقوله تعالى:"وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** "**(طه١١٣)**، وقوله: "... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ **لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**"**(البقرة٢٦٦)**،وقال تعالى:"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**" **(البقرة٢٤٢)**، وقوله **تعالى:**"وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، المجلد التاسع، ص٣١٧.

(٢) الطبري، (٣١٠هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، طبعة دار الكتب العلمية، ط٣/١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، المجلد الرابع، ص٣٨٤.

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** "(**آل عمران١٠٣**)، وقوله تعالى:"قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآ**يَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**"(**الأنعام ١٥**).

"ويكون البيان بما ما لاَ يُعذر أحدٌ بجهالته، من حلال أو حرام"([١])، وقد تبيّن ذلك في قوله:"وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (**التوبة١١٥**).

ويكون الاكتساب بالتلقي للبيان، وهو مهمة الأنبياء الأولى التي وُكّلت إليهم، وهو دور العلماء من بعدهم، فقد قال الله تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم:"وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(**النحل ٦٤**)، فالبيان يوضح ما في القرآن الكريم من النور والبرهان والحكمة والتبيان([٢])، ليكون منهج القرآن الكريم واضحاً بيّناً لا يشوبه غموض ولا تحوطه الشكوك، ومن هنا كان البيان هو الوسيلة الأولى للتغيير الفردي في القرآن الكريم، حيث إن الله تعالى بيّن للناس الحقائق في القرآن سواء أكانت الماضية منها والحاضرة والمستقبلية على أتمّ وجه وأوضح مسلك ليكون بعدها الإنسان مريداً مختاراً طريقه بين الهدى والضلال، فإن اهتدى بعد البيان فقد بذل الوسع في تطبيق منهج الله، وإن اختار الضلال بعد البيان فقد خالف منهج الله تعالى البيّن ليبقى في دائرة الإثم والعصيان، فالبيان هو العملية المعرفية التي تضمن بداية التغيير، وهذا البيان مرحلة أولى هيّئها الله تعالى للإنسان، أما الاختيار بين الهدى والضلال فإنه مرحلة متوسطة للتغيير والفاعل هو الإنسان، وفي نهاية عملية التغيير فإن تحقيق الغاية هي المرحلة

---

(١) انظر:المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٦ .

(٢) المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٦، بتصرف.

النهائية للتغيير وهي أيضاً بفعل الله، فالأمر بداية ونهاية من الله وإليه وهذا من أحد الجوانب التي تتضمنها الآية الكريمة:"هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ..."(**الحديد٣**).

أما الإنذار والتبشير فهما وسائل الأهداف البيانية الهامّة في التوجيه للإنسان للاكتساب السليم، حيث إن الإنسان يكون أدق في عملية الاكتساب في حال وجود الرادع والوازع، والتبشير والإنذار هما آلتا الضمير اللتان لهما الدور الأول في الحفاظ عليه مستيقظاً من الغفلة، وبهما تقوم الحجة في إقامة هذا الدين واقعة؛ لكي لا يكون للناس على الله تعالى حجة، فيقول عز وجل: "رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً"(**النساء١٦٥**)، يقول الطبري: "فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه"([١])، فللإنذار والتبشير دور في توجيه الإنسان لاختيار طريقه، ومعرفة مصيره إذا اتخذ أحدٌ سبيلاً ينتجه فقال تعالى:"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً"(**الكهف١-٢**)، فمعرفة الإنسان بوجود البأس الشديد يستدعي تجنّبه لكل ما يوصله إليه وهو وظيفة الإنذار، أما معرفته بالأجر الحسن فيستدعي عمله بكل ما يحقق له المنفعة الدائمة وهو وظيفة التبشير، ومن هنا كان للتبشير والإنذار الدور الهام في تحريك عجلة التغيير في منهج القرآن الكريم.

(٢)- الهدف المنهجي للمعالجة والتقويم(الاستغفار والتوبة):

وهو الهدف الذي يأتي تفعيله بعد اكتساب المعلومات والاعتقادات الفكرية وتمكينها من النفس، وهذا الهدف يحافظ على النقد الذاتي، والمراجعة الدائمة، والتقويم المستمر، كما يهدف إلى الحفاظ على الفرد من شوائب الآثام التي هي الأساس والسبب الأول في الإقدام على خطوات التغيير

---

(١) المصدر السابق، المجلد٤، ص٣٦٩.

السلبيّ المذكور آنفاً، كما أن تعديل سلوك الفرد باتخاذ القرار السليم في مواجهة الأحداث هو أمر آخر تسعى هذه المنهجية لإيجاده، كما أن تنقية الفرد من الذنوب بتعديل المفاهيم وعدم سيطرة اليأس من رحمة الله التي تقطع العلاقة بين الإنسان وخالقه فيهدم-اليأس- أهم العلاقات في حياة الفرد، كما يكون لهذه المنهجية دور في إعمال التذكر والانتباه، وتوجيه الفرد إلى صلاحه في الدنيا والآخرة، وعندها تبقى عملية التغذية الراجعة للنفس كفيلة بإصلاح أي خلل يواجه عملية التغيير الفردي، وتكون السبيل لإزالة أي مانع يوجه حركة التغيير المستمر نحو الارتقاء ضمن دائرة المنهج القرآنيّ القويم.

فمن آيات القرآن الكريم نجد أن الاستغفار والتوبة عملية تقويميّة منهجيّة أساسيّة، لا تكون إلا بمعرفة علمية، وهناك علاقة قوية بين سنة الله في تغيير الأفراد والجماعات، وبين قضية الاستغفار، فبوجوده -الاستغفار- يتحقق التغيير على أرض الواقع الذي هو من فعل الله تعالى المسمى بالسنة الإلهية في الإنسانية، يقول الله تعالى في بداية سورة هود والتي ابتدأت بذكر الغاية التي جاء لأجلها القرآن الكريم بعد توضيح صفة القرآن الكريم في الإحكام ثم التفصيل، قال تعالى:"وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ **يُمَتِّعْكُمْ** مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ"(هود ٣)، فنجد أن الاستغفار عملية نفسيّة، ومن ثم التوبة عملية سلوكية وكلاهما نابع من القلب بعقد النية على عدم العودة، ومن ثم الجانب السلوكي العملي لجميع أعضاء الجسد، ليعود الإنسان إلى طاعة الله مستسلماً عازماً على عدم العودة إلى معصيته. كما أن الاستغفار موجب للزيادة في الخير، وهذه الزيادة هي تغيير في حقيقة الأمر، تمثل ذلك في قول الله تعالى: "وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ "(هود٥٢)، ففي أرسال الماء من السماء تغيير حالهم من حال إلى ضدّها، وفي زيادة القوة تغيير في حالهم من درجة إلى أحسن منها أي الارتقاء بها.

إذن فالاستغفار تدريب للفرد على النقد الذاتي للأعمال بدل التفكير التبريري لها، وتدريب على التفكير الشامل للأعمال بدل التفكير الجزئي فقد جاء في الحديث الشريف:"إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي .....إلخ"(١)، وهذا الحديث الشريف دليل على أن عملية التغيير تبقى لها دوام الاستمرارية لضمان الارتقاء للفرد، كما أنها متكررة بتكرر الذنب دون يأسٍ يقطع العلاقة ما بين المغيِّر –وهو الله– والمتغيّر –وهو الإنسان–، "فالاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للِّسان؛ لينحلّ به عَقْد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة"(٢)، لذا جاءت الآية الكريمة:"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ "(آل عمران: ١٣٥)، فهو منهجية متعلّقة بالتذكّر الذي هدف القرآن لتفعيله من خلال آيات مباشرة ذكرتها سابقاً، وعدم الاصرار على الفعل السيء دليل التوبة وصدق الاستغفار، والتغيير من الفعل السيء إلى الكف عنه، وفي الكف عنه إصلاح للنفس، وهذا الإصلاح هو ذاته المقصود في قوله تعالى:" حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"

ولا بد من الإشارة إلى أن قضية الاستغفار كمنهجية عِلْمِيَّة وعَمَلِيَّة للفرد والمجتمع والأمة لا بد أن تستمر، وإلا اجتثت هذه الأمة أفراداً وجماعات من أساسها، قال الله تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

(١) **أخرجه البخاري في صحيحه** كتاب التوحيد باب قول الله تعالى:"يريدون أن يبدلوا كلام الله"، عن أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم(٢٣٠٥)، المجلد الرابع، ج٨/ ص٨١٨–٨٢٠.

(٢) العسقلاني، الحافظ أحمد ابن حجر(٨٥٢هـ)، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابها فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م،ج١٣، ص٥٧٦.

وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال٣٣)، فمما رواة الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"(١)، فالاستغفار هو الوسيلة الأولى للحفاظ على عملية التغيير قائمة في الفرد والجماعة، وهي الإعلان الأوّلي عن بداية التغيير العمليّ للنفس، وهي الدليل على إصلاح ما في النفس، وكل ذلك تضمّنته الآية الكريمة:" حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

وتعتبر هذه المنهجية السبيل لتحقيق الارتقاء الفردي والطريق له إيماناً وخلقاً وسلوكاً، وكذا الارتقاء المجتمعي والحضاري، وهي الطريقة المثلى لصيانة الفرد والمجتمع والأمة من التخلف والتراجع والانحطاط، مهما أحاط بهم على مرِّ الزمان، وهي أصل ابتدأ وجوده من بداية وجود الإنسان، وكان أول من اتبعها آدم عليه السلام(٢)، وقد انتهجها كل الأنبياء من بعده في سلسلة تاريخيّة لعملية التغيير التي جاءت في القرآن سنّة إنسانية جارية إلى يوم الدين، قال الله تعالى:"وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ **ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * **فَآتَاهُمُ** اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "(آل عمران ١٤٦- ١٤٨)، فإذا استغفروا من ذنوبهم وهو تحقق التغيير الفردي، آتاهم الله الثواب وهو تحقق وعد الله تعالى في تسيير السنن الإنسانية لصالح الفئة المستغفرة.

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، مصدر سابق، كتاب التوبة سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث برقم (٧٠٦٥)، ص١٣١٤.

(٢) ورد استغفاره في سورة الأعراف الآية (٢٣) وذلك في قوله تعالى:"**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإلا تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**" وهو أول استغفار عرفته الإنسانية في تاريخها.

القسم الثاني: الأهداف العمليّة:

١- **تفعيل عمل الاستعدادات الخلْقيّة وفق عملها السليم:** إن قيام الإنسان على "تمكين أجهزته السمعية والبصرية والعقلية من أداء مهامها، وتدريبها على امتلاك الكفاءة اللازمة في البحث عن الحقيقة أو الصواب والعمل بهما"([١])، أمر هامّ في قيام التغيير الفرديّ؛ لأنه يؤدي إلى عملية "إصلاح عقليٍّ جليل يعلِّم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم"([٢]).

ومن الأهداف التي ركّز عليها القرآن الكريم تربية الحواس والعقل من خلال توجيهها إلى تحقيق أهدافه وغاياته، "فهي تُعنى بالكيفية التي يستخدم الفرد بها حواسه وعقله، ويلاحظ الظاهرات أسبابها ومسبباتها وطرائقها، ويربط بين مكنوناتها ربطاً بين المقدمات والنتائج، فيفقه سرّها ويتعلم مغزاها، ويكون مسؤولاً عن كل أعماله وملاحظاته واستنتاجاته"([٣]).

فالإعمال السليم للاستعدادات التي وهبها الله تعالى لهذا الفرد، تجعل منه فرداً قادراً على تدبير أمره خير تدبير، وتحقيق الميزان العقلي القويم، للموازنة بين الدنيا والآخرة، وتعزز جانب الحكمة في معالجة الأمور وتصنيفها وترتيبها وفق مقتضيات المنهج القرآني في التغيير، وتولد كثرة الإعمال قضية الدقة الموصلة للتقوى كبنية أساسية تتبنى عليها أعمال الفرد كلها لتحقيق الارتقاء الفردي.

---

(١) برغوث، الطيب، **منهج النبي في حماية الدعوة**، ص٩٨. ص ٩٩.

(٢) ابن عاشور،محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر، تونس، بدون طبعة، أو سنة نشر، المجلد السابع، ص١٠١.

(٣) سيد، فتح الباب عبد الحليم، **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، ص٧٦-٧٧، بتصرف.

فإشارات القرآن الكريم للاستعدادات بيّنه، تبدأ من الاستعداد القائم على قدرة الإبصار وقدرة النظر، وتستمر بإشارات للعملية العقلية التي تختص بالقدرة على التدبر، والفقه([1]) والتذكر([2]) والتفكر، تدريب لتشكيل العقلية العلمية، "والعلم في هذا الإطار هو معرفة قوانين الله تعالى في الكون تطبيقاتها في واقع الأرض "([3])، ليكون الإنسان قادراً على القيام بمهمة الخلافة على هذه الأرض.

٢- **تدريب الإرادة للفرد على اختيار الأفضل:** وتفيد عملية تنمية القدرات العقلية في إيجاد التوازن الفكري عند الفرد، والذي بدوره يساعد الفرد على اتخاذ القرار السليم، والسير في الاختيار الأنسب إذا تعددت الاختيارات أمامه وفق أصول العقيدة التي يعتقدها، وعندها تنمو "قوة الرغبة والاختيار التي توجه الإنسان نحو قصد معيّن، وهي قوة باعثة يتولد منها الميل إلى الشيء أو النفور منه"([4])، وهي ما يسمى بقوة **الإرادة** عند الإنسان، والتي تتحكم في اختيار الإنسان لمبتغاه، وعندها تنمو **الرغبة في الارتقاء** في درجات القبول في الدنيا والآخرة.

"وللإرادة مستويات: الأولى للغذاء ولبقاء الجسم، والثانية لاستمرار النوع بالنكاح، والثالثة إرادة العقيدة والقيم ليرتقي الإنسان بها"([5])، فهدف القرآن الكريم هو تنمية إرادة العقيدة والقيم، والتي

---

(١) قول الله تعالى:"أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" محمد٢٤، "لهم قلوب لا يفقهون بها" الأعراف ١٧٩.

(٢) لقول الله تعالى: "يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب" البقرة٢٦٩.

(٣) مدكور، علي أحمد، **منهج التربية في التصور الإسلامي**، دار الفكر العربي، ط١/١٢٤٤هـ ، ٢٠٠٢م، ص٤٣.

(٤) الكيلاني، المرجع السابق، ص١٢٢.

(٥) الكيلاني، المرجع السابق ص١٢٣.

تشكّل بمرور الزمن خبرات دينية تعمل على الربط بين السلوك والعقيدة التي ينبثق عنها، لتقوم الشخصيّة الإسلامية للفرد والجماعة متّصلة بالأساس التوحيدي، ومترابطة بخبرات سابقة تمتاز بكونها مربيّة، حيث تتخذ مقام الموجه والمرشد للأقسام الأخرى من الإرادة، حتى تتكامل كلها بنسق متكامل وفق منهج القرآن الكريم، ليصبح الفرد إنساناً مشبع الحاجات، متوازن التفكير والسلوك، وهذا كله البداية المثلى لقيام الشخصيّة القرآنية قياماً متوازناً ومتكاملاً.

أما إذا هيمنت الإرادات الأخرى على إرادة العقيدة والقيم حصل هبوط في النوع الإنساني، وانحدار في المستوى الحياتي، وطغى الهوى على عمل الإنسان، فتكون إرادته محكومة بما يناسب شهوته وهواه، وعندها يكون الفرد خالياً من القيم والعقيدة في حياته، حيث يكون البُعدُ عن الله سبيله، فيصل به إلى أن يشبه بالأنعام في حياته، لكن الفرق بينه وبين الأنعام أنه أضلّ منها في مصيره، فهي – الأنعام– تحيا كما أمرها الله، وهو يحيا على غير ما أمره الله، فيشمله قول الله تعالى:"أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً"(الفرقان٤٤).

المطلب الثاني: غايات القرآن الكريم من التغيير الفردي:

تُعَرَّفُ الأهداف المحوريَّة (الغايات) بأنها: مركز الالتقاء لكل الأهداف المرحلية، فهي النقطة التي تلتقي عندها جميع الأهداف، وهي الهدف المرجو الذي تمحورت حوله باقي الأهداف المرحلية وجاءت لتحقيقه، والغايات التي جاء القرآن الكريم لتحقيقها – في الدنيا دون حصر– هي: **التوحيد، الاستخلاف، التمكين.**

إنّ الإنسان بدقّة خلقه وسير حياته بداية ونهاية وما يعتريها من أحداث ومواجهات، وما يحيط بها من قضايا ومسلَّمات، كلها لم تكن عبثاً، فجاء قوله تعالى: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ "(المؤمنون١١٥)، بأسلوب الاستفهام الاستنكاري "توبيخاً لهم على تغافلهم وإشارة إلى أن

الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم للجزاء"(١)، لكي يكون دورها" إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات، وإعطاء كلّ مخلوق ما به قِوامه"(٢)، فالحياة التي جاءت خالصة من العبثية تُحدَّد بغاية من وجودها، ومن هذه الوجهة كانت عدم العبثية للحياة ذات دور في عملية التغيير، حيث إن اليقين بوجود كل شيء لحكمة ما يستلزم توجيهه إلى ما يحقق الغاية من وجوده؛ لأن في هذا التوجيه ضمان لقيام الحياة كما أراد الله، والتغيير في غايته هو توجيه ما استُخلف الإنسان فيه توجيهاً يناسب الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق.

وتتلخص الأهداف المحوريّة أو الغايات التي خُلق من أجلها الإنسان انطلاقاً من قول الله **تعالى:**" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ امَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ **وَلَيُمَكِّنَنَّ** لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ** مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "(النور ٥٥).

فالإيمان بالله في الآية يعني توحيده، والعمل الصالح هو توجيه الأفعال الإنسانية وفق الإرادة الإلهية، وهذا هو دور الإنسان أن يغيّر من نفسه إلى أن يصل إلى أفضل درجات التطبيق لمراد الله، وعندها يتحقق وعد الله لمن حقق الإيمان والعمل الصالح بأن يستخلفه، ويمكّن له، ويبدله من بعد خوفه أمناً، ليتحقق في الحياة معنى العبودية الكائنة لله وحده لا شريك له، ومن هنا فإن أول مرحلة من مراحل الغايات القرآنية **التوحيد**، ثم المرحلة التي تليها **الاستخلاف**، ثم **التمكين**، ثم **العبودية لله وحده**، والتفصيل كما يأتي:

---

(١)الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المجلد السابع، ج٩، ص٢٦٩.

(٢) ابن عاشور ، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، المجلد الثامن، ص٣١.

١– التوحيد: وحقيقة التوحيد تكمن في إفراد الله تعالى بالعبودية، وإخلاص العبادة له، والإقرار بألوهيّته، ونفي الشريك عنه، والاستقامة على ذلك، و"العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَك مولاك"(١).

كما إن "تمام تفسيرها وتحقيقها يكون في البراءة من عبادة غير الله، وعدم اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله، أو يطيعهم كطاعة الله، أو يعمل لهم كما يعمل لله، أو ما ينافي معنى: **(لا إله إلا الله)** أشد المنافاة"(٢).

وبما أن التوحيد هو غاية الغايات يقول الله تعالى:"...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعونَ "(**البقرة ١٥٦**)، "فإن قوله تعالى:**(إنا لله)** توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله تعالى: **(وإنا إليه راجعون)** إقرار بالهلاك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له"(٣) في بدايته.

ومن هنا نجد حقيقة أن التوحيد هو جذر العبودية، حيث إن وجود التوحيد متأصّل في نفس الفرد يستدعي قيام هذه النفس على خير أساس، وإذا كان التوحيد هو نفسه العبودية ولكن في مستوىً فرديّ، فإن النتيجة في الحقيقة هو أن غاية الإسلام تتلخص في كلمة واحدة هي التوحيد بداية والتوحيد نهاية، فالعبودية الخاتمة للغايات توحيد ولكن على مستوى الأمة، وعليه فإن قيام العبودية في النفس لا بد أن يسلك طريقه بين الأفراد والجماعات إلى أن يصل إلى تحقيقها على

---

(١) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك(ت٤٦٥هـ)، **تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات**، وضع حواشيه وعلق عليه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثالث، ص٤٥٧.

(٢) عبد الوهاب، محمد، **كتاب التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد**، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٦-٣٧.

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، المجلد الأول، ص٣٠٨.

مستوى الجماعة، فيكون ما يميّز الأمة الممنهجة بمنهج القرآن الكريم هو عبوديّتها لله وحده الذي يجعل منها أمّة حرّة؛ لأنها وجّهت هذه العبودية وجهة واحدة إلى الإله الأحقّ بها، ومدى توجيه هذه العبودية له وحده يكون التغيير لما في النفس محققاً في واقع الأمر. إذن فالتوحيد هو توجيه العبودية للإله الأحق بها وحده، وهو أول مرحلة من مراحل التغيير؛ فهو تحقق **التغيير الفردي** بذاته، وبعد تحقق في النفس يأتي دور تفعيله في السلوك الإنسانيّ من خلال العمل الصالح الذي يبتغيه الفرد لله وحده، وهو ما يسمى الاستخلاف كما يردي الله فيما كان الإنسان مخيّراً به، لذلك جاءت الآية (وعملوا الصالحات) لأن عمل الصلاح فيما كان الإنسان مخيّراً به هو مرحلة أولى من مراحل الاستخلاف.

إذن **فالعبودية** هي: توحيد الله تعالى في النطاق الداخلي([1])، والعمل بما أمر الله تعالى على صعيد النطاق الخارجي([2])، مع ضمان تزامن الأمرين وتوافقهما في العمل.

٢- **المنهاج الاستخلافيّ:**

أصل كلمة الاستخلاف من خلف، و"الخاء واللام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها أن يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، والثاني خِلاف قُدَّام، والثالث التغيُّر...، وإنَّما سُميِّت الخلافةً لأنَّ الثَّاني يَجيءُ بَعد الأوّلِ قائماً مقامَه"([3]). ولا يوجد حقيقة خلاف بين الأصول الثلاثة، فمن يجيء بعده شيء يقوم مقامه فقد صار قدّامه في ذلك، وهذا تغيّرٌ في حقيقة الأمر.

والاستخلاف ما يتعلق بمهمة الإنسان في الأرض التي خُلِقَ للعمل بها، وهو إطار تغيير النفس، فالله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، فقد وُكِّل الإنسان وكُلِّف بمهمة لا بد من تحقيقها في

---

(١) وأعني في النطاق الداخلي في أنفس الأفراد منفردين ومجتمعين بتوحيد لله تعالى.

(٢) وهي السلوكات الموافقة للمعتقد، أي هي العمل الصالح ابتغاء وجه الله بإخلاص في الدين.

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص ٣٧٤.

الحياة، وهذه المهمة إذا تحققت على الوجه الذي يُرضي الله تعالى تتحقق الخطوة الأولى للوصول إلى غاية خلق الإنسان، وهي أن يكون الإنسان حافظاً لأمانة الله تعالى التي كلفه بها والتي بيّنها قوله:"إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً "(الأحزاب٧٢).

والقرآن الكريم جاء بمنهج كامل ومتكامل ليبيّن للإنسان الطريق التي يحقق فيها غاية خلقه، فلم يترك الله تعالى الإنسان على عماية يتخبّط في الأرض دون أن ينظِّم له مسيرته في الحياة بكاملها، ويهديه إلى ما فيه صلاحه في دنياه وآخرته، فقال تعالى:"يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً"(النساء٢٦- ٢٨).

ويُنظر لقضية الاستخلاف بأكثر من اعتبار، فاعتبرها المفسرون وظيفة الإنسان في هذه الأرض(١)، وجاء- في اعتبار آخر- الخلط بينها وبين التمكين في الأرض على أنهما غايتان والوصول إليهما هو نهاية الأمر، أو أن الاستخلاف عملة بوجهين الوجه الأول منها عبودية والآخر سيادة(٢).

لكن لا بد من النظر لهذه القضية كمنهج كامل منضبط ومنظم، ومتسلسل الدرجات، ومترابط الجوانب، فالقرآن الكريم عرض هذه القضية على أنها **(منهاج استخلافيّ)** مؤدٍ للغاية الكبرى، فلن يُعفى الإنسان من السعيّ الذاتيّ في تطبيق أمر الله تعالى وتنفيذه؛ لأنه مطالبٌ بأن يستغلّ استعداداته كافّة في تفهُّم الخطاب الإلهي، ومن ثم السعْيُ في تطبيق هذا الخطاب من أمر أو

---

(١) وهي نظرة المفسرين في تفسير الآية :" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" البقرة ٣٠.

(٢) انظر: الدسوقي، فاروق، **استخلاف الإنسان في الأرض**، مرجع سابق، ص١١-١٤.

نهي...إلخ، وجعل تفاصيل الخطاب الرباني منهجاً تنفيذيّاً، يكون وسيلة لتحقيق الغاية المحوريّة في الحياة الدنيا؛ لأن منهجه قائم على ربط الدين بالحياة(١)، وبربطهما معاً يكون قوام الحياة بصبغة الله تعالى، فمنهج الله جل وعلا هو ما يحقق هذه الصبغة التي لا يوجد أحسن منها.

إن المتأمّل لقول الله تعالى:"ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"(الأنفال٥٣)، يجد العلاقة بين التغيير وبين قضيّة المنهاج الاستخلافي، فموقع هذا المنهج- الاستخلاف- من سنة التغيير هو قوله تعالى:" حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"، فنجد أن عملية التغيير وإن انطلقت من فرد يقيم دين الله تعالى في نفسه، فإن منهاج الاستخلاف هو انعكاس ما في النفس على عمل الإنسان في عمارة الأرض، والمنهج الاستخلافيّ يبدأ من نقطة إعلان الفرد إسلامه بقوله (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، حيث إن العمل الاستخلافيّ المطلوب له عدّة وجوه:

- **الوجــه الأول:** هـو قيـام الإنسـان بالسـلوكات التطبيقيّـة لمـنهج الله تعـالى علـى نفسـه، وهـو استخلاف أوّليّ، يكون باستخلاف الإنسان على نفسه كأحد الأمانات المسؤول عنها يوم القيامة، وعدم حفظه لهذه الأمانة خسارة فادحة لا تعوّض؛ إذ إن أي اعتقاد لا يوفقه عمل هو حجة على الإنسان لا له، فيقول تعالى في ذلك:"قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ"(**الأنعام١٢**).

- **الوجه الثاني من أوجه الاستخلاف:** هو قيام الإنسان على مسؤولياته وفق ما جاءت به تفاصيل المنهج الإلهيّ في القرآن الكريم، وكل مسؤولياته هي أمانة من الله تعالى أوكلها إليه كي يحفظها،

---

(١) وقد فصّل المؤلف عبد المجيد النجار في ذلك، انظر: النجار، عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ص١١، وكذلك الفصل الثاني، الباب الثاني دور العقل في إنجاز الخلافة، من ص٧٥- ١٠٣.

فيديرها ويوجهها كما يريد الله تعالى، وعليه فإن قيام كل فرد بمسؤولياته وفق منهج الله تعالى يعني قيام مرحلة متقدّمة من التغيير في مستوى جماعيّ يؤثر في الحياة العامة على الناس كمجموعة.

- **الوجه الثالث من أوجه الاستخلاف:** وهو التفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابيّاً فعّلاً، فجاء قوله تعالى:"آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ"**(الحديد٧)**، ويقتضي ذلك الاستخلاف تسخير كل ما في الكون وفق الوظيفة التي وجد لها، فهذه أمانة ثالثة من الأمانات الكائنة على عاتق الإنسان، والتي لا بد أن يسيّرها بما يرضي الله تعالى، وهي الاستعمار للأرض؛ فهو في حقيقته تسخير كل ما خلق الله تعالى - غير الإنسان- كما يريد الله تعالى، أي استعمال كل الموجودات بما يرضي الله تعالى، فمثلاً الثمر مما خُلق في هذا الكون، ويستطيع الإنسان استعماله في رضا الله بأكله حلالاً طيّباً، ويستطيع أن يأكله حراماً خبيثاً، فالعنب يستعمل للغذاء حلالاً طيّباً، ويستعمل حراماً خبيثاً يوم يكون مصنّعاً خمراً، وهكذا كل شيء في الكون إما أن يُستخدم استخداماً إيجابيّاً ويكون عندها عمارة الأرض برضا الله تعالى، أو يستخدم استخداماً سلبيّاً ويكون عندها عمارة للأرض بغضب من الله تعالى، وإليه تشير الآية الكريمة:"يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ "**(البقرة١٦٨)**؛ لأن في اتباع خطوات الشيطان إيصال للإنسان إلى ما كان حراماً خبيثاً؛ لذلك خصص فعل العمارة والاستعمار بالأرض وما فيها في القرآن الكريم(١)، فقد ورد في موضعين بمعنى استعمار الأرض ومنها: "وَإِلَى

---

(١) الجذر **(عَمَرَ)** معناه في معاجم اللغة:" العين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على بقاءٍ وامتداد زمان، والآخر على شيءٍ يعلو، من صوتٍ أو غيره...، فالأوّل العُمْر وهو الحياة، وهو العَمْر أيضاً .... ومن الباب عِمارة الأرض، يقال عَمَرَ الناسُ الأرضَ عِمارةً، وهم يَعْمُرُونها، وهي عامرة معمورةٌ. وقولهم: عامرة، محمولٌ على عَمَرتِ الأرضُ، والمعمورة من عُمِرت. والاسم والمصدر العُمْران: واستَعمر الله تعالى الناسَ في الأرض ليعمرُوها. والباب كلُّه يؤول إلى هذا"، انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، الأصل عمر، أما المواضع الأخرى في القرآن

ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ "**(هود٦١)**،**أما الموضع الثاني فقال تعالى:** "أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"**(الروم٩)**.

لقد جاء في كتاب الله تعالى عرض لهذه القضيّة- الاستخلاف- بمعالم واضحة، في مختلف المراحل التي نزل فيها على السواء، فكثير من السور المكيّة أشارت للقضيّة: منها سور الأعرف([١])، القصص([٢])، وغيرها، ومن السور المدنية سورة النور([٣])، وهذا دليل على أن القرآن الكريم منذ المرحلة المكيّة من نزوله كان يوجه النظر ويثير النفس نحو تحقيق هذا المنهاج الاستخلافي، فالناظر في الآيات المدنية يجد قلة الإشارة في هذه القضيّة، وإن دلّ ذلك على شيء فهو دليل على أنها متحققة على أرض الواقع في المدينة لتكّن المسلمين أكثر في هذه المرحلة، كما أن الأفهام نمى هذا المفهوم فيها.

الكريم فهي ترجع إلى الأصل الأول الذي يدل على بقاء وامتداد زمان، أما في سورة التوبة في عمارة مساجد الله تعالى في وقله تعالى:"إنما يعمر مساجد الله..."؛ فإن مقصودها كما قال ابن كثير:" وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك"، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١- ص١٣٦، وأظن أن عمارتها هنا هو قضاء العُمُرِ في زيارتها والصلاة وذكر الله فيها، لذلك فهي - في ظني- تعود للأصل الأول من جذر عمر.

(١) قول الله تعالى في الآية ١٢٩:"**...عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**"

(٢) قول الله تعالى في الآية ١٣٣:" **إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء**"

(٣) في الآية التي كانت منطلقي لتحديد معالم هذا المطلب، وهي: " **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات....**".

فمن الآيات التي تؤكد على الاستخلاف في السور المكيّة قوله تعالى في سورة الأنعام:"وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ"(**الأنعام١٣٣**)، وكذا في سورة الأعراف فيما أخبر الله به في قصة موسى:" قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"(**الأعراف١٢٩**)(١).

إن تطبيق المنهاج الاستخلافي كما أمر الله تعالى، و تحقيق العبودية لله تعالى في أرضه وعمارتها، بسلامة التطبيق لمنهج الله تعالى، يتحقق بما يلي:

١-**الجانب الاعتقادي**: وهو الإيمان الخالص والاتصال التام بالله تعالى على مستوى الفرد والجماعة؛ فقد شرّع الله تعالى نُسُكاً وعبادات لضمان التواصل بين العبد وربه، ليتسنى للإنسان تفعيل المنهاج الاستخلافي على أرض الواقع، وليبقى هذا الإنسان متذكّراً متفكّراً متوكّلاً على من يستحق العبودية التامة، وليتم الربط الدقيق بين الاعتقاد الداخلي والعمل الخارجي لضمان الارتقاء الإنساني على المستويات كافة.

٢-**الجانب العملي**: وهو العمل الصالح الناشئ عن الجانب الاعتقادي؛ ويعني التطبيق والتفعيل للمعتقدات، "بمعنى أن يكون النشاط الإنساني منبعثاً عن رؤية إيمانية صحيحة، قوامها الفهم العميق الناضج للعلاقة بالله والكون والحياة من جهة، وتجسيد عملي سليم لمقتضيات هذا الإيمان

---

(١) من الملاحظ في ذكر قضية الاستخلاف في السور المكيّة أنها جاءت من خلال عرض قصصي لأحوال الأمم السابقة، وهذا من أهم الأساليب القرآنية لتثبيت القضايا المعرفية وتقريبها للواقع، انظر فصل أساليب القرآن الكريم فيما تحدّث عن الأساليب التقريبيّة ومنها القصة القرآنية، ومن السور المكية أيضاً سورة هو الآية ٥٧، أما ما ذكر القضية من السور المدنية فاكتفيت بذكر سورة النور الآية ٥٥ التي ابتدأت بها الحديث عن الغايات، وأظن بعد البحث أنه لم أجد غيرها من السور المدينة ذكرت الاستخلاف صراحة .

في الواقع الإنساني الفكري والسلوكي والعملي من جهة أخرى"(١)، وبما أن الله تعالى سخّر كل ما في الأرض للإنسان، والمقصد من ذلك التسخير هو قيام الإنسان بتفعيل المنهاج الاستخلافيّ، فلا بد أن يكون النشاط الإنساني فكراً وعملاً، فرديّاً أو اجتماعيّاً موجّهاً "من أجل تطوير آليات التسخير، وتصعيد عملية التفاعل مع الكون فهماً وانتفاعاً"(٢)، ليتم تحقيق العبودية لله تعالى في كل عمل من أعمال الإنسان، وكل وجه من وجوه الاستخلاف.

وخلاصة القول: - **أولاً:** إن للمنهاج الاستخلافي أهدافاً ومعالم وسبلاً جاء لتحقيقها، جاءت بها شرائع الله تعالى كلها، ومنها دين الإسلام الذي تلخصت فيه قضيّة استخلاف الإنسان كمنهج محدد المعالم، موجَّه الأهداف، متين الأسس، قوي الأركان، مستمر الحفظ إلى يوم الدين.

- **ثانياً:** إنّ إقامة المنهاج الاستخلافيّ هي من الأمور التي تكون في دائرة فعل الإنسان، فإذا أقامها بما كان من محددات إلهية، وأسس شرعيّة ومنهجية، لتحقيق غايات نهائية، كان ما يختص بفعل الله تعالى قائماً بعدها بإحداث قضيّة التمكين؛ لأنه وعد الله الذي لا يخلف المعياد، والمتمثل فيما ورد في سورة النور الآية ٥٥(٣)، فبعد الاستخلاف لمن حقق الإيمان والعمل الصالح(٤) تتحقق شروط قيام خير أمة، وهي فئة اجتازت الاختبارات والابتلاءات إلى أن أصبحت على قدر

---

(١) برغوث، الطيب، **منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م، ص٩٣.

(٢) برغوث، الطيب، **المرجع السابق**، ص٩٣.

(٣) قوله تعالى:" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ...." إلى نهاية الآية.

(٤) أي للفرد بعد استمراره في الارتقاء الفردي بالتغيير المستمر، وللجماعة بعد استمرارهم في الارتقاء الجماعي بالتغيير المستمر.

الانتقال **لمرحلة التمكين** كوعد من الله تعالى لمن أقام نهجه في الحياة خلال فترة الاستخلاف بكل وجوهها.

- **ثالثاً:** إن ارتباط عملية التغيير بكل مستوياتها (فرداً وجماعة) بالمنهاج الخلافي والتمكين بيّنة واضحة، فالتغيير حقيقة عملية إعداد الفرد والجماعة القادرة على القيام بتحقيق المنهاج الاستخلافي على أكمل وجه وأتم صورة، وعدم تحقيق عملية التغيير يوجب قيام سنة الاستبدال للأقوام، وهي في حقيقتها مرحلة متقدمة من مراحل سنة التغيير، فهذه السنة تعني الاستبدال لمن لم يحقق المنهاج الاستخلافي القويم، كما أمر الله تعالى، بمن يعمل على تحقيقه في أرضه.

٣- التمكين للدين: عند إعمال الفكر في معنى كلمة **(تمكين)**، فإن الفكر ينصرف إلى أصلها الذي هو من (المَكْن)، وقد اندرج تحت ثناياها عدّة معانٍ، فاللفظ (مَكَّنَ) حملت معنى القدرة والاستطاعة والظفر في اللغة(١)، ومن منظور المفسرين أضافت معنى التمليك(٢).

وعند محاولة الجمع بين معانيها نجدها أموراً مرتبطة مع بعضها ارتباط السبب بالمسبب، فمن أعطي القدرة على عمل استطاع إنجازه، ومن استطاع انجازه ظفر به، ومن ظفر به فقد ملكه، وللتمكين عند المفسرين اعتباران:

١-التمكين العام: وهو "تمكين الله للجنس البشري في الأرض، كحقيقة مطلقة، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً"(٣)، ولولا هذا التمكين لما استطاع الإنسان أن يستفيد مما سخّره الله تعالى له

---

(١) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (مكّن)، إلا أنها لا تقتصر على هذه المعاني، فقد ذكرتُ ما يخص الدراسة للاختصار ولعدم خروجي عن مسار البحث.

(٢) انظر: البغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء الشافعي(ت ٥١٦هـ)، **تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل**، ج٢- ص ١٨١.

(٣) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، مجلد ٣، ج٨- ص١٢٦٢.

في الأرض، وأن يستثمر ويستعمر الأرض، يقول الله عزّ وجل:"هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ "(الملك١٥)، ويقول تعالى في الإخبار عن قول صالح عليه السلام لقومه:"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ "(هود٦١)، وفي هذا يستوي الناس جميعهم صالحهم وضالهم، وهذا مدار الاختبار والابتلاء، يقول تعالى:" ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ "(يونس١٤).

٢- **التمكين الخاص بالمؤمنين:** وهي نقطة المفارقة بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، ويكون بجعل النصر والعاقبة للمتقين المحققين لمنهج الله تعالى في الأرض، بإعطائهم من أنواع التصرف، والتمليك، والقيادة، ما يحقق منهج الله تعالى على أوسع مدى، ليظهر دين الله تعالى على الدين كلّه، ويتحقق العدل والقسط في الناس كافّة، والإحسان في التصرّف، وتحقق القدرة للإصلاح في الأرض.

إن التمكين الخاص بالمؤمنين هو خاتمة معركة الخير مقابل الشر في الدنيا، ولا بد لتحقيق التمكين من عناصر هامة:

أولاً: تغيير الفرد ليكون القائد المتقي المطبق لمنهج الله تعالى: ودلّ على ذلك قول الله تعالى:"قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"(الأعراف١٢٨)، فأن يورث الله تعالى الأرض لمن يشاء هو نفسه التمكين لمن يشاء، وقد بيّن في القرآن الكريم أن الفئة التي سيتم التمكين لها هي الفئة الملتزمة بتقوى الله مع استمساكها به خلال فترة الامتحان والابتلاء، وفي هذه الآية إخبار عن ماضٍ ومستقبل، فالماضي هو أن الله تعالى بيّن أن ما حصل لقوم موسى هو التمكين لفئة المتقين بعد صبرهم، حيث جاءت آيات أخرى تبيّن أن قوم موسى مكّنوا في الأرض بعد هلاك فرعون، والمستقبل هو القياس على هذه السنة

الإلهية والقانون الرباني بأن كل من كان على تقوى فيما استخلاف به، فحمل الأمانة وأداها خير أداء فالعاقبة له في معركته؛ لأنه طرف للحق مهما علا زبد الباطل.

وجاء النداء في القرآن الكريم للمؤمنين لالتزام بالتقوى لإحداث التغيير الذي هو من فعل الله تعالى، كما أمرهم في إصلاح حياتهم فرداً وجماعة بعد أن تقوموا بما عليهم من إصلاح، ويوجّهوا إرادتهم لتحقيق ما يريد الله تعالى، فقال تعالى: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً*يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً"(الأحزاب٧٠- ٧١)، ففي قوله (يصلح لكم، يغفر لكم) إسناد إلى الله بأنه سيكون مراده صلاح المتقين والغفران في حياتهم، وفي هذا الصلاح وهذه المغفرة فوز من الله تعالى، حيث وُصف هذا الفوز بأنه عظيم، وقد اعتنى المنهج القرآني بإيجاد مقوّمات التقوى في الفرد والجماعة، فالتقوى فعل العبد بما استخلفه الله تعالى به فقال تعالى:"ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً"(الطلاق٥)، فأسلوب الشرط في الآية جاء مبيناً لقانون التغيير، فمن قواعده أن من يتغيّر إلى تقوى من الله ورضوان يغيّر الله تعالى من حاله بتكفير سيئاته، وجعل الأجر العظيم جائزته.

أما أحد صور قانون التغيير قاعدة النصر لله تعالى، فقد جاء في تفسير قول الله تعالى: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"(محمد٧)، أي "إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويفتح لكم"([١])، ويكون نصر الله تعالى بإقامة حق العبودية كما يحب الله ويرضى، لذلك"جعل نصر العبد له مقدماً على نصره للعبد "([٢])، "إذ لا بدّ لحصول النصر من تحصيل سببه

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ص١٦٤١.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد١١، جزء٣١، ص٣٣٧، بتصرف.

كما هي سنّة الله"(١)، وسببه حسن انجاز مهمة الاستخلاف، "فكانت حقاً عليه ووعداً كما بيّن ذلك قوله: "...وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" **(الحج٤٠)**، "وإنما يكون كمال النصر .. على حسب الإيمان والتقوى"(٢)، قال تعالى:" الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَاتَوُاْ الزَّكَـاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ" **(الحج٤)**، فشرط التمكين توجيه إرادة الإنسان فرداً وجماعة لتحقيق ما يريد الله تعالى، "وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم، وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها دون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة"(٣).

– ثانياً: تغيير ميزان الحكم العقلي ليهدف إلى تحقيق العدل والقسط بين الناس:

فالقسط والعدل هي من أوامر الله تعالى في كتابه فقال:"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" **(النحل٩٠)**. ويقول جلّ ذكره في سورة الحديد:"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" **(الحديد٢٥)**، فكان التعليل في إنزال الكتاب لقيام القسط بين الناس، يقول الطبري في تفسير هذه الآية:" ليعمل الناس بينهم بالعدل"(٤)، وكأن معنى الآية الكريمة أي: "أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب.... ليتعامل الناس بالحق، (وليعلم الله من ينصره)، وليرى ناصر دينه وناصر رسله بالغيب"(٥).

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، المجلد الثالث، ص٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، المجلد الثاني عشر، ص١٨٢.

(٣) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، المجلد ٦، ج٢٦– ص٣٢٨٨.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، **تفسير الطبري جامع البيان**، المجلد ١١، ص٦٨٨.

(٥) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المجلد الثاني، ص٣٠٠١، بتصرف.

- ثالثاً: النتيجة والثمرة تمكين دين الله تعالى من تفاصيل الحياة (صبغة الله): هي ظهور دين الله تعالى على الدين كلّه، وعلى الأهواء كلها، وعلى الموازين كلها، رغماً عن كل من حبك كيده لإخفاء الدين أو تشويهه، فيقول الله تعالى:"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"(التوبة٣٣)، وهي من أجلِّ الغايات المتحققة في الحياة الدنيا، وعندها يكون ظهور الحق كما بيّنه الله تعالى في سورة الرعد التي احتوت على آية من آيتي التغيير ظهوراً جليّاً دائماً، قال تعالى في تمثيل هذه الحالة:"أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ"(الرعد١٧)، فتكون الخاتمة والنتيجة بتحقيق سنة الله تعالى ووعده كما تحقق في السابقين، فقال تعالى: "وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ"(القصص٥)، وهذه الآية دليل على أن التمكين هو أن يجعل الله تعالى لعباده المتقين ما في الأرض لأداء أمانة الله تعالى، فهم استحقوا ذلك لأنهم أحسنوا في حفظ أمانة الله التي كلّف الإنسان بها، والتي أبت السماوات والأرض أن تحملها لعظمها، والتي هيّأ الله تعالى الإنسان بكافة استعداداته للقيام بأدائها على أكمل وجه، وليكونوا حافظين للميراث الذي مكّنهم الله به في الدنيا ابتلاء واختباراً.

وخلاصة القول: إن التمكين في الأرض هو التغيير الإنساني للأمة المتحقق بفعل الله ووعده، وهو صبغ الحياة الإنسانية بصبغة الله تعالى عند قيام الأفعال الإنسانية حسب مقتضيات المنهج الإلهي في القرآن الكريم، وإن تحقق فعل الإنسان بتغيير ما في نفسه على مستوى الفرد والجماعة، يكون ذلك بالالتزام بمنهج الله كما يريد الله، فبالقرآن يكون تغيير الإنسانية جمعاء من سيادة الباطل إلى سيادة الحق، وتغيير حالة الانحطاط والدنوّ، ليسود مكانها حالُ الرفعة والسموّ، وتغيير حالة الهزيمة والذل والانهيار ليقوم محلَّها العزّة بالانتصار، ويتبدل الخوف أمناً لتَمَكُّنِ دين الله تعالى في

الأرض، فلا خوف من ظلم ظالم، ولا رهبة من جور جائر، فتتحقق العبودية لله وحده، ويتحقق التوحيد عندها بمسمى الغاية الأسمى في الأمة والجماعة، ليعود كل شيء لله كما بدأ من الله جل جلاله، فتتوحد الجماعة نحو توجيه العبودية لله وحده، وبها يصبح نظام سير الإنسانية موافقاً لمرضاة الله تعالى، والأمة تعكس طبيعة دينها، ولون صفاء كتابها، فقل تعالى:"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ"(**البقرة١٣٨**).

الفصل الثاني: أسس المنهج القرآني للتغيير الفردي:

*- المبحث الأول: أسس المنهج القرآني في التغيير الجوهري للفرد:

- المطلب الأول: قواعد بناء التفكير المنهجي:

*- أولاً: إرساء قواعد التفكير المنهجي التخلية الفكرية.

*- ثانياً: توجيه التفكير لإقامة البناء الفكريّ السليم.

- المطلب الثاني: قواعد بناء التصورات السليمة عن الذات الإلهية:

- القاعدة الأولى: قيام الأساس العقدي على أساس عدم الإكراه في الدين.

- القاعدة الثانية: بناء التصورّ الاعتقادي السليم عن الذات الإلهية.

*- المبحث الثاني: الأسس القرآنية الارتقائية لإحداث للتغيير الفردي:

- المطلب الأول: أسس المنهج القرآنيّ الارتقائية للتغيير الفردي.

- المطلب الثاني: أسس القرآن لارتقاء التغيير إلى الكمال الإنساني النسبيّ.

المبحث الأول: أسس المنهج القرآني في التغيير الجوهري([1]) للفرد

يتشكل منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي- بشكل عام- من سُلَّم أسس لها أولويات متنوعة، يستلزم بعضها بعضاً، وتتدرج في الصعود الفكري للإنسان والاعتقادي والأخلاقي والسلوكي، منتهياً -المنهج- بارتقائها إلى أعلى الدرجات الموصلة إلى أفضل العمل المكمّل لجمال صنعة الإنسان بحسن عمله، حتى يوصلها إلى حد يسمى بالكمال الإنسانيّ النسبيّ([2]).

ولقد ركّز القرآن الكريم على قضيّة البناء التأسيسيّ لجوهر الفرد المتمثل بعقيدته، وجعلها قاعدة لما يلحقها من مراحل ومقياساً أوّلياً، فمن الآيات التي تبيّن أهمية الأسس ما جاء في سورة التوبة عندما جاءت المقارنة بين مسجدين([3]) فقال الله تعالى:"أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (التوبة١٠٩)،

([1]) وجوهر الشيء: أصله وكنهه، وأصل النفس في عقيدتها، والأسس الجوهرية أي الأسس الأصيلة (العقيدة) التي تنتطلق منها باقي الأسس في المنهج، أماالارتقاء زيادة على الأصل، أي زيادة على أصل الاعتقاد عند القيام بأداء الحقوق والواجبات بانعكاس الاعتقاد على السلوك، والزيادة على ذلك مع الحفاظ على الأصل هو سبيل تحقيق ما يسمى بكمال الالتزام، والذي قُصد من مصطلح الكمال الإنسانيّ النسبيّ، أي نسبة الإلزام هي المحدد للكمال.

(٢) سيتم التعريف بالمقصود من الكمال الإنساني النسبي في المبحث الثالث من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

([3]) جاءت الآية في سياق الحديث عن المنافقين يوم عملوا على بناء مسجد بهدف الإضرار بالمسلمين، وسمّي بمسجد ضرار، فأظهر الله مكرهم فأنزل فيهم: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" التوبة:١٠٧، واختلف العلماء في تحديد المسجد الذي بني على التقوى من الله، فمنهم من يقول أنه مسجد قباء، ومنهم من يقول أنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

فأصل أسس:" بنى بيته على أساسه الأول"(١)، "فالتأسيس وضع الأساس وهو أصل البناء وأوله...ويستعمل بمعنى الإحكام"(٢)، والأساس عبارة عن "القاعدةُ التي يبنى عليها الشيءُ"(٣). يقول الآلوسي: "أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة هي التقوى وطلب الرضا بالطاعة خير، أم من أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، فأدى به ذلك لخوره وقلة استمساكه إلى السقوط في النار"(٤).

وعلى ما سبق فإن المقصود من مفهوم **التغيير الجوهريّ** هو: المرحلة التكوينيّة واللبنة الأوّليّة القائمة على التحول والاستبدال من كل ما هو سلبيّ إلى كل ما هو إيجابيّ، كالتحول من الشر إلى الخير، ويكون باستبدال الجهل إلى العلم، والتفكير السقيم والعشوائي والمنحرف إلى التفكير السليم المستقيم المنهجي، والاعتقاد الخاطئ إلى الاعتقاد السليم، المترتب عليه إحلال الخُلُق الحسن محل الخُلُق السيئ، وهذه المرحلة عبارة عن قواعد يقوم عليها البناء القرآني في البناء الداخليّ للنفس، والارتقاء يكون في البناء الخارجي للسلوك، فيكون البناء الداخليّ مستنداً لكل مراحل حياة الفرد

---

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت٥٣٨هـ)، **أساس البلاغة**، قراءة وضبط محمد نبيل، دار صادر، ط١- ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٧.

(٢) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق، مجلد ٤، ج٥- ص٢٢.

(٣)ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي(ت٨٨٠هـ)، **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق وتعليق عادل عبد الموجود ومحمد عوض، وشارك في التحقيق محمد سعد حسن ومحمد الدسوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢١١.

(٤)الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق، ص٣٢.

العلْمية والعمَلية، وهي مرحلة إعادة تنظيم الفرد وبنائه في تصوره لله تعالى، ولقد تكفَّل القرآن بتحقيقها فقال الله تعالى: "يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(المائدة١٥- ١٦)، "وكون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل، ويميز به بين الهدى والضلال، والحسن والقبيح"(١). وتقوم أسس **التغيير الجوهري** على ما يلي:

المطلب الأول: الأساس الفكري المنهجي:

إنَّ في أهميّة وجود الأساس الفكري بمنهجيّة سليمة دور مهمٌّ في عمليّة التغيير، كأهميّة الجذر للنبتة، فهو المغذّي الأساسي لعمليّة التغيير الفردي بكل جوانبه، والإنساني بكل مراحله، والعامل الرئيسي في تحقيق الثبات والانضباط لهذه العملية– التغيير– وفق منهج القرآن الكريم لا تخرج عنه، كي لا تُجتث عملية التغيير من أساسها ولا تضطرب في عملها، فعملية التغيير عملية معرفيّة في أصلها، تقوم على تغيير المعارف والمدركات التي تستند إليها النفس في إصدار سلوكها لباقي أعضاء الجسد حسب ما عندها من معطيات، والفكرة "قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم"(٢)،"والتفكير إعمال العقل في مشكلة ما للتوصل إلى حلها"(٣)، فهو متعلق بإحداث خبرة الإنسان بإيجاد الفرضيات المتنوّعة في الخروج بقرار مناسب للموقف المثير لمشكلة ما، من خلال

---

(١) الشنقيطي، محمد أمين بن محمد المختار(ت١٣٩٣هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ص١٥١٥.

(٢) الأصفهاني، الراغب(ت٤٢٥هـ)، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، دمشق/ ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٦٤٣.

(٣) إبراهيم مصطفى، **المعجم الوسيط**، قام بإخراجه إبراهيم أنيس وآخرون، بإشراف حسن عطية، محمد شوقي، دار الأمواج، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص٦٩٨.

التعامل مع عدّة أفكار، والتفكّر"هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء"([1]) أو هو"تردُّدُ القَلْب في الشَّيء"([2]) خلال عملية إيجاد الحل، حيث إنه لا يقال إلا فيما له صورة في القلب([3])، لأنه شامل "للجوانب العاطفية والانفعالية والإدراكيّة، أي يشمل كل أنشطة الإنسان النفسيّة والمعرفيّة والروحية"([4])، وبما أن معنى المنهج هو الطريقة([5])، فإن قيام الأساس الفكري يكون بإيجاد طريقة التفكير السليم والقويم والمنطلق من أسس منطقيّة ومبادئ سليمة ثابتة، وهو ما يسمى **بالتفكير المنهجيّ**، فمن ملك الطريقة السليمة وصل إلى الحقيقة الخالصة، وبهذا يتكوّن الفكر، فهو:" فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها"([6]).

إن من أهم القضايا التي اعتنى بها المنهج القرآنيّ هي توجيه الأساس الفكري وجهة سليمة باعتبار هذا الأساس مرحلة التهيئة النفسية للفرد، القابلة لتشكيل أسس العقيدة عنده، من خلال ما جاء القرآن الكريم، خالصة عما سواه، وتفعيل الجانب الفكري في كل الأمور ينمّي "العقل المقياس القادر على إدراك علل الأشياء..، والقادر على التمييز بين الوسائل والغايات، وحِكم

---

(١) الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسني(ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٦٧.

(٢) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا(ت٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني، ص ٣٢٨.

(٣) انظر: الخازن ، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي البغدادي(ت٧٢٥)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، مصدر سابق، ج١- ص٣٣٢.

(٤) بدري، مالك، التفكر من المشاهدة إلى الشهود، **المعهد العالمي للفكر الإسلامي**، واشنطن، ١٩٩١م، ص٣١.

(٥) كما مرّ في مطلب تعريف المنهج لغة واصطلاحاً.

(٦)الأصفهاني، الراغب(ت٤٢٥هـ)، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، ص٦٤٣.

التشريع..."([1])، كما أن الجانب الفكري يُعتبر القناة التي تصل كل مراحل التغيير وجوانبه وأسسه بعضها بعض، فإذا تحققت المنهجية فيه فإن الانضباط في مصارف هذه القناة "يفتح للإنسان أبواباً من العلم بالله تعالى وسننه التي لا نهاية لها"([2])، حيث إنه يعمل على إعادة بناء الأفكار، ويوصل إلى تأسيس الأصول الدينية والحياتية من خلال تشكيل التفكير الشامل بدل الجزئي، ليصبح العقل الإنساني عقلاً بيانيّاً "قادراً على تحقيق الانسجام، وتقدير الحجوم والأبعاد، وترتيب الأولويات، والتمييز بين الأمراض والأعراض"([3]) في أكثر من مجال، فيجعل من تفاعل الإنسان بكل ما حوله سبيلاً لتقدّمه وارتقائه، كما يعمل- الجانب الفكري- على التدريب الفكريّ، والتفعيل العقلي في الفصل بين الأمور المتشابهات، والربط بين المختلفات، لينتج عن هذان التدريب والتفعيل قواعد التمييز بين الحق والباطل، والفصل بينهما، وقد جاء التنبيه على قضية الخلط والنهي عن اللبس في الآية قوله تعالى:"وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"(البقرة٤٢)؛ لأن اللبس في أصله "يدلُّ على مخالَطَة ومداخَلة"([4])، وسبب المخالطة والمداخلة عدم التمييز الدقيق بين الأمور، الأمور، وعدم التمييز راجع إلى خلل في التفكر، تشويش في التفكير، مما يكفل أن يقف ذلك اللبس عائقاً أما سير عملية التغيير في نفس الفرد.

---

(١) خليل، عماد الدين، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ص١٢-١٣بتصرف.

(٢) رضا، محمد رشيد بن علي (المتوفى : ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م)، **تفسير القرآن الحكيم المشهور بالمنار**، خرج أحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤- ص١٩٦.

(٣) خليل، عماد الدين، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، ص١٢.

(٤) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص ٤٦٩.

إن قضيّة التفعيل الفكري تتم من خلال استثارة التفكير وتنبيهه وتحفيزه، وهي كلها عمليات "داخليّة نفسيّة، تقوم من خلال استثارة وتنشيط داخلي أو خارجي، بطريقة الاستمرار، لتحقيق تغيّرات داخلية في طبيعة الدافع(١)؛ لإعادة التنظيم الإدراكي الذي ينتج عنه تنظيم السلوك"(٢).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المرحلة التأسيسيّة هي مرحلة تشمل تغيير الفرد بإيجاد أصول الدين عنده، مع وجود التأسيس لتفريعاته، وطريقة إيجاد أصوله وفروعه لا يمكن فصلها لوجود التلازم الوثيق بينهما، فلا ينفك وجود أحدها عن الآخر، بل إن كل أصل جديد يبنيه المنهج القرآني يكون نتاجاً لما سبق من أصول، لذا فإن التدرج فيها تدرج تداخليّ يقوم على إدراج لفكرة كليّة تنبني على فكرة كليّة أخرى سبقتها، فالتذكير بسابقتها تذكير لما انبنت عليه، مما يحقق إعمالاً للعقل في إيجاد الرابط بين أصول الدين وفروعه، وهكذا إلى أن يقوم أساس البناء القرآنيّ متكامل الجوانب، مترابط الأسس، ينبني بعضه على بعض، لا ينفك ولا ينفصل، وبناء على ذلك يتحقق نفي التعارض بينها، فيكون من وظائف البناء الفكري تنظيم الأصول العقدية تنظيماً دقيقاً مراعياً الأولويات في الاعتبار. وقد نهج القرآن في تحقيق المنهجية الفكرية ما يلي:

<u>أولها: تقرير العجز الفكري والسلوكي لتصفية العقل مسببات الانحراف وتخلية النفس من العناد:</u> لقد جاء القرآن الكريم ليبني إنساناً متوازناً، قادراً على القيام بأعباء الخلافة، ولم يكن ذلك قد تحقق في عصر الجاهلية لوجود المشكلات بكثرة في جوانب الإنسانية، فلو فكّر إنسان ما في السؤال التالي: **<u>ما الأمر الذي يحرّك الرغبة في التغيير داخل النفس</u>**؟ لكان الجواب من جهتين:

---

(١) **الدافع:** أي ما يكون سبباً لقيام فعل ما، أو سلوك مسلك ما.

(٢) انظر: أبو حطب، فؤاد عبد اللطيف، وفؤاد عثمان مشارك، **التفكير دراسة نفسيّة**، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون رقم طبعة، سنة ١٩٧٢م ، ص١٠٢-١٠٤، بتصرف.

-**الجواب الأول:** إذا كان الإنسان مستسلماً بالحال التي هو عليها حتى وإن اقترن هذا الاستسلام بالسخط؛ فإن رغبته في التغيير تبقى مدفونة داخله لأنه لا حاجة لها خصوصاً إذا وُجِدَ من الصعوبات ما هو غنيٌّ عنها في حال حاول التغيير، وهذا هو حال العرب قبل مجيء القرآن الكريم، حياتهم تنقضي وهم يفرّون من الصعوبات لِمَا في عقولهم من تحجّر يجعل النفس واقفة دون السعي إلى ما يغيّرها، وهكذا تُجْتَثّ عملية التغيير من أساسها في النفس لشعور الإنسان بالعجز أمام نفسه، ولربما كان مسمى **النفوس الاستسلامية** هو ما يصوّر حال النفس في مواجهتها لأحداث الواقع.

- **الجواب الثاني:** ولما كان العجز النفسيّ لمواجهة الصعوبات حليف فئة من الناس، كان نزول القرآن معجزاً للناس ومذكّراً بقدرة الله الذي لا يُعجزه شيء سبيلاً لكسر حاجز العجز الذي استقرّ في نفوس الناس حينئذ؛ فالإنسان في طبيعته لا يتغيّر إلا إذا واجهه ما يستدعي ذلك، والأمر الذي يواجه الإنسان يكون عاملاً خارجيّاً يعمل كمثيرٍ لشعور الرغبة في التغيير من خلال العجز أمام هذا الأمر، فإذا كانت النفوس ذات الطابع الذي ذُكر في الجواب الأول أي **النفوس الاستسلامية** كانت نتيجة شعورها بالعجز أمام القرآن داعياً لاستسلامها للقرآن المعجز مباشرة؛ لأنه فاق الواقع في قيام العجز الفكري والسلوكي، دون محاولة منهم للمعارضة أو التحدي، أما إذا كانت من أصحاب **النفوس المعاندة** لهذا القرآن المعجِز فإن المحاولات ستكون متتابعة في إيجاد طريقة للتفوّق أمام ما أعجزها، وكلما زاد العجز عن التفوّق كلما زادت الرغبة في التوجه نحوه، وصار معها لهذا الكتاب المعجِز مكانه، وكلما كان له مكانة كان الاستسلام لما جاء به ألزم للنفوس، وأقوى حجة أمام المعاندين، وكلما لزم الاستسلام للقرآن كان وجوب التغيير بمنهجه أوجب.

ومن هنا: فإن الإنسان لا يتغيّر إلا إذا ابتدأ عملية التغيير بشعور الإنسان بوجود أمر أعجزه، فإما أن يقف منكسراً أمام هذا الأمر، وإما أن يقف متحدّياً لهذا الأمر، وكلما كان

التحدي قائماً كان الشعور بالعجز أمام القرآن الكريم مستمّراً، وهذا الشعور هو مثيرٌ للرغبة بالتوجه نحو كتاب الله رغبة أو رهبة.

لقد كان من الحكمة أن يقوم المنهج القرآني بالتأسيس للبناء الفكريّ، بمجيء كلمات الله التي لا يستطيع أحد الإتيان بمثلها، إذ أن محوَ الأفكار السقيمة الموجودة في العقول هو أساس البناء الفكري؛ لأن الأفكار السقيمة نتاج سوء التفكير، ونتاج المعتقدات الفاسدة التي رسّختها البيئة الفاسدة، وطَرْدها من العقول من أهم المراحل التي لابد أن توجد في بدايات التأسيس لأي أمر يراد تغييره.

لقد تدرج القرآن الكريم في تخلية العقول من الأفكار الفاسدة من خلال **التأكيد على ربانية المنهج القرآني، وقدسيّة القرآن الكريم وإعجازه، انطلاقاً من مبدأ"العجز عن درك الإدراك إدراك"(١) وكان هذا العجز النفسي (فكراً وسلوكاً) متحققاً بما يلي:**

١- التذكير بالشعور الفطريّ بالعجز عن قيام الإنسان بكامل أموره، ووجود ما يكمّل نقصه:

فوردت الآيات الكريمة تؤكّد على أن القرآن جاء من عند الله بالمنهج الهادي للفطرة، والموجه للإنسانية نحو الحق الإلهي، وأن هذا القرآن هو دليل صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فشعور الإنسان الفطري بالنقص الذاتي، ووجود ذات كاملة غَرست في النفس ذاك الشعور، وأن النفس البشرية لا تستطيع معرفة شيء ببداهة وتأكيد أكثر من معرفتها بوجود الله تعالى(٢)، ينشأ عنه شعور الإقرار والاعتراف بوجود عناية فوق العناية البشرية، تمتاز بالقدرة التي يعجز عنها الإنسان،

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق، المجلد الرابع، ج٥- ص١١٦، وقد نسب هذا قول لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) انظر: ديكارت، رينه، **تأمّلات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٦١م، ص١٦٢.

ولا بد من نهج موصل للاستدلال عليها، وعند الوصول إلى مرحلة العجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فإن النفس المطالَبة بالتغيير توقن أن ما جاء القرآن الكريم به هو الطريق الوحيد الموافق للشعور الفطري، والموصل لإكمال النقص الذاتي، فيؤدي إلى قيام **المكانة الخاصة** له، يقول عز وجل:"وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"(النمل٦)، فإذا لم يكن للقرآن مكانة في النفوس واعتبار فلا قيام لعملية التغيير به، إذ كيف يُحدَث التغيير بما لا اعتبار له في النفس؟ وكيف يتم التغيير فيما لا مكانة له فيها؟، فيكون وجود مكانة للقرآن في النفوس نابعاً عن التوافق والانسجام بينه وبين الفطرة، دليلاً تلقائيّاً على صدق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيما دعا إليه، وهذه المكانة الخاصّة لهذا الكتاب هي من أهم الأسباب للخضوع له، والانصياع لأوامره، قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"**(فصلت٤١)**، ووجه الدلالة في الآية العجب ممن كفر بهذا الكتاب العزيز الذي تشهد له النفس أنه لا يأتي إلا بما يوافق فطرتها، فكتاب له هذه المكانة التي تستسلم لها النفس استسلام الفطرة الصافية لما يهديها؛ لا يكون إلا داعياً للإيمان والاستسلام والانصياع لأمره، فتخلية الفكر باستمرار الشعور بالعجز يضمن التذكير بالعودة إلى الفطرة السليمة، وهذا التذكير أحد أسس البناء المنهجيّ للفكر الإنساني الذي من خلال يكون تغيير معتقدات الفرد.

٢-التحدي لضمان استمرار الشعور بالعجز: وللتحدي دور في التأكيد على العجز، وللعجز دور في تخلية الفكر الإنساني من انحرافات الشرك التي تراكمت مع مرور الزمن، وهذه التخلية سبيل لطرد أي فكرة تؤدي لوجود غير الله في اعتقاد الفرد، ولقد نطق القرآن الكريم بالتحدي بكل حرف من حروفه من خلال عدّة اتجاهات:

*- **الأول: التحدي بالإيجاد والخلق:** قال الله تعالى في سورة الحج:"يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"(الحج٧٣)، فمن لا يقدر على خلق أقل الكائنات لا يقتدر بداهة على خلق ما هو أعظم، لذا فإن خلق الإنسان مظهر من مظاهر التحدي القرآني، وكذا خلق السماوات والأرض، وسائر المخلوقات؛ ولذلك كان الاستدلال بها كآيات على وجود خالق عظيم لإقامة العجز الإنساني عن الإتيان بأقلها، فعدم قدرة الإنسان على الخلق يعني حاجته إلى الذي خلقه، وتوجيه هذه الحاجة إليه، وهذا التوجيه هو بداية التغيير في النفس، فقال تعالى:"وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ"(الجاثية٤)، لتنتهي سلسلة الاعترافات بالعجز للوصول إلى معرفة الله مقترنة بتأكيد شعور العجز في النفس، والقرآن يهدف إلى تغيير النفوس بتنقيتها من كل ما يخالطها من شرك بالله جل وعلا، أو اعتماد على غيره في كل حالات النفس، ومن هذه الوجهة كان للتحدي بالخلق دور في هداية النفوس إلى معرفة القادر على كل شيء جل وعلا، وتوحيده، وهذه الهداية هي تغيير لما في النفس.

*- **الثاني: التحدي الفكري**: لقد بيّن القرآن الكريم العجز عن الخلق والإيجاد وأقام الحجة على ذلك، وبما أن الإنسان هو المخلوق الأول من بين المخلوقات، وله من قدرة الكلام والتفكير والعقل واتخاذ القرار ما ليس لغيره، فما بال الإنسان القادر على التحدث ببلاغة القول وفصاحته عاجز عن قول كلمات ببلاغة القرآن الذي جاء بكلمات من كلماتهم، وما بال التفكير المستمر قد عجز عن صياغة نظم مثل نظمه، وهو قد نزل على قوم اعتقدوا أنهم وصلوا القمة في ذلك، ليأتي داحضاً ذاك الاعتقاد فيدركون أنهم لم يبلغوا شيئاُ من البلاغة والفصاحة أمام كلمات الله؟ ليدرك الإنسان عجْزاً آخر يجعل منه مسلوب القدرة الفكرية، والإقرار بعدم القدرة يصل إلى درجة كسر الاستعلاء النفسيّ لوجود من هو أعلى؟ فوجود العجز الفكريّ بكل ما تضمّن من مراحل هو أحد أهم مظاهر الإفراغ الفكري، وتخلية النفس من قناعات الجاهلية لإعادة تشكيل التفكير المنهجي السليم المغيّر لاعتقاد الفرد، قال تعالى:"وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ

شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"(البقرة٢٣-٢٤) "ففي قول الله: "... وَلَن تَفْعَلُواْ..." إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها"([1])، كما أشار الرافعيّ بأن "العقيدة قد محته– القرآن– من قانون التحوّل والتغيير وجعلته في ذلك قانوناً وحده"([2])، ليكون مغيّراً دون أن يتغيّر، ويكون القرآن في قمّة الثوابت المغيّرة للإنسانية كلها.

فالقرآن الكريم عندما يفرغ العقول من القدرة مع وجود المحاولات لمعارضته، واليقين بسلب قدرة الجوارح من العمل الحالي والمستقبليّ، بكامل العجز الإنساني، يحقق أمراً مفصليّاً بدايةً للتغيير وهو الاستسلام النفسيّ للفرد من عناد الكفر والضلال، وكسر الاستعلاء الكامن في النفس المانع من تغييرها، فينقاد – بعد معترك مع نفسه– مع فطرته السليمة التي تبدأ من الشعور بالنقص، وترغمه أن يبحث عن كل ما يحقق له– الإنسان– التقدم والارتقاء، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن يعتبر بداية لتحقيق الهدف المنهجيّ البيانيّ، وذلك هو أول الأمور الموجِّه نحو التغيير الفردي، والمقيمة لأسسه؛ حيث إنه عبارة عن عملية تحفيزّية باعثة لشعور الاستسلام النفسيّ للإنسان فرداً أو جماعة، وهذا الاستسلام يجعل لديه الاستعداد للانقياد للأوامر الربانية في القرآن الكريم، كما أن كثرة المحاولات للإتيان بمثل القرآن يعني محاولة الإحاطة بما جاء في القرآن، ومحاولة التعرّف على ما في القرآن الكريم سبيل أمثل ليستمع الإنسان لما جاء في القرآن، وإتاحة الفرصة أمام العقل أن يفكّر فيما يأمر به وينهى عنه، وهو سبيل لمعرفة النفس بالحق القادم فيه.

---

(١) القرطبي، عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون طبعة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٠١.

(٢) الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، تحقيق عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، المقدمة ص٩.

<u>ثانيها: توجيه التفكير توجيهاً منهجيّاً لإقامة البناء الفكريّ السليم:</u> لقد استخدم القرآن الكريم في إعداد جاهزيّة التفكير وتوجيهه للفرد للاعتقاد السليم عدّة قضايا أساسيّة، من أهمّها:

١- **استخدام الفرضيات العقلية لإيجاد القدرة على اتخاذ القرار المناسب السليم:** إنّ طريقة إيجاد الفرضيات، وإجراء المقارنات، والجمع بين مجموع الأفكار الخارجية، وإيجاد العلاقات من تناقض أو توافق، للخروج بصحّة أحد الفرضيات دون غيرها، سبيل لتخلية الفكر، وطريقة مهمة في إقامة البناء الفكريّ المنهجيّ، الذي بقيامه يعني اتخاذ القرارات المناسبة مع منهج القرآن الكريم.

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة في بناء قواعده وأسسه العقدية، فمثلاً عند تثبيت فكرة إعجاز القرآن يقول الله تعالى:"أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً"(النساء٨٢)، فافتراض أن القرآن ليس من عند الله يؤدي إلى النتيجة وجود اختلاف كثير أي لن يجدوا القرآن بما فيه كما هو، فهذا كفيل لإعطاء القرآن الكريم المكانة الخاصّة في النفس لتخليتها من أي مؤثر على قراراتها، أما في فكرة وحدانية الله تعالى قال:"لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنبياء٢٢)، افتراض لو أن هناك أكثر من إله غير الله يؤدي إلى نتيجة ظهور الفساد، وهذه الفرضيّة موصلة لتغيير النفس من الشرك إلى الوحدانية لله وحده.

إن التفكير باستخدام الافتراضات يؤدي إلى قيام عملية التفكير بمقارنة بين مجموع الأفكار السقيمة المترسبة في عقل الإنسان، ومقارنتها بالأفكار السليمة التي أتى بها القرآن، والمقارنة بينهما تُنتج خروجاً بنتائج صحيحة، وقرار سليم، وكلها تنتهي بالاستجابة للحق الذي يقبله المنطق العقليّ، وبهذا يكون للتفكير الفرضيّ دورٌ هامّ في تحريك التغيير نحو الاستجابة للقرآن الكريم من خلال المقارنة بين الحق والباطل مقارنة منطقيّة منهجيّة.

٢- **تشكيل منهج البحث الكيفي:** ويكون من خلال توجيه التفكير نحو كيفية الحدث وسببه لا الحدث نفسه، حيث تعتبر هذه المرحلة من التفكير ذات أهميّة لإيجاد التحوّل الفكري والعقدي

والأخلاقي عند الفرد، فهي تُعمل القدرة على التوصل للمسبِّبات من خلال التفكير في كيفية الأسباب، ورد كل الأمور العظيمة إلى مسببها وهو الله، لدحض شعار التقليد الفكري، والتحجر العقلي، ولإيجاد عقلية ناقدة ذات منهجيّة استفهاميّة قائمة على أسس التفكير المستقيم، فعندما يردد الإنسان قول الله تعالى:"اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"(الفاتحة٦) معناه "عرفنا يا إلهنا ما في كل شيء من كيفية دلالته على ذاتك وصفاتك وقدرتك وعلمك"(١).

إنَّ التفكير في الكيفية موقظ لملكة التمييز والتفريق، ومحفّز لموهبة الربط الدقيق بين المعلومات، وترتيبها تحت أصل واحد، لإيجاد ميزان حكميّ سليم على الأمور، وكذلك الأحداث والمعلومات والأشخاص، فمعرفة الإنسان لكيفية الأحداث تؤدي به إلى معرفة أسبابها، وطريقة الحياة ومعناها، ومتطلبات الاعتقاد السليم، وإقامة القرار السليم القائم على اعتبار ما يقدر الإنسان عليه وما يعجز عنه، وبهذا يتقدم الإنسان نحو تحقيق التوازن الفكري والسلوكي، وهذا كله نقلة من نقلات التغيير لما في النفس.

إن لهذه الوجهة من التفكير أصولاً قرآنية، فللقصة القرآنية دلالات على التفكير في الكيفيّة؛ لإحداث التحوّل الفكري عن طريق التبيّن، الذي بدوره يحقق العلم الموصل إلى اليقين المستقر في النفس، وهذا العلم كفيل لتغيير النفس إلى ما أراد الله تعالى في كتابه.

فمما ورد في سورة البقرة عن قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ما دلل على قدرة الله تعالى على الإيجاد والبعث عندما يتأمّل الإنسان في **كيفية الإيجاد**، حيث إن البحث الكيفي سبيل هامّ لتحقيق الهدف البياني في الاكتساب والتوجيه، كما قال تعالى:"...وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(البقرة٢٥)، فقوله فلما **(فَلَمَّا تَبَيَّنَ)** دليل على

(١) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، **تفسير مفاتيح الغيب**، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، المجلد الأول، ص٢١٨.

أنه عندما عرف الكيف وصل إلى البيان، وعندما وصل إلى البيان وصل إلى إقرار نفسيّ بضرورة الإيمان، وهذا القرار هو تغيير لما في النفس.

ولقد أدرك إبراهيم عليه السلام أهمية وجود دعامة التفكير في الكيفية كمنهجيّة سليمة لبناء الأسس العقلية، وتدريب العقل على إيجاد الحلول للمشكلات الحياتية، ومدى فاعليته في تثبيت دعائم الإيمان إلى درجة ارتقائها حتى الوصول إلى الاطمئنان، ولقد دعا ربه أن يرى كيفية إحياء الموتى، وجاء قوله تعالى مبيّناً ذلك:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..." (البقرة٢٦٠)، وفي هذه القضية ملمح هامّ وهو أن تبيّن الإنسان من أمر ما هو السبيل لتغيير نفسه حتى تصل إلى الاطمئنان القلبي والإيمان اليقيني، وهذا من مقاصد البيان القرآني، وهو إيصال النفس المأمورة بالتغيير إلى الإيمان اليقيني من خلال الاطمئنان القلبي الناشئ عن التبيّن من الأمور والتبصّر في الحقائق، وهو دليل على وجود قاعدة عدم **الإكراه في الدين**، وأيضاً دليل على وجود **كامل الإرادة للإنسان في اختيار** طريقه، وهي من أهم الأمور المقيمة لدعائم الاعتقاد، والمنظمة للعلاقة بين العبد وربه على الطواعية.

كما أن البحث في كيفية نشأة الخلق وإعادته، وكيفية وجود المخلوقات التي سُخّرت للإنسان، وكيفية الأحداث الكونية..إلخ، كلها دلالات واضحات على ضرورة إنشاء منهجيّة التفكير من خلال الاستفهام الكيفيّ في الحقائق والأحداث، لتغيير ما في النفس تغييراً سليماً، يبدأ من بناء الفكر على استقبال تعاليم القرآن الكريم، فقوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"

(العنكبوت١٩-٢٠)([1]) دلالة على أن النظر في كيفية بداية الخلق وإعادته استدلال على قدرة الله تعالى المطلقة، وفي مقابلها عجز الإنسان المطلق، وهذا يولد شعور الإجلال والانصياع للقدير الذي لا يُعجزه شيء، ووجود الرغبة في التوجه إلى من مَلَكَ المُلْك بالطاعة والاستسلام.

فكل الآيات السابقة أدلة على التفكير الكيفي الذي يسهم في البحث المستمر المنضبط –بالمنهج القرآنيّ– لموجد الخلق، وإذا توصل الإنسان إلى معرفته معرفة سليمة خالية مما تسرّب إلى العقل من أسباب الانحراف الفكريّ في الاعتقاد؛ بدأ تأسيس العقيدة القرآنية عندها، وبدأ معه تغيير الإنسان وتوجيهه نحو الإقرار بعبوديته لله تعالى، فبإعطاء العقل المجال للبحث والتنقيب في إيجاد العلاقة بين الإنسان والكون والحياة؛ لإنشاء التصور الذاتي العملي، حيث يتسنّى للعقل البشري تنظيم الجزئيات المعلوماتية الواردة، وترتيبها حسب مقتضيات هذا التصوّر عن قدرة الخالق لإيجاد الخلق، مع مراعاة التمييز بين المعلومات صحيحها وسقيمها، فالبحث الكيفيّ يعني عدم التوصل السريع واليسير للمعلومات التي تقيم دعائم الاعتقاد؛ لأن السرعة في التوصل للمعلومات المعرفية يؤدي إلى عدم استقرارها في النفس، وهذا يقتضي نسيانها، مما يؤدي إلى عدم استمرار نتاج التفكير المنهجي كدعامة من دعائم التغيير؛ بسبب تشتيته للنفس، فالتفكير هو المغذي الأول لقيام الأسس الأخرى، والرابط بينها، وعدم انتظامه يؤدي إلى تجميد عملية التغيير بسبب عدم وصول الفائدة من الأساس المحرك لعملية التغيير وهو **(التفكير)**، حيث يكون سبب هذا التعطيل انتفاء التكامل في عمل استعدادات الإنسان المعرفية، وانتفاء انسجامها أيضاً.

([1]) والآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: "أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"(الغاشية١٧)، ففيها دلالات للتفكر في كيفيّة خلق هذا الكائن، ليرى الإنسان من كمال قدرة الله في الخلق، وقوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا"(الفرقان٤٥) دلالة في التفكير في كيفية هذه الظاهرة.

كما أن للتفكير الكيفيّ منهجاً تربويّاً واقعيّاً تغييريّاً، فيوجّه القرآن الكريم الإنسان للنظر المتأمل في كيفية عقاب من استحق العقاب، وإثابة من استحقّ الثواب، وذلك لمعرفة سنن الله تعالى الجارية في الإنسانية، والتي تشكّل الدور التربوي في التحفيز النفسي للفرار من مسببات العقاب، فجاء القرآن بلفت النظر إلى كيفية العقاب في آيات كثير منها قوله تعالى: "وَسَكَنتُمْ فِي مَسَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ"(إبراهيم٤٥)؛ فالنظر في الكيفية له دور أساسي في الاقتناع العقلي بما جاء في القرآن؛ لأنه-البحث الكيفي- بحث شامل لمعارف كثير؛ منها الوصول إلى زيادة المعارف في الحياة، والبحث في الأسباب، وعندها يقرر الإنسان طريقه بالإيمان أو الكفر والانتماء لواحدة من الزمرتين.

والخلاصة: إن نتاج البناء الفكريّ السليم المتمثّل فيما يلي:

- **إرساء قواعد التفكير المنهجيّ من إفراغ للعقول بإظهار عجزها.**

- **وإيجاد قدرة التفكير المنهجي السليم باستخدام الفرضيات العقلية، وتوجيه التفكير نحو كيفية الأحداث وأسبابها.**

يشكّل الفكر المستعد للاستقبال والمعالجة السليمين دوراً هامّا في عملية التغيير، حيث إن اجتماع سلامة الأمرين يؤدي إلى ضمان سلامة تشكيل البناء العقدي المحكم لأصول الدين، كجذر متين لا يجتث في نفس الإنسان، وهذا البناء يكون على نحوٍ يستدعي النهوض بالفرد من الحضيض الإنساني وظلمات الجهل والشرك، متوجّهاً به ضمن أسس إلزاميّة ارتقائيّة نحو النور المتمثل بالسمو والرفعة الإنسانيّة الأساسيّة، لينتقل الإنسان بعد الالتزام الداخليّ إلى دائرة الالتزام الخارجيّ في سلوكه ليكون هذا السلوك انعكاساً عن عقيدته بُنيت بالمنهج الرباني، في وجهة عليا إلى تحقيق الكمال الإنسانيّ كما يمثله المنهج القرآنيّ في التغيير.

المطلب الثاني: قواعد بناء التصور الاعتقادي السليم عن الذات الإلهية

إن بناء العقيدة السليمة في النفس الإنسانية هو الأساس الأهم في التغيير الفردي؛ فلا بد للإنسان أن يَعْرِف الآمر قبل أن يَعْرِف الأمر، كما لا بد له من أن يكون هذا البناء العقدي منضبطاً بالمنهج القرآني، أي أن يُبنى بالطريقة التي وردت في القرآن دون تأثّر بأي مؤثّر، أي وجود أي معلومة مدسوسة من فئة أو جهة، فللبحث في الأسس العقدية ناحيتين:" إحداها إلهية والأخرى إنسانية، **فالإلهية قوامها** معرفة حق الله تعالى في أن يُعرف على الوجه الصحيح بتصوّر سليم عن ذاته، **والناحية الإنسانية** تقوم على رفع مستوى الإنسان ليؤدي وظيفته في الوجود، أي الارتقاء به على نحو يتفق مع شرف نسبه وأصل خلقته"([١])، بحيث ترتبط الناحية الثانية بالأولى ارتباط الفرع بالأصل لتكون الأولى قوامها، "فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني"([٢])، فمعرفة الله تعالى تكون من خلال معرفة آياته القرآنية، أو آياته الفعلية في الخَلْق، أو آياته الفعلية في أحوال العباد، ومعرفة أيٍّ منها يفضي إلى معرفة الأمور الأخرى لوجود العلاقة الوثيقة بينها.

لقد بدأ القرآن الكريم عند تغيير عقيدة الفرد من "الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود، ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، مع العناية الخاصة بالإنسان كخليفة في هذه الأرض، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهيّة التي صدر عنها"([٣])، ليشمل تصوّره دقائق الكون والإنسان والحياة مبتدءاً ومنتهىً.

---

(١) الغزالي، محمد، **كيف نفهم الإسلام**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١١٢-١١٣ بتصرف.

(٢) قطب، سيّد، **خصائص التصوّر الإسلاميّ ومقوماته**، بدون دار نشر، ط٢، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، ص٤.

(٣) قطب، محمد، **منهج الفن الإسلامي**، دار الشروق، ط٦، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص١٦، بتصرف.

كما أرسى القرآن الكريم القواعد الأساسية في بناء تصوّر سليم عن الذات الإلهية المستحقة للعبادة والتوحيد، واستخدم لذلك الأساليب المتنوّعة بهدف التوصل لتحقيق الهدف البيانيّ في هذه القضيّة، وسعى لتقويم نفس الفرد متصلاً بكل لحظاته بجذور عقيدة متينة، بالاتصال أمره كله بإله أول كل شيء وآخره، حيث لابد من الاعتصام بحبل الله المتين ليتحقق وعد الله بالجزاء والنعيم، قال تعالى:" فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً"(النساء١٧٥). ويحتوي هذا الأساس **البنائي لعقيدة التوحيد** على عدّة قواعد مرحليّة منها:

القاعدة الأولى: عدم إكراه الإنسان على التغيير العقدي(التغيير الطوعي):

إن بناء الدين على قاعدة عدم الإكراه أو الإجبار يحمل أبعاداً تغييريّة في حياة الفرد تمتاز بانها طويلة المدى، وينبني عليها اعتبارات تجعل من الثبات على عقيدة القرآن الكريم الواردة في منهجه أمراً محتّماً، كما أن أول المسؤوليات التي يتحمّل الفرد نتيجتها في عملية تغيير النفس هي الاختيار للعقيدة السليمة بعد **تحقق البيان الإلهيّ** بالقرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة، حيث إن الاختيار الطوعي يعني الالتزام الطوعي لتعليمات المنهج القرآني، فقال تعالى:"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"(البقرة٢٥٦)، فقوله تعالى:"قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" دليل على تحقق الهدف البياني الذي يحتّم على الإنسان أن يتغيّر نحو منهج الله تعالى الذي امتاز بالرشد، وقوله:"فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى" أي أن من أخذ التغيير منه مأخذاً فقد وصل كل أموره بعقيدته التي امتازت بأنها العروة الوثقى، يقول الرازي في معنى **العروة**(١) **الوثقى**:"العروة عبارة عن الشيء الذي يتعلق به والوثقى تأنيث الأوثق، وهذا من باب استعارة المحسوس للمعقول؛ لأن من أراد إمساك شيء يتعلق بعروته، فكذا هاهنا من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه، ولما كانت دلائل

---

(١) مرّ سابقاً معنى العروة في التمهيد عند التعليق على الحديث: "ليُنقضنّ الإسلام عروة عروة".

الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها، لا جرم وصفها بأنها العروة الوثقى"([1])، وهذه العروة تمتاز بأن لا انفصام لها أي لا انقطاع يشوبها ما دام الإنسان مستمسكاً بها، فالاستمساك بعروة الدين كواعية تضمن اتصال "العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله"([2])، وإذا كان باعث العمل متصل بالله فقد اتصلت أعمال الفرد كلها بعقيدته، وعندها يتحقق التغيير الفردي في تحقيق التوحيد الخارج من أعماق النفس الإنسانية.

وقد جاء التصريح القرآنيّ بهذه القاعدة في سورة مدنية، وهذا لا يمنع من وجود المبدأ في العهد المكي، من خلال التطبيق قبل التصريح، فقد نزلت الآية بعد أن قام الإسلام عليها، فلم يُذكر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد عمل على إكراه أحد لدخول الإسلام عمليّاً، وهذا دليل على قيام الدين على هذا المبدأ منذ بدايته.

ولقد بيّن القرآن الكريم بالغ العجب من عدم توجه الناس إلى منهج الله تعالى، فقد أعطاهم الإرادة والاختيار بعد أن تبيّنوا بأنفسهم أن التغيير إلى منهج الله هو الحق بعينه دون أدنى شك أو ريب، فقال تعالى: "أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"(آل عمران٨٣)، "والهمزة في:(أفغير) للإنكار والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض "([3])، فقد كان من تكريم الله تعالى لهذا الإنسان أن جعله يختار المنهج الذي يضمن له السعادة بعد معرفته.

ويترتب على قيام الدين على هذا الأساس عدّة اعتبارات:

١-اعتبارات نفسية: حيث تقوم عقيدة الفرد على أساس الرغبة لا الرهبة، تمهيداً لارتقاء إيمانه وزيادته، وتحقيقاً لتفعيل الالتزام الذاتيّ عنده، فهو بمثابة تعاقد مبنيّ على رضا الطرفين، لقيام تجارة

([1]) الرازي، التفسير الكبير، ج – ص.، سورة البقرة ٢٥٦.

([2]) قطب، سيّد، في ظلال القرآن، ج ٤– ص٢٠٩٤.

(٣) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي(ت ٧٤٥هـ)، **تفسير البحر المحيط**، ج٢– ص٥٣٧.

لن تبور، لضمان النجاة والسعادة، قال تعالى:"يَأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"(**الصف١٠-١١**)، فيكون قيام الدين بالنسبة للفرد على أساس تحمّل مسؤولية اختياره، ويكون الدين مغيّراً للنفس بتفعيل الإرادة في اتخاذ القرار من أول خطوة في اتباع منهجه، مقترناً بالشعور بالمسؤولية.

٢-<u>الاعتبارات السلوكيّة:</u> وتعني خروج ما بني على طيب النفس بطيب النتاج، وبما أن السلوك نتاج النفس فيكون ما بني على اعتبار الرضا النفسي، والاختيار الطوعيّ منتجاً للسلوك الطيّب الدائم، قال تعالى: "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ"(الأعراف٥٨)، فدخول الفرد في الدين هو لحظة التغيير المبنيّ على الرضا النفسيّ بالهدي القرآنيّ المنتج لطيب القول والعمل الأخلاقيّ:"وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ"(**الحج٢٤**).

<u>القاعدة الثانية: البناء المنهجيّ للتصوّر الاعتقاديّ السليم عن الله تعالى:</u>

التصوّر هو النظرة الشاملة([1])، و"فعل التصوّر هو حصول صورة الشيء في العقل، أو إدراك ماهية الشيء، من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات"([2])، ويكون تشكيل هذا التصوّر مرتبطاً باستحضار الصور الحسية، فهو درجة الانتقال من الحس إلى العقل، وهو نهاية عملية التفكير.

إن ما في الواقع الحاليّ بما فيه من انقسامات نتيجة الانحرافات الفكرية على المستويات الفردية والجماعية كافة، من أكثر سبل الانحراف الذي يدسّ الانحراف العقدي في النفس الإنسانية بدسّ الأفكار السقيمة والخاطئة لتنتج تصوراً خاطئاً، وهذا ما جعل لأعداء الدين مدخلاً فسيحاً للتغيير ضد منهج الله تعالى، وهو الوسيلة التي تعتبر كسلاح لإحياء الانحراف المسبب للفرقة في

---

(١) مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**، ص٤٥.

(٢) الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، ص١٩٧.

الاعتقاد، إلا أن حفظ سلامة المنهج الرباني المتمثل بحفظ القرآن من التحريف والتبديل، هو السبيل الوحيد في تعديل مسيرة العقيدة في نفوس الأفراد والجماعات وضبطها وفق المنهج القرآنيّ القويم، فهو المنهج المغيِّر المحفوظ من التغيير، الحافظ للعقيدة السليمة والتصوّر السليم عن الله عزّ وجل، وقد غيّر القرآن التصور عن الذات الإلهية (**الله**) من خلال عمليات تصحيحيّة وبنائية، وعلى ذلك التغيير العقدي كان قيام السلوك الإنساني منضبطاً بما ورد في الآيات البيّنات في كتاب الله تعالى، "ولقد أبدى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه تخوفه مما وقع فيه الناس اليوم... فقال: ستنقض عرى الإسلام عروة عروة"([١])، قيل وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: " إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية "([٢]) أو كما قال.

ويقوم بناء التصور الاعتقادي السليم على تصحيح التصوّر عن الله تعالى، وتخلية العقول مما ترسب إليها من انحرافات تؤدي بالإنسان إلى الشرك والضلال، وهذه الانحرافات المترسبة مصدرها ما ورد إلى الأمة من اليهودية أو النصرانية أو الحضارات الأخرى.

إن العملية التصحيحية في هذا الجانب هي من صلب موضوع التغيير في القرآن الكريم؛ لأن هدفها تعديل التصوّر للفئة التي تعرف الله تعالى ولكن معرفة منحرفة تنتج سلوكاً منحرفاً، فقد هدفت الآيات القرآنية في كثير من المواضع إلى تصحيح مقدمات ينبني عليها قيام التصوّر السليم عن الله جل وعلا، ورفض الخلط والخطأ والانحراف في تصوّر الإنسان عن الذات الإلهية، ومواجهته بعدّة أساليب، فقبل نزول القرآن الكريم تراكمت الأفكار المختلفة، بعضها صحيح نابع من الديانات السابقة، وبعضها التبس الحق فيه بالباطل، وما تسلسل عنها من تصورات فاسدة خلال

([١]) عُرَى الإسلام : أي حُدُوده وأحكامه وأوامِره ونواهيه.

(٢)باشميل، محمد أحمد، كتاب **كيف نفهم التوحيد؟**، مركز شئون الدعوة، السعودية، بدون رقم طبعة، ١٤٠٨هـ، ص٢٧، ولم أجد لهذا القول ذكر في المتون.

المدة الزمنية التي كانت ما بين النبي عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، وكلها عوامل كفيلة بإيجاد انحرافات الفكر الإنساني في تصوّره للذات الإلهية، والذي بدوره يكون منبعاً للأحكام المنحرفة، وتطوّر الخطأ والأوهام، وما ينتج عنها من اعتقادات فاسدة وعبادات زائفة؛ ليكون عصر الجاهلية الأولى([1]) هو عصر اختلال الموازين والأحكام، واختلاط الأفكار السقيمة بالصحيحة، والخبيث بالطيب، والحق بالباطل، والخلق الذميم بالحسن، دون وجود ميزان إلهيٍّ يجتمع الناس عليه([2])، أو موجِّه يلتف الناس حوله على كلمة إله واحد كما هي سنة إرسال الرسالات السابقة، قال تعالى:"يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(**المائدة١٩**)([3]).

---

(١) ولا يتميّز هذا العصر كثيراً في الانحراف العقدي وصولته في الواقع الحالي، ففي الجاهلية الأولى لم يكن القرآن قد نزل بعد، أما جاهلية هذا العصر فهو انحراف رغم وجود الأصل المتين، والكتاب البيّن في كل قضايا العقيدة، والإشكالية العظمى في انحراف تفسير الآيات المخبرة عن الله ذاتاً وصفة، وفي هذا المعترك تنشأ جاهلية هذا العصر بعقيدة القرآن الكريم الصحيحة، والتي جاءت الألسنة والتأويلات ليلتبس الحق بالباطل، فأصبح هذا العصر أيضا عصر اختلال الموازين والأحكام، واختلاط الأفكار السقيمة بالصحيحة، والخبيث بالطيب، والحق بالباطل، والخلق الذميم بالحسن، ولكن مع وجود ميزان إلهيٍّ يجتمع الناس عليه

(٢) وإن كانت هناك ديانات إلا أنها فِرَقٌ متفرقة بأتباعها، كلٌّ منها يرى نفسه على حق قال الله تعالى:"وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ".

(٣) وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن اعتقادات النصارى الضالة المضلة بأنهم أبناء الله وأحباؤه، والبيان القرآنيّ بأن هؤلاء الذين يقولون على الله غير الحق ما هم إلا بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء....

ولقد ركّز القرآن الكريم على القضيّة المحوريّة وهي التغيير العقدي بتعديل الفكر الإنساني، وذلك يكون بإيجاد تصوّر عن الله عزّ وجل ببلوغه "المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية، وتضمّن تصحيحاً للضمائر وللعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس"(١)، وقد سار هذا التصحيح- وهو تغيير عقديّ- للأفكار باجتماع عدّة أوجه، هي:

- **الوجه الأول: تصحيح الأفكار المنحرفة والسقيمة وتغييرها:** وهذه الأفكار المنحرفة كان مصدرها- وما زال- من فئتين:

- **الفئة الأولى: الأفكار منحرفة ترسبت من الديانتين اليهودية والنصرانية المحرَّفتين:** ومن أمثلتها قولهم بنسب الولد أو الشريك أو الزوجة...إلخ لله **جَلَّ وَعَلَا** عن ذلك، حيث إن هذا الاعتقاد هو سبيل حصول الشرك الذي لا يغفره الله تعالى لقوله:"إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً"(النساء٤٨)، والشرك في حقيقة انحراف عقديّ ناشئ عن اختلاط المعارف السليمة بالسقيمة المنشئة للتصور عن الله تعالى، فجاءت الآيات لتنزيه الله تعالى عن النقائص التي ترسبت من أفكارهم المنحرفة، فمنها عند النصرانية ديانة التثليث(٢)، وقد توالت الآيات القرآنية في إنكار هذا الانحراف، وتنزيه الله عنه؛ لتنفي هذه الفكرة كليّاً من أساسها كما في

---

(١) العقاد، عباس محمود، ((الله)) **كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، دار المعارف، ط٧، مصر، ص١٥٥، بتصرف.

(٢) والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلها ويعنون بالاقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تخبط بيانه في أصول الدين، ولتفصيل آراء النصارى في التثليث، انظر: ابن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، مطبعة المدني، القاهرة، بدون رقم طبعة أو سنة نشر، ج٢، ص٩٢-١٠٦.

قوله تعالى:"يَأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ وما فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً"(النساء ١٧١).

كما كان للقصة القرآنية دور في الإخبار عن موقف عيسى عليه السلام تعريفاً يثبت حقيقة انحرافهم؛ لنقض تلك الانحرافات واجتثاثها، فقال تعالى مخبراً عن موقف عيسى عليه السلام من انحرافهم:"وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"(المائدة١١٦-١١٧).

وقد بيّنت الآيات أن اعتقاد اليهود والنصارى بتنسيب ابن لله – تعالى عن ذلك – هو من أقوالهم التي لا تستند على قاعدة دينية، إنما قاعدتهم مردُّها إلى الهوى والضلال، مقلّدين من سبقهم، هادفين إطفاء نور الله بأفواههم، محرفين الكلم عن مواضعه، مريدين الضلال والإضلال([1]) فقال تعالى:" وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"(التوبة٣٠-٣٢)، لذا فقد أشار القرآن في عدّة مواضع إلى تحريف بني إسرائيل الكلم عن مواضعه، منها قوله تعالى:"مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ..."(النساء٤٦).

([1]) وهذا مندرج تحت ما أسميته بمعركة الحق والباطل التي ذكرتها في التمهيد من قبل، انظر التمهيد.

وجاءت الآيات الكريمات لدحض اعتقاد اليهود والنصارى بادعائهم الخصوصية بما قفره القرآن الكريم من كرامة تعمّ الإنسانية كلها، فقد اعتقدوا أنهم أبناء الله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، فجاءت الآيات القرآنية ببيان واضحٍ لانحراف هذا الاعتقاد السقيم، وبيّنت المساواة لجميع الخلق في الاعتبار الإنسانيّ، فقال تعالى:"وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"(المائدة١٨).

كما أن القرآن تضمن تصحيحاً للفكرة الخاطئة بأن الله يحتاج إلى واسطة لعبادته، باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، "فالكمال الإلهي ليس له حدود، وكل ما ليس له حدود فلا عازل بينه وبين موجود"(١)، فالاعتقاد بأنه لا مانع يقف في وجهه، ولا عائق يعيق التواصل معه، ولا من قادر يقدر على أن يحول بين الله وعباده؛ لأنه هو من بيده كل شيء، ولا رادّ لأمره، كلها تزيل من النفس شعور اليأس، لوجود ركن أمين تركن إليه النفس التي أنابت، لذلك قال الله تعالى:"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ..."(البقرة١٦٨)، وقال أيضاً على لسان يعقوب عليه السلام:"...إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"(يوسف٨٧)، فالإله المعزول عن عبيده فكرة منحرفة نفاها القرآن، وبيّن أن الله هو الإله القريب، ويترتب عليها تقرير الوحدانية لله في كل أمر، لتتوجه العبودية له وحده، وليس لأحد أي واسطة للاستمساك بالعروة الوثقى المتمثلة بسلامة الاعتقاد بكماله وتنزيهه عن كل النقائص المدسوسة في الاعتقادات المنحرفة.

- الفئة الثانية:الأفكار التي ترسبت من الحضارات الأخرى(الديانات الوثنية):

لم يتأثر العرب- الذين نزل القرآن فيهم- في جاهليتهم باليهود والنصارى فحسب؛ إنما كان- وما زال- للموقع الاستراتيجيّ للبلاد العربية، واتصالها بالحضارات الأخرى ذو أثر كبير في تحريف

(١) العقاد، **(الله) كتاب في نشأة العقيدة الإلهية** ، ص١٥٦.

الفكر الإنساني، وتلويث الحضارة العربية بالأفكار السقيمة، المستقرَّة في النفوس الخبيثة، المنتجة للعمل الفاسد والخلق البذيء، فلقد انتقلت العبادة الوثنية لبلاد العرب – على حسب الروايات– عن طريق عمرو بن لحي([١])، سابقاً، أما الآن فسهولة التواصل بين الحضارات كفيلة بتأثر الفكر الإنسانيّ بسموم أفكارهم.

لقد عرف العرب الأوثان والأصنام متأثرين بالحضارات الأخرى، فمثلاً الآلهة الثلاث (ود) وهو القمر، (اللات) وهي الشمس، و(العزى) وهي الزهرة)، وهو نفسه ما كانت تدّعيه الحضارة البابلية، فالإله (سين) القمر، و(شمش) الشمس، و(عشتر) الزهرة([٢])، والتشاؤم والتفاؤل بالحيوانات والجماد والنبات... إلى آخره من اعتقادات تقود للإشراك بالله تعالى.

وجاءت الآيات الكريمة برفض الشرك من أساسه، ونادت بنبذه، فقد عرضت أسماء الآلهة التي كانوا يعتقدون نفعها، وبيّنت أنها مجرد أسماء اتبعها الآباء، لا سلطان لها، مصدرها الظن الخاطئ والهوى المائل؛ وهذا البيان القرآني جاء لتخلية عقول الناس مما اعتادوا عليه من عبادة غير الله تعالى، وتغيير هذا الاعتقاد السقيم، فقال تعالى:"أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى *وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى"(النجم١٩-٢٠)، ولقد بيّن القرآن حقيقة العناد في الاعتقاد بتلك الآلهة، وضلالهم وإضلالهم الذي لازمهم، وذكر سوء أقوالهم فقال:"وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً"(**نوح٢٤**).

---

(١) انظر: الكلابي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، بدون رقم طبعة، سنة ١٤٤٣هـ/١٩٢٤م، ص٢٠.

(٢) انظر: **المرجع السابق**، ص٥١.

إن أهمية ما جاء به القرآن الكريم من دحض لتلك المعتقدات المترسبة في العقول من الديانات والحضارات الأخرى لهو من المنهجية القائمة على التفريغ الفكري من الاعتقاد المنحرف، وهذا التفريغ تخلية تعنى إيجاد الفكر الإنساني خالياً من كل الشوائب التي تكدّر اعتقاد الإنسان؛ لكي يتم التحكم بعمليّة التأثّر بالبيئة الخارجيّة، وهذا التحكم يعنى السيطرة على عملية التغيير الفردي لضمان توجهها نحو الحق الذي جاء به القرآن الكريم، وليميز الله بذلك الحق من الباطل، والطيب من الخبيث، فيتم تأسيس البناء العقدي تأسيساً قائماً على الحق المبين والفكر المتين، والاعتقاد الذي يمتاز بأنه عروة وثقى لا انفصام لها.

- <u>**الوجه الثاني: البناء على المفهومات السليمة :**</u>

إن معتقدات اليهود والنصارى لم تكن كلها سقيمة، فقد تأثر العرب بما هو صحيح منها أيضاً تأثرهم بالسقيم، وقد جاء القرآن مادحاً أهل الكتاب الملتزمين بالحق المتبعين له،قال تعالى:"وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"(آل عمران١٩٩)، لذا فإن من آمن منهم، ودخل في الإسلام، كان له دور في التصحيح تارة، وفي التأييد والنصرة لما نزل به القرآن الكريم في أخرى.

فمن المعتقدات السليمة التي تأثر بها العرب وجود نبيّ سيرسل، وله مواصفات، وأن ما سيأتي به هو الحق، وأن على من عاصره اتباعه، وقد أوضح القرآن ذلك مع بيان موقف أهل الكتاب من هذا النبيّ، فقال تعالى:"إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَـذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ"(الصف٦) فيكون لهذا التبشير الدور التشويقي للنفوس الآملة بأن تتغير الحال بالخروج من الظلمات إلى النور.

لقد كان أصحاب الديانات مؤمنين بالله تعالى، إلا أن إيمانهم مشوب بخلل فكريّ وانحراف اعتقاديّ، فمثلاً لم يكن عند اليهود أن يعبدوا أحداً مع الله تعالى من تماثيل وأصنام، فقد كانوا

يؤمنون بوحدانيته، إلا أن عبادتهم له لم كانت باعتقاد وجود الواسطة التي توصلهم إلى الشفاعة من الله، وهذه الواسطة هم الأحبار، وهذا أحد جوانب تعديل المفهومات التي مرّت سابقاً.

-**الوجه الثالث: تشكيل البناء المعرفي الخاص بمنهج القرآن الكريم:**

وجاءت الآيات الكريمة بالبيان الذي يجعل المعرفة التامة عن الله تعالى معرفة منهجية بصبغة قرآنية، ويكون ذلك بما يأتي:

أولها: حقائق الإيمان بالله تعالى:

أما حقائق الوجود الإلهي كما هي في القرآن الكريم: فهي" كل صفة يمتنع أن يوصف بها غير الباري جل وعلا"([١])، وهي من المدركات العقلية التي لا يدرك العقل أحداً موجوداً بمثلها حقيقة غير الله، ولقد جاءت الآيات القرآنية بتعريف تامّ وشامل للإله الحقيقيّ المعبود بوصف دقيق عن ما يليق به جل وعلا قال تعالى:"...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"(الشورى١١)، فقوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" فيه تخلية للعقول من وجود المثيل له، وإتباع هذه التخلية بقوله تعالى:"وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" فيه إثبات للسمع والبصر دون تشبيهه بخلقه ولا تكييف ولا تعطيل، وعلى هذا يقوم التوازن البنائي للعقيدة الإسلامية، وهذا من أهم قضايا التغيير، إذ أن الاعتقاد بوجود الله بما وصفه نفسه في القرآن، واستشعار هذه الصفات يعطي الإنسان من الإيمان بالله ما يعينه على إقامة حياته على عقيدة الإسلام، كما يدعم جانب الرقابة الذاتية في النفس الإنسانية لتتحقق مرتبة الإحسان التي جاءت في الحديث الشريف:" قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ

---

(١) السنوسي، أبو عبد الله، **شرح السنوسية الكبرى**، تحقيق د. عبد الفتاح بركة، دار القلم، الكويت، ط١/ ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص١٧٢.

يَرَاكَ "([١])، وبتغيير اعتقاد النفس إلى أن تصل إلى هذه المرتبة يعنى نماء الرقابة الذاتية التي تضمن ربط الدين بالحياة في أدق التفصيلات.

من هذه الحقائق الوحدانية، ولقد بيّن القرآن الكريم إنكار الناس لها، منها ما جاء في سورة الأعراف ما قالته عاد لنبيّها، ومن استمساكهم بانحراف سابقيهم، فقال تعالى:"قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (الأعراف٧٠)، والتأكيد على الوحدانية سبيل كل الرسل، فقال الله تعالى:"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ"(الأنبياء٢٥)، فنفي وجود إله إلا الله تعالى يتحقق بنفي النفس تأليه ما سواه، والجزم بانفراده بكامل الصفات، ويشير الرازي إلى أن معنى قول الله تعالى:" اللَّهُ الصَّمَدُ"، "إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد"([٢]).

وقد كان من أكثر الموضوعات التي حازت على أكبر قدر من التأكيدات في القرآن وحدانية الله في أكثر من موضع وباستخدام أكثر من أسلوب؛ لأن الوحدانية لله هي المبدأُ والغاية النهائية للتغيير كما بيّنه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، "فأعظم العاقلين عنه–الله– العارفون به، وأعظم الناس عقلاً الذين أقروا بالعجز أنهم يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته"([٣])، كما أنه "هو مبدأ

([١]) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، المجلد الأول ج ١– ص٨٩.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مجلد ١١، ج٣٢– ص٣٦٣.

(٣) المحاسبي، الحارث بن أسد(٢٤٣هـ)، **شرف العقل وماهيته**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٦٨م، ص٣٣.

الاعتقادات كلها، ولأن من لم يؤمن برب واحد لا يصل إلى الإيمان بالرسول أو بأركان أخرى، إذ الإيمان بالله هو الأصل، وبه يصلح الاعتقاد، وهو أصل العمل"(١).

إلا أن هذا العجز ليس مانعاً من البحث عن حقيقة الذات الإلهية(الله)؛ لأن سلب القدرة عن إدراكها هو السبيل لتحفيز الفكر الإنساني لمحاولة الوصول إلى وحدانية الله تعالى بوجود أثره خلال مسيرة حياته، فالبحث عن الحقائق التي جاء بها القرآن المشكّلة للتصوّر بوجود إله واحد لا شريك له من أهم العقائد التي لا بد أن تترسخ في النفس المتغيّرة.

وعند التوصل إلى وحدانية هذا الإله العظيم لا بد من "الإيمان بتنزيه جهة الأمر – الله– عن الخطأ والقصور، والثقة بعلمه وقدرته على إنجاز وعْده ووعيده، وهذا من شأنه أن يزيل حوافز الاعتراض، وييسّر عملية الاستجابة ويدفع بها قُدُماً نحو آفاق جديدة في طريق تمثّل أخلاق الكمال الإنسانيّ"(٢)، وكلها نقلات تحتويها عملية التغيير الفردي في المنهج القرآني، حيث عمل القرآن الكريم على إيجاد تفاصيل الإقناع بوحدانية الله تعالى باستخدام الاستدلالات العقلية، وبالتنبيهات للأمور الفطرية، والوعيد لمن أشرك بالله تعالى.

ولقد اتخذ القرآن الكريم من فطرة الإنسان مدخلاً للتذكير الدائم بوحدانيته، فقد أشار إلى فطرة الإنسان المتغيّرة عن أصلها الموحّد لله، عند الرجوع إليه بشعور خارج عن الإرادة، باللجوء وطلب العون من الله وحده إذا ادلهمّت السبل، وسُدّت الأبواب، فيقول تعالى:" وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ..."(**الزمر٨**)،

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، المجلد الأول، ج١– ص٢٦٢.

(٢) برغوث، الطيب، **منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، ص١٠٥.

وضرورة الإقرار بالله وحده دون الشريك؛ لأنه يملك النفع والضر للإنسان دون غيره، وبما أن الإنسان مفطور على توحيده وجبت رجعته للخالق.

وقد جاءت الآيات (تعالى الله عما يصفون)، (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً)، ذات دور في تشكيل شعور التعظيم لله تعالى، لكبح التفكير عن التجرّؤ على الله بوصفه وصفاً لا يليق بجلاله، وغالباً تأتي هذه العبارات بعد ذكر أقاويل الضالين في تشبيه أحوال الإله بالمخلوقين، أو الافتراء في نسب الصاحبة والولد....إلخ التي تستدعي نفي حقائق وجود الذات الإلهية منزهة متفرّدة منزّهة عن كل ما يعتري المخلوقات من أفعال.

أما الحقيقة من حقائق الوجود الإلهيّ كون الله تعالى أحداً، وقد بيّنها الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: " قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ"(**الإخلاص١**) أن الله وحده "منزهة عن أنحاء التركيب؛ وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحدة من أجزائها،..فتكون المركبة مفتقر إلى غيرها، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته(١)،..والإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً"(٢).

إن الاقتناع العقلي بالعجز عن تصور الذات الإلهية، يؤدي إلى شعور بتعظيم الله المنفرد بهذه الصفات، وعند المقارنة بين صفات الله الواردة في القرآن، وصفات من دونه، فإن النفس تُقرّ بأحقيّة القيام بعبادة لله تعالى، المنزه عن كل نقص، فالتوجه إليه في كل الحوائج والأمور، وتغيير اعتقاد الفرد بأن هناك غير الله يقضيها، ذلك كله من أهم الأمور المتغيّرة بمنهج القرآن.

---

(١) **ويُقصد بالممكن لذاته في علم العقائد**: ما يقتضي لذاته أن لا يقتضي شيئاً من الوجود والعدم، انظر: الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق د.عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٦٨.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد ١١، ج٣٢- ص٣٦١.

ثانيها: البيان القرآني لصفات الله تعالى:

ومن هذا البيان آيات الصفات في القرآن الكريم، فالقرآن جاء بمنظومة بيانية تجعل من العقل الإنساني متوقّفاً عند فهم صفات الله تعالى، فالصفات التي جاء بها القرآن الكريم مخبراً بها عن صفات الله تعالى التي تشكّل التصوّر السليم عنه وردت بعدّة أوجه:

- **الوجه الأول:** الأخبار صراحة عن صفات الله تعالى: كما جاء في قوله تعالى:" هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(**الحشر٢٢-٢٤**)، وهذا له دور في تعريف الإنسان صفات الله جل وعلا، ليعلم أن الله ليس كمثله شيء، فكل آيات الصفات تجمعها آية واحدة تبيّن كمال الله تعالى، وعظمه ورفعته، فقال تعالى:"لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "(**الشورى١١**).

- **الوجه الثاني:** الاستفهام الذي يتضمّن جواباً يشير إلى صفات الله تعالى: ودورها إيجاد الاقتناع العقليّ بوجود إله له من الصفات ما لا يوجد في مخلوق، ومثالها ما جاء من آيات بينات تشير إلى صفة الرحمة التي تشمل المخلوقات، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ"(**الأنعام٤٦-٤٧**)، ووجه الدلالة على صفاته التي تضمنتها الآية الكريمة هو الرحمة المتمثلة في الله الذي يمنح الإنسان استعدادات من سمع وأبصار وقلوب، ثم هذا الإنسان يصدف عن ذكر الله والإيمان به، وهذا من رحمة الله الذي يمهل الإنسان، إلا أن هذا الإله شديد العقاب أيضاً وهذا ما دلّت عليه الآية ٤٧ التي عقبت بالفئة التي ستهلك لأنها لم تستعمل ما آتاها الله تعالى من رحمة في شكر نعمته وهو الظالمون.

ودور هذا العرض لصفات الله تعالى التوازن في معرفة صفات الإله المستحق للعبادة، فيتغير التصوّر عند استشعار صفات الرهبة مقابل الرحمة مثلاً، والمحيي مقابل المميت... إلخ.

– **الوجه الثالث:** الزجر والتبكيت لمن يدعي صفات النقص وينسبها إليه، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ"(**المائدة٦٤**)، وهذا إظهار لقدرة الله تعالى على المفترين، وتحقير لمن تسوّل له نفسه وصف الله بما لا يليق لتنزيهه.

– **الوجه الرابع: التسلسل في إنشاء التصوّر لصفات الذات الإلهية:**

ومنها ما بيّنه القرآن الكريم من صفات القدم والبقاء... إلخ، فمثلاً إن لصفة قدم الله تعالى وبقائه ووصفه بأنه الأول والآخر اعتبارات مغيّرة للتصوّرات عن الذات الإلهية، فكونه أولٌ وآخرٌ "بمعنى لا ابتداء ولا انتهاء له في ذاته من غير استناد لغيره فهو الواجب القدم المستحيل العدم"(١)، فيوقن الفرد أن بدايته من الله ونهايته إليه، وبما أن منه المبدأ وإليه المنتهى يكون هو المالك لكل شيء، فهو قبل كل شيء، راجع إليه كل شيء، ومن المعروف أن من يملك الشيء أحق به، إذن فهو أحق بالتصرف بكل شيء، فيقول تعالى:"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(**الحديد٣**)، وهذا كله يوصل الفرد إلى الاستسلام بأنه من ملك لله وأنه إليه راجع فيتحقق في النفس اعتقاداً جازماً بمضمون الآية الكريمة:"إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ"(**البقرة١٥٦**)، فيتغيّر الإنسان من فرد يضنّ ألن يقدر عليه أحد إلى إنسان يعلم أن لا قدرة له إلا بإذن واحد أحد، ويولّد توكّلاً عليه في كل أمر هو فيه.

---

(١) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، روح **المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م، ص.....

– **الوجه الخامس: كثرة التأكيدات على تشريف صفات الله تعالى:**

الصفة الأولى: العلم الإلهيّ المطلق: وقد كثر التأكيد على هذه الصفة بعدّة أساليب، بل إن القرآن أورد في بعض الآيات أن بعض ما يحدث في هذا الكون يكون مقصده العلم بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فشمل بعلمه كل ما يحقق للإنسان السعادة والاستقامة في الدنيا والآخرة، ووضع له المنهج الذي يكون الإنسان موازناً فيه بين فطرته وحاجاته وغرائزه، فعند ورود لام التعليل في لفظ **(لتعلموا)** في قوله تعالى:" جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(المائدة٩٧)**، فعلمه "يتأتّى بكشف الأمور والإحاطة بها على ما هي في الواقع أو ما ستكون عليها في المستقبل"(١).

وقد أشار آيات القرآن الكريم إلى أن علمه من قبل الخلق وإلى ما بعد الخلق، كما قال للملائكة قبل خلق آدم:"... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"**(البقرة٣٠)**، وأكّد على ذلك بعد خلق آدم فقال:"... قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"**(البقرة٣٣)**، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء كما بيّن في قوله:"... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ..."**(البقرة٢٥٥)**، "و«كونه عالماً» كما جاءت كثير من مواضع القرآن تذكر هذه الصفة كما في قوله:"... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(النور ٣)**، "بعموم تندرج فيه الكليات والجزئيات"(٢)، أي"علمه النافذ في جميع الكليات والجزئيات(٣) الواصل إلى جميع ذوات الكائنات والممكنات... فكونه تعالى خالقاً

---

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، دار الفطر، ط١، ١٩٦٩م، ص١٢٠.

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، ج٤– ص٢٩.

(٣) معنى الكليات: العلم الشامل لكل لموجودات، والجزئيات: العلم لتفاصيل الأمور ودقائقها، انظر الرازي، التفسير الكبير، المجلد٤، ج١٢، ص٤٧٤.

إشارة إلى صفته بأنه عالم "([1])، "فنبّه تعالى- في القرآن- بعلمه بما في السموات والأرض بالكلية الشاملة، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه أي بكل ما في النفس، وهي جزء مما في الأرض، ثم بعلمه بكل ما أكنَّته الصدور، وهي جزء مما في النفس،على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء،..فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله، ثم بخاص العباد من سرّهم وإعلانهم، ثم ما خص منه، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفيّ الأشياء وكامنها"([2])، فقال عزّ وجل: "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(التغابن٤)، ففي هذه الآية يعتبر أبو حيان أن العلم المذكور فيها في معنى الوعد والوعيد، إذ هو تعالى المُجَازِي على جميع ما يعلم مما يسرون وما يعلنون بالثواب والعقاب([3]).

وقد بيّن القرآن الكريم العلاقة القائمة بين علم الله تعالى واختيار الإنسان، حيث إن قول الله تعالى:"وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ"(**الأنعام٣**)، إشارة إلى أن علم الله تعالى بحال الإنسان قبل خلقه وبعد خلقه سرّه وعلانيّته وما سيكسب في حياته، دليل على علمه بما سيختار الإنسان في حال كونه مختاراً، وعلى هذا يكون عالماً بمن سيهتَدي ومن سيضِل، وبناء

---

(١) المصدر السابق، المجلد ٤، ج١٢- ص٤٧٤، بتصرف

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي(٧٥٤هـ)، البحر المحيط في التفسير، بعناية عرفان حسونة، مراجعة صدقي جميل، دار الفكر للطباعة، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ج١٠- ص١٨٩.

(٣) لقد اعتبر أبو حيان هذا الموضع وعيد فقط- انظر المصدر السابق نفس الاقتباس- ، إلا أن ما يظهر لي من الآية – والله تعالى أعلم- أن العلم مطلق يفيد الوعد لمن آمن لنيل الثواب، والوعيد لمن ضل لنيل العقاب، فلا ينحصر في الوعيد دون الوعد، وقد جاء السابق في سورة التغابن على التعريف بالله تعالى وبنعمه، والتعريف بالإنسان من حيث اختياره بين الهدى والضلال فعندما قال تعالى في الآية الثانية من السورة:"هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن.." دليل على أن علمه بسرّ الإنسان وما يعلن من خير أو شرّ، فيكون العلم المذكور في الآية للوعد والوعيد حسب حال الإنسان، فالإنسان يخفي خيراً ويُظهر خيراً، كما أنه يخفي شراً ويُظهر شرّاً.

عليه يكون الله عالماً بأهل الجنة وأهل النار، لعلمه المسبق باختيار الإنسان، بعد أن هيَّأ للناس كل أسباب الاختيار السليم، بإيجاد الاستعدادات المناسبة، وإنزال القرآن تبياناً لكل شيء، وإرسال الرسول عليه السلام، وتشريع الأحكام...إلخ، وعلى هذا فلا مناص للنفس، ولا عذر لها ولا مفرّ ولا حجة، "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"(**الزمر٧٥**)، وعند بيان هذا الأمر يستشعر الفرد ضيق الأمر في الدنيا قبل الآخرة، ليكوّن الشعور النفسي الناتج عن الخسران في الدنيا والآخرة، فيتوجّه الإنسان إلى إعادة النظر في الأمور، لتغيير وجهته ومنهجه الحياتيّ.

<u>الصفة الثانية:</u> اتصاف الله بالقدرة المطلقة: وقد بيّن الله تعالى بأنه على كل شيء قدير، حيث "تتأتّى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه وتكييفه"(١)، فالقدرة صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، وقدرته على الخلق من أكثر المواضع القرآنية بياناً لقدرته قال تعالى:"أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"(**النحل١٧**)، فآيات الخلق بيان على قدرة الله تعالى، فالإيجاد متعلق بها.

إن الدلائل الكونية على وجود الله تعالى تتضمن تلقائيّاً دلائل على وجود موجد واحد يتصف بقدرة فوق قدر البشر، وتتعلق القدرة في الإيجاد والإبداع، "فمن قدرته القدرة التي لا يمتنع عليه معها شيء أراده، ولا يتعذر عليه فعل شيء أراد فعله"(٢).

كما أنّ هناك علاقة بين صفة القدرة وصفة العلم، فيقول الله تعالى:" قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(**آل عمران٢٩**)، حيث إن تمام العلم يتحصّل منه تمام القدرة، فمن لم يكن قادراً على الإحاطة بالعلم، لا يكون قادراً على كل شيء

---

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، ص١٢٢.

(٢) الطبري، ابن جرير(ت٣١٠هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر للطبعة والنشر، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٣٠.

لجهله بجزء من الكل، وتذييل الآية بالقدرة مع أن موضوعها العلم لهو من أوضح الأدلة على ذلك، وبهذا تتبيّن العلاقة بين مطلق العلم ومطلق القدرة.

إن اعتقاد الفرد بوجود قدرة الله تعالى كما وصفها القرآن الكريم تُغيّر اتجاه النفس من الشعور بحاجة غيره لتسلك مسلك التوجه إليه في كل الأمور، وهذا التوجه هو مرحلة هامّة في عملية التغيير النفسي، فغنى الإنسان عن الخلق، وحاجته إلى الخالق لهي من أهم الأمور التي تحقق إيماناً ثابتاً دائماً بدوام توجه هذه الحاجة لله عزّ وجل، وهذا ما سعى القرآن الكريم بمنهجه لتحقيقه هو توجيه الحاجات إلى من يقدر على قضائها، وإلى من يملك أمر الخلق أجمعين، وهذه إن أقرّت بها النفس وصلت إلى مرحلة متقدمة من مراحل الوصول إلى التوحيد في النفس، والذي بتحققه بكل جوانب الإيمان بالله تعالى وصفاته يصل المؤمن إلى مرحلة اليقين بأنه لا يوجد مع الإنسان أحد عالم قادر رحيم رحمن ...إلخ إلا الله وحده لا شريك له، فإذا حاول الإنسان أن يطغى ردّه اعتقاده لوجود قادر عليه، وإذا حاول أن يظلم ردّه اعتقاده بأن الله سيقدر عليه، فمن يحسب أن لن يقدر عليه أحد يكون مختل العقيدة، مختلّ التصوّر لصفات الله تعالى القادر عليه، ومن هنا فإن اعتقاد هذه الصفة يضبط النفس لئلا تعتدي أو تتجاوز حدود الله تعالى.

وأمثلة بيان أثر هذه الصفة في القرآن كثيرة، فالعبد عندما يستشعر أن هناك من هو أقدر منه، وهذا القادر يقدر أن يحييه أو يميته، يقدر أن يرفعه أو يحطّ منه، يقدر أن يبطش به أو يرحمه، يقدر أن يرزقه أو يمنع عنه..إلخ من مظاهر القدرة، يستسلم له، يخشاه، ينظر في غضبه ورضاه...إلخ من مظاهر الشعور بذات قادرة، وسأضرب مثالاً لأكثر الناس تجبّراً وتكبّراً وطغياناً وهو فرعون، فعندما جاء موسى بالبيّنات، وأسلم السحر الذين كان إسلامهم ظهوراً للحق على الباطل، واستمرّ في طغيانه، وتجبّره، فقتل دليل الحق وهم السحرة كي لا يؤثروا في الناس، وزاد طغياناً يوم لحق بموسى ومن معه ليُنهي أمرهم كما فعل بالسحرة، كل ذلك كان دليلاً على

استمساكه لضلاله، ولكنه أعلن تغيّره في حالة بيّنتها الآيات في قول الله تعالى:"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنواْ إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"(**يونس٩٠-٩٢**)، فالنظار لقوله تعالى:"حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنواْ إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" يجد ما يلي:

–أن فرعون أعلن إيمانه، ومعنى إعلانه لإيمانه أنه أعلن تغيّره عن البغي والعدو الذي أصرّ عليه.

– أن هذا الإعلان كان مشروطاً بقوله تعالى:"حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ" فعندما أدركه الغرق، وتيقّن أن هناك من قدر، ووجد نفسه ضعيفاً أمامه، وهذا القادر كان يملك حياته في تلك اللحظة، وأنه كما ملك حياته فهو يملك قدرة إماتته وهلاكه، أعلن تغيّره نحوه، واعترف بقدرة هذا القادر عليه، إلا أنه أدرك هذا الأمر بعد فوات الأوان، وبعدما انتهت فترة الإمهال، وبعدما لم يكن أمامه إلا ملك الموت قابضاً روحه، كان سبباً في عدم قبول توبته([1]).

---

(١) ومن خلال هذه القضية لا بد من الإشارة لملحظ هام، هو أن التغيير لما في النفس له مدّة محددة لتحققه أي أنه مشروط بأمرين بوجودها لا تُقبل عند الله تعالى، **الشرط الأول:** أن يتغيّر الإنسان ويغيّر ما في نفسه قبل غرغرة الروح، فإذا غرغرة الروح كان تغييراً غير مقبول و الحساب على كل ما كان قبل هذه الغرغرة، وجاء في سنن الترمذي عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**)، قَالَ أَبُو عِيسَى **هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ** حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ بِمَعْنَاهُ، انظر: الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، بَاب فِي فَضْلِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَمَا ذُكِرَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.، **أما الشرط الثاني:** أنه يجب على الإنسان أن يتغيّر قبل طلوع الشمس من مغربها، في حال طال به العمر إلى ذاك اليوم، للحديث الذي جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ{ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ }**)، انظر: البخاري، صحيح البخاري، **كتاب تفسير القرآن، باب لا ينفع نفس إيمانها**، وجاء

وما بقي من صفات تختص بها ذاته جلّ وعلا منشؤها الإيمان بهذه الصفات الأساسية للذات الإلهية، فالصفات المترتبة على الإيمان بحقائق وجود إله واحد، هي الإيمان بأنه: (الحق، النور، الظاهر، الباطن مالك الملك، الملِك،)، وما يترتب على الإيمان بصفة العلم من صفات:(اللطيف، الخبير، الشهيد، الحسيب، المحصي، الواجد، السميع البصير، الرقيب، المهيمن، الواسع، المؤمن)، أما صفة القدرة فيترتب على الإيمان بها الإيمان بأن الله هو: (القوي، المتين، الواجد، العزيز، المقيت، الوارث، القاهر)(١).

– **الوجه السادس: بيان أن من مستلزمات الإيمان بالله الإيمان بباقي الأركان:**

إن اليقين بوجود الله إله واحد عالم قادر يستلزم الإيمان بكل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه، وبما أن الإيمان بالله إلهاً واحداً هو من أسمى الغايات التي سعى القرآن لتحقيقها، فالإيمان بكل ما يوصل الإنسان إلى هذه الغاية واجب بداهة، إذ كيف يعرف الإنسان ربّه إلا من خلال وجود رسائل منه، ورسل يوصلونها؟، لذا قال تعالى آمراً:" يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً"(النساء١٣٦)، فكلها مستلزمات تتبع الاعتقاد الإيمانيّ بالله تعالى، فالإيمان **بالله** مرسِلاً **للنبيّ صلى الله عليه وسلم** بكتابه وكلامه وهو **القرآن الكريم**، ومنها يتم التصديق بكل ما جاء به الوحي، **فالقرآن والسنة** هما المنهج الإلهي الباني للعقلية الإيمانية، والموصل إلى حقائق

في صحيح مسلم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"، انظر صحيح مسلم، كتاب التوبة، بَاب قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ الذُّنُوبِ وَإِنْ تَكَرَّرَتْ الذُّنُوبُ وَالتَّوْبَةُ.

(١) انظر: الميداني، عبد الرحمن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م، من ص١٣٩– ١٥٢.

الذات الإلهية بكل ما يليق بها، وهما المحددان القويمان لكل ما وصف الله به نفسه، وما بيّنه من أسس اعتقادية تستقرّ في جوهر الفرد، وهذا الجوهر هو نفسه التي أُمر أن يغيّرها، فيقوم بناء الشخصيّة الإنسانية الفردية والجماعية على الاعتقاد بكل ما وصف الله به نفسه، تمهيداً لقيام أمة تحمل عقيدة الإسلام الصحيحة المصححة، لتكون خير أمة أخرجت للناس أمة العقيدة القرآنية.

فمن خلال توجيه فطرة التوحيد لله تعالى، بتعامل مع المنهج الذي يعطي العقل التصوّر السليم عن الذات الإلهية، يجد الفرد نفسه أمام إله عظيم، ليس مدركاً بالبصر، ولا يدرك بالعقل إنما مستقر الإيمان به يقيناً متجذّراً في القلب، وبعد أن تشهد له دقائق الأمور وعظائمها بأنه ليس كمثل شيء، كما قال تعالى في وصف نفسه:" فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"(الشورى١١)، وله المثل الأعلى كما وصف نفسه جل وعلا:" وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (الروم٢٧)، يكون تصوّر الذات الإلهية تصوّراً لا يدرك إدراكاً عقلياً؛ لأنه لا يُشبّه بأحد، إنما هو إيمان يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، فيكون دور العقل موصل إلى الاقتناع، ودور الفطرة في التغيير هو الاستشعار الهادي لوجود الله، ودور القلب هو استقرار اليقين بوجوده وجوداً سابقاً أبديّاً لا تحدّه حدود، ولا تصفه عقول، إلا ما جاء بكتابه الكريم.

إن حدّ الاستعدادات التي وضعها الله تعالى في الإنسان بحدود في أمور العقيدة، وإعادة النظر في تثبيت الحقائق السليمة عن الله الواحد المعبود كما جاء في منهج القرآن الكريم، لا يكون ذلك إلا بثبات الحقائق السليمة في النفس التي أمر الله بتغييرها، ومن خلال استقرارها واطمئنانها بوجود الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، تكون مستعدّة لتنفيذ أمر الله العظيم واجتناب نهيه، فإذا كان ذلك كذلك، تم ضمان سير الفرد سيراً قويماً كما أراد الله الحكيم.

إن قيام المعرفة فيما سبق، يوجد قيام الهدف الأساسيّ الأول المراد تحقيقه من عملية التغيير الفردي وهو توحيد الله في المرحلة الأولى من مراحل الإنسانية، بإيجاد الفرد الموحّد لله تعالى المستعد للالتزام بكل ما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه، واجتماع الفهم لذاته وصفاته والبيان لهما كما جاء في القرآن؛ يجعل الاعتقاد مبنيّاً على أسس سليمة وقواعد متينة، وفهم البيان القرآنيّ خصلة يشترك فيها كل من امتلك الاستعدادات الفطرية، والخلْقية من حسيّة وعقليّة وشعوريّة([١])، والروحية كذلك،"فالبيان يسمى عقلاً لأنه عن العقل كان"([٢])، وبوجود الفهم والبيان لذات الله تعالى وصفاته كما وردت في كتابه، لا كما تمليها الأهواء، وتعتقدها النفوس الهوجاء، وتفعيل الاستجابة لهما تكون الاستجابة من الفرد بأول ركن من أركان الإسلام وهو ركن الشهادتين، "وهكذا تَرُدُّ العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور، وتَرُدُّ قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم"([٣])، فتكون شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله عقيدة ينطقها اللسان أولاً، وهي بمثابة إعلان عن قدرة التغيير على تحقيق أحد مراحله، فالشهادة إذن إعلان تغيير النفوس من الظلمات إلى النور والخروج عن أحكام الدنيا إلى أحكام الدين، والالتزام بمنهج الله تعالى دون غيره، فهي أول هدف مرحليّ من أهداف التغيير حققه القرآن الكريم، ليرتقي الإنسان بعد استقرارها في جوهرة إلى جعلها مسلكه في حياته، عند العمل بمقتضياتها.

---

(١) انظر: المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله البصري(٢٤٣هـ) ، **العقل فهم القرآن**، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله البصري(٢٤٣هـ) ، **العقل فهم القرآن** ، ص٢٠٩.

(٣) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، المجلد ٥، ج١٩- ص٢٦٤٤.

المبحث الثاني: الأسس القرآنية الارتقائية، والكمال الإنساني النسبي للتغيير الفردي

المطلب الأول: الأسس الارتقائية لإحداث التغيير الفردي الإلزامي:

إن من سنن العالم المحسوس والتي تستدعيها طبيعة الحياة وحركة المخلوقات فيها، **النظرة للتقدم الحياتيّ** لمواكبة حركة الحياة المتغيّرة، ليكون التغيير ظاهرة طبيعية تُسخَّر لها جميع مظاهر الكون انبثاقاً من البُعدين المكاني والزمانيّ اللذين يشكلان هذه الظاهرة، وجَعْلُ هذه **النظرة**– للتقدم– عَمَلِيّاً غير مؤطرة بحدود، وغير ممنهجة المسيرة عند التقدم، يكون بمثابة ارتفاع لحْظِيٍّ ينتهي بالإنسان إلى تراجع بالانحطاط في دركات التغيير السلبي؛ لأنها عندئذ تقوم على عشوائية الحركة، كما أن التقدم والتطوّر السليمين يشملان تقدماً وتأخراً حسب مقتضى الحال ومناسبته للمقام، وفتُحَدّدُ الحركة داخل إطار ثابت وهو المنهج القرآنيّ، وتُطْلَقُ حول محور ثابت وهي عقيدة القرآن، لضبط التغيير والتقدم وفق أسس تقوّم الحركة وترتقي بها، وهذا طابع الصنعة الإلهية في الكون كله، وبالنسبة للنفس الإنسانية فهي ضرورة من ضرورات صيانتها عن التغيير السلبيّ الذي يعني التراجع بها إلى ما لا يليق بطبيعتها التي جُبلت عليها(١).

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوضح في أحاديثه الصورة العامة عن الإسلام أصولاً وفروعاً عند بيان منهج القرآن في إقامة الارتقاء، بل استخدم أجلى الأساليب في تثبيت الفكرة العامة في الأذهان، وقد مثّل على ذلك بقوله:" ضرب الله مثلاً صِراطًا مستقيمًا، وعن جَنْبتَي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً،ولا تعوجّوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام،

---

(١) انظر: قطب، سيد، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**، ص٨٣– ٨٥.

والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم"(١)، وهذا الحديث الشريف عرض شامل للإطار الذي يحكم حركة الإنسان، والمحو الثابت الذي تدور حوله بحركتها، ومعرفة هذا الإطار يتيح للإنسان اتباع أحسن العمل.

وبما أنّ لفظ الارتقاء يدلل على الصعود(٢)، **فإن المقصود بالأسس الارتقائية القرآنية هي:** الأسس التي تجمع بين الاعتقاد والعمل بمقتضياته، وهي ارتقاء الاعتقاد بظهوره على سلوك الفرد، متأثراً بالعقيدة الكامنة في النفس، كانعكاس عنها، حيث يكون هذا الانعكاس بمثابة مقياس لمدى ولوجها في القلب، وهذه الأسس "جلية الخطر، فليس يدرك مكانتها إلا حكيم معنيٌّ بالأهداف العليا للتربية الدينية"(٣)، حيث إن في فصل الاعتقاد عن العمل فصل للدين عن حياة الفرد. وهذه الأسس متمثلة بقول الله تعالى:"اتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ"(**الزمر٥٥**)، فيكون سلوك الإنسان في دائرة الحسن، ولكن الانتقال والتغيّر يكون من الحسن إلى الأحسن، حتى يزداد حسناً في إيمانه وسلوكه.

---

(١) أخرجه الإمام **أحمد في مسند الشاميين** من حديث النواس بن سمعان الكلابي الأنصاري رضي الله عنه ج٢٩، ص١٨١-١٨٢، والترمذي في سننه، كتاب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في مثل الله لعباده، حديث رقم(٢٨٥٩)، ص٦٤٢ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، ويقول صاحب المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه.

(٢) هذا المعنى اللغوي للجذر (رقي)، حيث أن له ثلاثة أصول متباينة الأول منها هو الصعود، والآخر عُوذَةٌ يُتعوَّذ بها، والثالث بقعةٌ من الأرض. انظر: معجم مقاييس اللغة،المجلد الأول ، ص٤٨٠.

(٣) الغزالي، محمد، **كيف نفهم الإسلام**، مصدر سابق، ص١١٦.

إن قيام حياة الإنسان على جوانب ماديّة ومعنوية، وارتباط هذين الجانبين بعلاقات التأثر والتأثير المتبادل، الناتجة عن التكامل الخلقي والنفسي للفرد، ذو أثر واضح على التغيير الارتقائي في حياة الفرد؛ فلا بد من الصعود المعنوي للنفس، لبلوغ أعلى درجات اليقين والاطمئنان القلبي، النابع من عمق الإيمان اليقيني بالله جل وعلا، أو بمعنى آخر زيادة الارتقاء بقيام الفرد بالالتزامات المفروضة عليه من الله بزيادة تفعيل الإرادة الإنسانية ضمن حدود منهج الله، فالإيمان القلبي وزيادته في النفس له انعكاس ملموس على السلوك، فهو يصل بالفرد إلى مرتبة الإحسان العملي، ومن هذه النظرة نجد أن النبي عليه السلام فرّق بين مراتب الإسلام والإيمان والإحسان([1]) ليتسنّى للناس([2]) التنافس والسعي الحثيث للوصول إلى درجات ارتقائية، "ليسير الإنسان على شعاع هاد من الكمالات الإلهية وراء مثله العليا، ويرقى في السلوك الإنساني كله رقياً تتحقق فيه المعرفة والفضيلة، ويتنزه به عن الدنايا والرذائل، ويبتعد به أتم البعد عن الخرافات والأباطيل"([3])، لضمان إقامة العقيدة في المجتمع المؤطر بأسس العقيدة الإسلامية القائمة في نفس كل فرد.

---

(١) سبق تخريج الحديث الشريف ص٩٩، والحديث طويل عن أبي هريرة: "..... وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...." إلى آخر الحديث الشريف.

(٢) أو بمعنى آخر حينما يتجسد التغيير كعقيدة ارتقاء في نفس الفرد فيسعى لطلب الأكثر كلما أنهى مرحلة متقدّمة في مسيرته المادية والمعنوية.

(٣) الغزالي، محمد، **كيف نفهم الإسلام**، ص١١٤.

كما أن هدف القرآن الكريم إيجاد التقوى في القلوب لقوله جل في علاه :"وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ **يَتَّقُونَ** أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً"(طه١١٣)، وعلاقة التقوى بالتغيير علاقة متينة؛ حيث إن التقوى هي حفاظ على عقيدة الفرد التي تأصّلت في نفسه، فيُقال"وَقَيْتُ الشيء أَقِيه إذا صُنْتَه وسَتَرْتَه عن الأَذى... وحميته"(١)، و(تَوَقَّ) أي تجنّب(٢)، والحفاظ على سلامة عقيدة الفرد يعني تثبيتها في النفس، وهذا التثبيت لا يخلو من زيادة الإيمان لقوله تعالى:"**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً "(مريم ٧٦)، وانتقال مرحلة الإيمان بالله من الاقتناع إلى الاستشعار بمراقبة الله تعالى، فالتقوى هي:" ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به (المتقي)، وهي العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي... بانتفاء فعل القبيح "(٣)، ولا تكون إلا عند " ترك حظوظ النفس، ومباينة النهى"(٤)؛ لأنها تقوم على"الاحتراز عما لا ينبغي"(٥) مما لا يوافق المنهج المنظِّم للحياة، وعلى ذلك جاء القرآن الكريم بتعريف للملتزم بالتقوى(المتقي) في مواضع فقال تعالى:"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ"(الأنبياء٤٨)، فإذا سأل سائل: مَنْ هم المتقين؟، فيكون الجواب: هم "الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ"، وكذا في قوله تعالى:"وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري ، **لسان العرب**، مادة (وقي).

(٢) انظر: المصدر السابق نفس الصفحات.

(٣) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ص٧٦٦، بتصرف.

(٤)الجرجاني، **التعريفات**، مصدر سابق، ص٦٩.

(٥) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد ٩، ج٢٦- ص٤٣٢.

الَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ"(**الزمر٣٣**)، فالمتقي في الآية السابقة هو "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ .."، وفي اجتماع الآيات الذاكرة للتقوى والمتقين هو إنشاء التصور للسلوكيات المحققة لهذه الصفة.

إن نتاج التغيير الحاصل في النفس هو قيام الإنسان بالسلوك المناسب للعقيدة التي اعتنقها، وإن قول جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة([1]) هو تصوير مقارِن بين واقع الإنسان قبل نزول القرآن الكريم، وواقع الإنسان بعد أن تغيّر بالقرآن، وذلك يعود إلى أن شمول التنظيم القرآنيّ لحياة الناس، من خلال فرض إلتزامات وجبت على كل من اعتنق بعقيدة القرآن أن يعمل بها، وهذه الإلتزامات دقيقة المسلك ،عميقة المعنى. وهي:

<u>أولاً: تغيير النظرة للإنسان بإيجاد إلزاميّة التكريم للكيان الإنساني:</u>

لقد جاءت المنهج القرآني بتقرير الكرامة للناس أجمعين، فقال تعالى:"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"(**الإسراء٧٠**)، ولقد أوضح القرآن الكريم كيف أتى على عالم ساد فيه ظلام وظلمات، فقال تعالى:" الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "(**إبراهيم١**)، فالجاهلية اشتهرت بظلمات الظلم بهتك كرامة الإنسان قبل الإسلام، وقيام الأحكام الدنيويّة دون منهج ضابط لها، وكان ميزان العقل في الحكم على الناس ميزان منصب ومال وجمال وجاه، حتى صارت المناصب والمال والشهوات أساس القيمة الإنسانية في ميزان البشرية، مما فتقوم قيمة الحياة للإنسان الذي لا مركز له ولا المال على المهانة والذل، حتى نتج عنها السخط النفسي على الحياة، وعمّ الجهل لأسبابها وغاياتها، فتاقت تلك النفوس للخلاص من هذه الحياة، بأمل يتجدد عند انتظار رسالة العدل – **القرآن**– التي

([1]) سبق توثيق هذا القول، انظر: التمهيد.

انتشر خبر قدومها قبل مجيئها تمهيداً ربّانياً للنفس التي سيأمرها بتغيير ما فيها، وتحمّل كل الصعاب للوصول إلى قمم هذا التغيير.

إن الارتقاء في التعامل الإنساني بين الناس هو من أهم أسس التغيير الارتقائي، فالظنّ الذي في الجاهلية بأن هناك السادة والعبيد، وأن السادة هم الذين يملكون حق القتل للنفس والأولاد والاعتداء على الحرمات، وظلم المرأة ووأد البنات، وأكل مال الضعيف واليتيم بغير حق، وأكل الربا وشرب الخمر...إلخ من الفحشاء والمنكر، دون رادع أو قانون، كلها وما يترتب عليها من الظلم المادي والمعنوي والنفسيّ، وبما فيه من ظلمات وضلال، كانت كفيلة بأن يجعل لقدوم دين إلهيّ يعطي المكانة للكل دون البعض من الناس، ويغيّر هذا الاعتبار المادي، القائم على الهوى والشهوة، إلى قيام الاعتبار المعنويّ الذي حصر التفاضل بين الناس في أمر واحد هو **التقوى**، فقال جل وعلا:"يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(الحجرات١٣)، وجاءت حجة الوداع في آخر ما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بقوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ **إِلَّا بِالتَّقْوَى** أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ وَلَا أَدْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ"([1])، ليكون منهج الله تعالى المتمثل في كتابه وسنة نبيّه داعين لتغيير النظرة للإنسان من مهانة المادة التي تأخذ الناس بالظاهر، إلا كرامة الدين

([1]) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، في باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

الذي يفضّل الناس بتقواهم لله تعالى، فبمدى صلة الإنسان بربه تكون كرامته، وبمدى سلامة عقيدته يكون مقامه.

لقد كان التغيير الحاصل هو العدل والمساواة بين جميع الناس دون تخصيص أحد منهم إلا بالتقوى، فيحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وكلّ ما سبق من تغيير يوافقه طبع الإنسان في حب من يوجِد له الكرامة، ويعطيه المكانة، لينصَفَ الإنسان من نفسه بداية التغيير، ويكون من أكثر الإلزامات الإلهية قبولاً على النفس هي **الكرامة الإنسانية**، فيكون التشريع المنهجي في كتاب الله تعالى محققاً للحفاظ الإنسان في تفاصيل حياته، فيحلّ له ما ينفع، ويحرّم عليه ما يضرّ، ويؤكد على طريقة التعامل السليم مع الآخر، كل ذلك مع ارتباط وثيق بالعقيدة التي بناها القرآن الكريم في جوهر الإنسان، لقوله تعالى:" قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"(الأنعام١٥١-١٥٢).

<u>ثانياً: إلزامية العبادة لله في تفاصيل الحياة:</u> إن لهذا المرحلة من الإلزامية جانبان:

-الأول: عبادة الله بإقامة النسك المختلفة من صلاة وصيام وزكاة وحج:

لقد كان للعبادات الموقع الوسط في علاقات الإنسان عند قيام عملية التغيير الفردي، إذ أنها تعتبر الرابط التشريعيّ الذي يحافظ على صلة الإنسان بربه من خلال إقامة العبودية لله ابتداء من النية وحتى انقضاء النسك، وتحافظ على الصلة بين الناس بتوحيدهم على كلمة الله وعبوديته في مواقيت محددة وأماكن مخصوصة ومقادير مفروضة، وتحافظ على علاقة الإنسان بنفسه بتقوية الجانب الروحيّ الذي يَنتج من قيام خير علاقة بين الإنسان وربّه، حيث تُعتبر المورد الأول

للسعادة القلبية والاطمئنان النفسي، كما أنها تعمل على استمرارية ردّ الإنسان لفطرته الموحّدة، والتذكير بالله لعدم حصول الغفلة، وتفعيل المنهجيّة الناقدة عند المحاسبة على الأعمال، ومواجهة النفس بما كسبت للتخلص من شوائب الذنوب والأخطاء، وزيادة ما كان من خير فيها، وكلها أمور منهجيّة لضمان تغيير النفس الإنسانية نحو الارتقاء في الوصول إلى أعلى درجات الالتزام بما ورد في منهج القرآنيّ.

والعبادات في الأسس الارتقائية تربط بين أركان الإسلام وأركان الإيمان في النفس، حيث إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ضمن دائرة الإيمان القلبيّ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، يجعل من التواصل بين السلوك القلبي والسلوك العملي علاقة تبادليّة تأثيريّة، وتتلخص هذه العلاقة بمسمّى النيّة، وهي في اللغة التحّول كما جاء في معجم مقاييس اللغة أن :"النون والواو والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على معنيين: أحدهما مَقْصَدٌ لشيء... وهو من النوى المقصود به التحوّل من دار إلى دار... وهذا هو الأصل، ثم حمل عليه البابُ كلُّه فقالوا: (نوَى) الأمرَ يَنوِيه، إذا قَصَدَ له. وممَّا يصحِّح هذهِ التآويلَ قولُهم: نَوَاه الله، كأنَّه قَصَدَه بالحِفْظِ والحِياطة"([١]).

والتحوّل هو المرحلة الأولى لبداية التغيير([٢])، فتكون النيّة سلوك عمليّ يوجه التغيير ويربطه بالاعتقاد، فجعْل الإيمان القلبيّ شرطاً لإقامة الشعائر الدينية التي تعتبر من أسس تفعيل السلوك المتغيّر في الفرد عند أداء عبادة من العبادات، لذا كان لا بد من الإلزام.

كما أن وجوب النية مرتبط بوجوب العبادة؛ لأنها-العبادة- العلة لخلق الإنس والجن في قول الله تعالى:"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ"(الذاريات٥٦)، فوجود النية في الأعمال كلها أصل لقيام

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص ٥٣٠، بتصرف.

(٢) كما مرّ في مبحث تعريف التغيير والفرق بينه وبين التحويل والتبديل.

علاقة الإنسان بربه على قيمة خلقيّة تسمى (الإخلاص)، وهو سرّ بين العبد وربّه لا يفسده الشيطان، ولا يطّلع عليه إنسان، فهو أصل لدقة العمل وأساس لمعياريّته التي تقوم عليها الغاية من الخلق وهي العبودية لله تعالى، وقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم بالإخلاص كشرط في التعامل مع الله تعالى فقال:"وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ"(البينة٥)، وفرض تكرار العبادة في أوقات معينة بمثابة تذكير مستمر لهذه القيمة الخلقية، فهي تُبعد الإنسان عن الغفلة التي تكون سبباً لهلاكه؛ لأنها "تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التمرد ودرن الطباع المتراكم في أوقات الغفلات عن الإنسان، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه"([1])، كما أنها زوال لظلمة "الشواغل العارضة في أزمنة ارتكاب الشهوات، وجعْل يوم من أيام الأسبوع مخصوصاً للاجتماع على العبادة، وإزالة وحشة التفرقة، ودفع ظلمة الاشتغال بالأمور الدنيوية"([2]) هو سبيل للتوحيد الذي يجمع الأفراد الملتزمين بمنهج القرآن الكريم، لقيام مرحلة جديدة من أهداف القرآن وهي توحيد الجماعة على عقيدة الإسلام، فيكون الإخلاص قيمة خلقيّة بتعامل مجموع الأفراد مع الله تعالى، وترتقي القيمة من الفرد إلى الجماعة بإخلاص العبودية لله بكل أمور الحياة ولحظاتها، وعلى المستويات الفردية والجماعيّة كافة.

إن صدق النية في التعامل مع الله تعالى في أداء العبادات سلاح السالكين في محاربة النفس والانتصار عليها، بالتزام أدائها وفق شروطها، والانتصار على النفس هو **التغيير** الخاضع لإرادة

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مجلد٢، ج٦- ص ٤٨٢، وقد قال هذا الكلام في سياق الحديث عن الصلاة عند حديثه عن حكم المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، إلا أن العبادات دون استثناء تُحقق هذا الأمر في الحقيقة.

(٢) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج١- ص٣٨٦.

الإنسان، فالانتصار على النفس مشمول بالنداء في قوله تعالى:" يَأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"(محمد ٧)، فلا يتم لأحد تهذيب الظاهر قبل إصلاح الباطن، كما أن العبادة تمثّل تذكيراً مستمرّاً لفكرة العجز الإنسانيّ أمام قدرة الله تعالى،" ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفته ربه بالقدرة والكمال من أعظم العبادات"([1]).

وتأخذ العبادة موقعاً أيضاً في قيام تقوى القلوب، ولها دور هامّ؛ لأنها تجعل العمل يتسم بدقة التطبيق لتشريعات المنهج، كما أن التقوى هي"الحذر مما يكره الله، وحصول صفات الكمال التي يجمعها التدين، والغاية من العبادة والنتيجة لها، لذا فإن رجاء حصولها عند الأمر بالعبادة وعند عبادة العابد أو عند إرادة الخلق والتكوين واضحُ الفائدة"([2])، قال تعالى:"ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ "(الحج: ٣٢)، فوجود التقوى غاية للعبادة؛ لأنها" أساس الخير في الدنيا والآخرة"([3])، ولأنها "الضمان الأول والأخير، فهي الرقيب اليقظ الساهر على القلوب"([4])، و"الحارس القابع في أعماق الضمير؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فراراً منه؛ لأنه في الأعماق"([5]).

ثالثاً: تغيير الأحكام بين الناس إلى أحكام شرعية منهجيّة عمليّة:

لم يقتصر البيان القرآنيّ على تنظيم العبادة الشعائريّة فحسب، إنما أقام أسس تنظيم العلاقات بين الناس بأحكام تفصيليّة منبعها العقيدة تضمن لكل ذي حق حقّه، ولقد تجلّت هذه الأحكام الشرعيّة في بيان الفارق بين الحياة العشوائية التي يحياها كل من أهمل تطبيقها، فاستُبدلت الأحكام

---

(١) المصدر السابق، ج٨–ص٥٢٦.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، المجلد الأول، ج١– ص٣٣٠ ، بتصرف.

(٣) **المصدر السابق**، المجلد ٧، ج١٣– ص٧٢.

(٤) **المصدر السابق**، المجلد الخامس، ج٢٢– ٢٨٧٩.

(٥) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، المجلد الأول، ج٣– ص٣٣٣.

السائدة في الجاهلية أحكاماً قرآنية منهجيّة منظمة للعلاقات الإنسانية كافة، سواء أكانت أحكاماً اجتماعيّة تضمن إشباع غرائز النفس مع ضبطها، كي لا تكون مطلقة القيود، تقوم على الاعتداء على الغير، فشرّع أحكام إقامة الأسرة بما تتضمنه من دقة الضبط زواجاً وطلاقاً وميراثاً، وأحكام البيع والشراء، وأحكام الكسب والعطاء..إلخ، وأحكاماً شرعيّة تنظم علاقة الفرد بنفسه أو مع غيره، فحرم الانتحار والقتل، وأكل الميتة، وشرب الخمر..إلخ.

إن الإلزام في تطبيق الأحكام الشرعيّة فعلاً وتركاً لهو كفيل بتنظيم الحياة الإنسانية تنظيماً يُنشئ البيئة السليمة التي تحافظ على ضمان بقاء التغيير الارتقائي في الإنسان مستمرّاً، فما احتواه المنهج القرآنيّ من ضمان للارتقاء لم يكن في جعل تطلعات الإنسان للتقدم مطلقة دون حدود، وفي نفس الوقت لم تكبت تلك النظرة في كيان الإنسان، بل وازنت بين الفعل والترك، لأن"ترك المنهيات مقدم على فعل المأمورات...، فالترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها؛ فكان الترك قبل الفعل لا محالة... وقد يطلق على الترك فعل الضد"(١)، فيكون الترك أحياناً محققاً للتغيير في جعل الأمر على أصله.

فمثلاً الإلزام بعدم شرب الخمر هو ترك في حقيقته لإضرار الإنسان بنفسه عند شربه، إلا أنّ له أبعاداً أخرى؛ فهذا الترك يقتضي حفظ أهم الاستعدادات التي وضعها الله تعالى للإنسان لضبط سلوكه، فعدم الإلزام بهذا الحكم غياب للعقل، وغيابه موجب للغفلة، والغفلة مدخل الشيطان الذي يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي، فيكون تجاوز هذا الإلزام اقتراف منهيات أخرى، كوقوع زنا أو سرقة أو قتل أو غيرها من انتهاكات حرمات الله، والأمثلة على الاعتداء على حدود الله كثيرة تكشف أستارها الأحداث والوقائع، قال تعالى:"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد الرابع، ج١٢، ص٣٤٩، بتصرف.

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ"(**المائده٩٠-٩٢**)، والاعتداء على حدود الله هو ذاته الخروج عن منهج القرآن الكريم، لذا أمر الله تعالى وحذّر من الاعتداء على حدود الله بالخروج عن منهجه، فقال تعالى:"وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ"(**الطلاق١**)، وقال في موضع آخر: "... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"(**البقرة٢٢٩**)(١)، وحذّر حتى من الاقتراب منها، فمن لم يقترب فالأولى أنه لن يلجها، قال تعالى أيضاً: "... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"(**البقرة١٨٧**).

لقد جاءت النظر إلى كيفية الحكم على التعاملات الإنسانية في العلاقات القائمة على أداء الحقوق والواجبات بين الناس، وتحديد العلاقات الإنسانية عند قيامها على تعاملات اجتماعيّة يُجبر الفرد على التواصل مع الجماعة بها كما جاءت في القرآن الكريم، وفي مقارنة بين حياة غير محكومة بمنهج القرآن وحياة كانت أحكامها منهج القرآن، نجد أن الأحكام الشرعية التي توالت مذ نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة لا يمكن حصرها؛ لأن القرآن هو المصدر الأول الذي يقاس عليه أي حكم يصدر، والسنة ما هي إلا أحكام الله تعالى على لسان نبيّه عليه الصلاة والسلام، فحصر الأحكام العملية ودورها في التغيير ضمن جزئية واحدة من دراسة، أو إفرادها في دراسة

---

(١) من خلال آيات القرآن الكريم تبيّن لي أن التعبير بـ (حدود الله) من تحذير وتوجيه وارد فيما يتعلق بأحكام الأسرة من تعامل الرجل مع زوجته، أو أحكام الميراث، أو الطلاق، ولربما سبب ذلك ما كان من هتك قيمة المرأة في الجاهلية حتى جعل حياتها مجرد متاع متى زال فلا قيمة لحياتها، وكأنها غير معتبرة من البشر، لذا كان للشدة في الخطاب نصيب كبير لئلا يتهاون الناس في ذلك، ولإزالة هذا الاعتقاد السقيم من النفوس، ولإيجاد قيمة الإنسان وكرامته على اختلاف الجنس.

يكون بمثابة عدّ ما لا يُعدُّ، وإحصاء ما لا يُحصى؛ لأن الدين الإسلاميّ جاء مرناً في هذه الأحكام بما يحقق للإنسانية اليسر والمصلحة، لذا فإن الإشارة الشاملة لدورها في التغيير كان هو النصيب الممكن في هذه الدراسة.

رابعاً: إلزامية الأخلاق التعاملية:

تعتبر الأخلاق من أهم مظاهر الارتقاء الإنساني على المستويات كافة، فهي تنقسم إلى قسمين:

***- القسم الأول:** ما كان إلزاميّ التطبيق، ويترتب على عدم إقامته العقاب؛ لأنه يقع من الدين موقع الواجب، فهو يمثل ارتقاء الفرد من الاعتقاد السليم إلى التطبيق القويم، وهذا مظهر آخر من مظاهر الأحكام الشرعيّة التي تمثل حقيقة العقيدة الإسلامية، وهو ما سيتم بيانه في هذا الموضع.

***- والقسم الثاني منها:** ما كان منبعه حب الالتزام الطوّعيّ من الإنسان بما ورد في القرآن، فهو في دائرة المستحب، ويترتب على إقامته الثواب، ولا عقاب على تركه، كالصفح عن المسيء مع جواز الانتقام مثلاً. وهذا ما يسمى بالارتقاء إلى الكمال الإنسانيّ الذي جاء الحديث عنه في المطلب التالي من الدراسة.

أما التفصيل في القسم الأول: إن محو الحديث في هذا القسم هو الأخلاق التي يكون ضدّها محققاً للإثم والحساب، فمثلاً خلق الكذب الذي هو ضد الصدق، والخيانة التي تخالفها الأمانة، والغدر نقيض حفظ العهد، وإخلاف الميعاد الذي هو نقيض الالتزام بالوعد... ومثل هذه الزمرة هي محور الحديث من بين الأخلاق مما، وهذه الأخلاق قد تكون في التعاملات الشرعيّة، وعليها تندرج تحت إلزامية الأحكام الشرعية، وقد تكون في تعاملات إنسانية أخرى كتعامل الكبير مع الصغير مثلاً فليس من حكم شرعيّ ضابط إلا بوجود أمر يستوجبه الشرع، فيجب عندها أن يكون التعامل محكوماً بضابط أخلاقيّ يوجب التعامل بإحسان معه.

ولقد جاء القرآن الكريم للنهوض بالقيمة، وتغيير اعتبارها من اعتبارات يضعها البشر إلى اعتبارات جاءت من رب البشر، "وإن الواجب الخلقي يقوم على فكرة القيمة التي نستمدها من مثل أعلى، والعقل والوحي مظهران لتلك الحقيقة الأساسية التي تعتبر المصدر الحقيقي للإلزام الخلقي"([١])، حيث إن هذه الإلزامية الأخلاقية نابعة من العقيدة الإلهية؛ لأنها تمثل" الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها تسمو على الفرد، وتفرض نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته، بحيث يغذي إيمانه العقلي طاقاته الخلاقة، باعتباره واجباً مقدّساً، فالأخلاق الإلزامية تضع الضمير الإنساني في وضع متوسط بين المثالية والواقعيّة، مما يؤدي إلى **تغيير** مزدوج ناتج عن الدمج بينهما؛ ليكون نصيب الواقع حدوث الجديد في الاتجاه نحو الأفضل، ونصيب المثالية من التغيير ذاك التعديل لملاءمة الواقع نتيجة الاحتكاك بالحقيقة الحسيّة"([٢]).

كما أن أهمية وجود إلزام خلقي يعني وجود وجه آخر من وجوه المسؤولية للإنسان، فإن كان إعطاء الاختيار للإنسان في تحديد طريقه بداية هو وجه من وجوه تحمل المسؤولية لهذا الاختيار، يكون إلزام الفرد بعدم الاختيار لنظام أخلاقيّ منشؤه القرآن هو قيام درجة أعمق من درجات المسؤولية الفردية، وهي مسؤولية الفرد تجاه الجماعة بإلزامه أداء الحقوق لأهلها؛ لضبط حب النفس في الإنسان، والارتقاء به إلى حب الجماعة لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم:"لا يؤمن أحدكم حتى

---

(١) دراز، محمد عبد الله، **دستور الأخلاق دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تقريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٤، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، **مقدمة الكتاب للسيد محمد بدوي**، ص (ي ج – ي د).

(٢) المرجع السابق، **دستور الأخلاق، مقدمة الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي**، ص(ي– د)، بتصرف.

يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(١)، لأن عدم وجود هذا الإلزام قيام الفوضى، وانحدار في تحقيق العدالة الإنسانية(٢)، وهذا ما يميّزها عن القسم الثاني، هو تعلّقها بالعدل في الإنسانية، ولقد جاء الأمر الربانيّ في القرآن بتصريح وجوب العدل فقال تعالى:"إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً"(**النساء٨٥**)، وجاء في موضع آخر:"إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"(**النحل٩٠**).

إن وجود قانون الإلزام الخلقي يهيئ قيام البيئة المناسبة للحفاظ على النفس المتغيّر في الفرد من جهة، بعد أن قطع هذا التغيير في نفس الفرد شوطاً ليس باليسير، لقيام عقيدة القرآن فيها، ومن جهة أخرى، فإن القانون الأخلاقيّ يعمل على تفعيل التقويم الجماعيّ لإقامة الارتقاء الفردي، وتأييد الإلزام العقدي، وإيجاد التشجيع والتسلية أمام الصعوبات التي تمنع عملية التغيير من التقدم في نفس الفرد، وضبط النفس بحاجاتها وشهواتها وهواها، فقيام القيمة الأخلاقية على مستوى المجتمع تغيير اجتماعي للعادات والقيم السائدة فيه، وهو ضمان لبقاء الإنسان ضمن دائرة التغيير الإيجابيّ والارتقاء به، وانتقال عملية التغيير من الفرد إلى مستوى الجماعة.

---

(١) أخرجه **البخاري في صحيحه** كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث رقم ١٢، ج١- ص٦٩.

(٢) انظر: دراز، محمد عبد الله، **دستور الأخلاق**، ص٢١.

المطلب الثاني: أسس القرآن الكريم لإحداث التغيير إلى الكمال الإنساني النسبيّ([١])

لقد شهدت الخليقة منذ الأزل على كمال خلق الله وجمال صُنعه، ولقد خلق الله تعالى الإنسان على أحسن تقويم، وأكمل صِنعة، وأجمل صورة، وجعل منهج القرآن الكريم سبيلاً للجمع بين جمال الخِلْقة وكمال العمل، وكان كل ذلك لتحقيق الكمال الإنسانيّ النسبيّ لتتكامل جوانبه المادية المعنوية في اتجاه واحد، وهذا الاتجاه هو توجه النفس بكل جوانبها نحو خالقها، وإن من أجمل مظاهر تحقيق الكمال الإنساني هو سليقة الشوق إلى الكمال([٢]) الملازمة للإنسان خلال مسيرة حياته، ليأتي قول الرسول صلى الله عليه وسلم موجّهاً لها بقوله:" أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ"([٣])، والتعبير بقوله **(أكمل)** دليل على وجود أتم الأعمال وأحسن الأخلاق مع

([١]) لم أقصد من **مفهوم الكمال لإنساني** ما قصده ابن عربي في كتابه الإنسان الكامل، فعندما تحدث في معنى الكمال قسم الإنسان إلى درجة الإنسان الكامل والإنسان الحيوان، وقال أن الإنسان الكامل هو "على صورة العلم بالله القديم... وأنه روح العالم كله، والعالم مسخر له حتى الإنسان الحيوان، وأنه العين المقصودة وكل الأسباب وجدت لأجله،لأنه يقف على الحقائق كشفاً وتعريفاً إلهياً لذلك استحق الكمال، وأن هذه المرتبة هي أعلى مراتب الإنسانية ويعتبر صاحبها ظل الله ونائب الحق...." إلى آخر كلامه الفلسفيّ، انظر: ابن عربي، محيي الدين، الإنسان الكامل والقطب الغوث، جمع وتأليف محمود محمود الغراب، بدون دار نشر أو رقم طبعة، ص٨. أما المقصود في هذه الدراسة من قضية الكمال الإنساني فإن زيادة الالتزام بمنهج الله تعالى يعني زيادة القرب في المنزلة عند الله تعالى، ويصدق عليه قول الله تعالى في سورة الواقعة:"والسابقون السابقون أولئك المقربون.."(١٠-١١).

(٢) انظر: العقاد، عباس محمود، **الفلسفة القرآنية** ، ص٣٠.

(٣) أخرجه **الترمذي في سننه** من حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، ص٥٩٤، **قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ** ، **أبو داوود في سننه**، تحقيق رائد بري ابن أبي علفة، دار طويق للنشر والتوزيع، ط١،

وجود الحسن، لتأتي المفارقة بين الخُلُق الإلزاميّ والخُلُق الأمثل، حيث إن الخُلُق الأمثل والعمل الأحسن هو ما يوصف بالكمال، فالفارق بين مبحث طلب الارتقاء وطلب الكمال هو السمو في مراتب مختلفة؛ فالارتقاء سموّ في مراتب الالتزام **بالواجبات والمفروضات**، أما مراتب الكمال فهي سلّم يسمو فيه الإنسان صعوداً عند الالتزام في مراتب العمل بالمباحات والمستحبات، والفارق بينها كبير بيّنه الحديث القدسيّ فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام عن ربه عزّ وجل:"...وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ..."(١)، ومن هنا يكون سلّم الكمالات طلباً لمحبة الله تعالى، ودرجات الارتقاء في المفروضات طلباً لرضا الله تعالى واجتناباً لمعصيته.

ولقد "جعل الله الكمال الإنساني حاصلاً عند حصول جميع الصفات النافعة فيه...؛ ولأن الذوات الكاملة الفاضلة أقل من ضدها– الضار– صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأُحيطت عزتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر، وبما يحفّ بها من الخطر والمتاعب؛ لأنها لو كانت

١٤٣١هـ/٢٠١٠م، كتاب السنن باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصه حديث رقم (٤٦٨٢)، ص٥٨٦ ، ومسند أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبو هريرة، ج١٢– ص٣٦٤، والدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام(٢٥٥هـ)، ، سنن الدارمي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، كتاب الرقاق باب في حسن الخلق، ص٤٠٠، **وسنن النسائي الكبرى** في كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ج٥– ص٣٦٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع.

مما تنساق لها النفوس بسهولة؛ لاستوى فيها الناس، فلم تظهر مراتِبُ الكمال، ولم يقع التنافس بين الناس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها"(١).

والكمال الإنسانيّ متعلق بحب الجمال، فالكمال الإنساني في القرآن متصل بالتبعيّة للنظام الأخلاقي، أو للقيم الأخلاقية، واجتماع معنى القيمة الخُلُقية والتفكير الجماليّ في الإنسان دافع "بأن يدين الإنسان نفسه بهما؛ لأنه يأبى أن يشين نفسه، ويعتبر الشيْن غاية ما يخشاه من عقاب"(٢)، فيكون محاسباً لنفسه على حدود الأخلاق، ومفعّلاً كل استعداداته في زيادة الالتزام الذاتيّ للمنهج الرباني بتلقائية في حياته كهدف يسعى إليه دوماً، فكلما زاد الإنسان تمسّكاً وتطبيقاً لمنهج الله تعالى، كلما كان أقرب للكمال الإنسانيّ الذي جاء المنهج القرآنيّ لتحقيقه، فيتحوّل تفكير الإنسان الجماليّ نحو التمسك بتعاليم منهج الله تعالى وينساق معه، وينضبط بحدود القيمة الأخلاقية المستنبطة من القرآن الموصلة للفلاح، قال تعالى:"يآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(المائدة٣٥)، يقول الآلوسي في معنى الوسيلة "أي واطلبوا إليه تعالى الزلفى بتحليتها(٣) بالأخلاق المرضية"(٤)، ووصف الله تعالى الساعين إلى الكمال بقوله: "أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً"(الإسراء٥٧)، فهذه الآية تشير إلى عنصر المنافسة في القرب من الله تعالى بالأعمال والأخلاق الصالحة.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، المجلد الثاني، ج٢- ص٣٢٢، بتصرف.

(٢) العقاد، عباس محمود، **الفلسفة القرآنية**، ص٣٠.

(٣) وتعني التحلية جعل الشيء أحلى مما كان عليه، أو جعل الشيء أجمل مما كان عليه.

(٤)الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج٧- ص٤٠٢.

إن زيادة العمل الصالح هو **تغيير ارتقائيّ** أسمى، يوصل الإنسان إلى أعلى درجات التطبيق لما جاء به القرآن الكريم، ولهذا الجانب من التغيير طرق، منها:

١- **اختيار الأفضل بين الأعمال فيما يكون الإنسان به مخيّراً:** قال تعالى:"الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الأَلْبَابِ"(الزمر١٨)، وهي القدرة على التنازل عن حظ النفس، باختيار الأفضل من بين الأمور الصحيحة، والأحسن بين الأعمال المباحة، "فليست القوة بفعل الفرد ما يشاء؛ بل القوة الحقيقية في المنهج القرآني بفعل الأفضل بين الخيارات الفضلى، وردع النفس عن الفعل عندما يخالف النظام الأخلاقي كمبدأ قرآني"([١]) فيما يكون للنفس فيه حظ، وظهر ذلك جليّاً في ورود صيغة **(أحسن، أفضل)** لتفضيل هذا الاختيار، ورفعة هذه المنزلة، حيث إن هناك حدّاً أعلى من الأخلاق تقرّب النفس من ولوج الكمال الإنسانيّ، وهناك حدّاً أدنى من الأخلاق التنازل عنها تحوّل عن الأساس السليم في المنهج إلى الخلق الذميم؛ لأنه يمثل بداية الانحدار في الضلال، أو هو نقطة بداية الخلق السقيم، فمثلاً طبيعة الغضب في الإنسان مثيرة لكل حظوظ النفس، لذا فقد مدح الله جل وعلا الغافرين رغم الغضب لاختيارهم الغفران رغم قدرتهم على أخذ الحق ممن ظلمهم، وجعلها من أجلِّ صفات الإيمان في قوله: "فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ"(الشورى٣٦-٣٧)، ولما كان الغضب مانعاً من الارتقاء، بل لربما ينهار بالأسس التي تعب الإنسان في بنائها زمناً، بلحظة غضب لا يعرف أين تؤدي به، ومن هذا

(١) العقاد، عباس محمود، **الفلسفة القرآنية**، ص٣٠، بتصرف.

الباب جاءت وصيّة النبي صلى الله عليه وسلم للرجل السائل عندما طلب منه وصيّة فقال:"لا تغضب"([1]).

٢- **جهاد النفس وتزكيتها:** إن قيام أسس التغيير للوصول إلى درجات الكمال الإنساني يكون بداية بوجود جهاد نفسي لتحقيق الالتزام، حتى يصبح هذا الالتزام جزءاً من النفس يعتاد الإنسان على القيام به برياضتها، وكلما اعتاد الإنسان على الالتزام بأمر ما تلاشى الجهد الناتج عن ضبط النفس تدريجيّاً، ويكون هذا الجهد قائماً ما دام الهوى تبعاً لغير الله تعالى قال تعالى:"مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ" **(الشورى ٢٠)**، وبهذا يكون الإنسان على أتم الاستعداد لتوجيه إرادته كما يريد الله دون أن يحسب لحظ النفس حساباً، فيقول جل وعلا فيمن يوجه إرادته توجيهاً فوريّاً وفق إرادة الله جل شأنه:"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ..."**(الأحزاب٣٦)**.

إن التزكية هي "الارتياض على قبول الخير"([2])، والمراد من قوله تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى"**(الأعلى١٤)**، أي تزكّى بالإيمان([3])، قال تعالى:"..وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"**(فاطر١٨)**؛ لأن" الارتياض على الأعمال الصّالحة شاغل للنفس عن السيّئات؛ ولأنّ الأعمال الصّالحات ارتقاءات وكمالات فهي معينة لجوهر النفس على الاتّصال بعالَمها الذي خلقت فيه، وأنزلت منه، وبعكس ذلك الأعمال السيّئة تبعدها عن مألوفاتها وتبلّدها وتذبذبها"([4])، وعلى ذلك

---

(١) أخرجه **البخاري في صحيحه** كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم (٩٩٣)، المجلد الرابع، ج٧- ص٣٥٧.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مجلد ١٥، ج٣٠- ص٢٨٨.

(٣)المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق، المجلد ٦، ج١٢- ص٢١١.

تكون دعوة إبراهيم عليه السلام في أمة محمد عندما جاء طلبه في الآية:"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ" (البقرة١٢٩)، فيكون الله قد منّ على المؤمنين بمنهجه الداعي إلى صراط مستقيم يزكي به النفوس لترتقي في مراتب كمال الالتزام، فقال تعالى:"لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ"(آل عمران١٦٤).

٣- **تحرّي دقة التطبيق لأوامر الله تعالى ودقة الفهم لمقاصده من أوامره:** إن دقة التقدير للأمور، ودقة تحديد موقعها من منهج الله تعالى، ودقة الحكم عليها خيراً أو شرّا، له الدور الفعّال في الرقيّ العمليّ نحو كمال الالتزام، ولا يكون دون ارتباطه بالمعرفة بتفاصيل الأمور والجزيئات والعلم بها، فبقدر العلم يكون الالتزام، وبقدر الالتزام يكون الكمال، لذا فقد كرم الله فئة العلماء الذين صرّح القرآن برفعتهم؛ لأنهم حققوا الإضافة المعرفيّة التي تُوصل بالإنسان إلى ذروة السموّ، ومعيارية التطبيق العملي لمنهج الله تعالى في مختلف المجالات والمواقف الحياتية، فقال تعالى:"... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"(المجادلة ١١)، فرفعت الدرجات جزاء الرقيّ بالأعمال، فهم الفئة القادرة على بلوغ الكمال الإنسانيّ بذاتها، وإعانة الغير لبلوغ درجات الارتقاء والكمال لوجود القدرة العلمية والكفاءة المعرفية والعملية على ذلك، ولدورهم في تفعيل القدرات الفرديّة الذاتية كافة في تحقيق التنمية وتنظيم قدرات أفراد المجتمع، والسعي إلى الرقي بالمجتمع من خلال دورهم الفعّال فيه، وهذا دليل إلى أنه كلما ارتقى الإنسان في العلم بتفاصيل منهج الله وتطبيقه، زاد فعاليّة وتأثيراً في مجتمعه، فالعلماء هم الفئة الصالحة المصلحة، والعلاقة بين العلم والارتقاء علاقة طرديّة، فكلما زاد الإنسان علماً، كلما زاد ارتقاءً وإيماناً، وكلما زاد الإنسان ارتقاءً كان أقرب إلى منازل الكمال الإنساني الذي يهدف القرآن لتحقيقه في الفرد والجماعة.

"ثم إنّ ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية، غايته أن يبلغ بصاحبه إلى الحكمة"(١)، والحكمة من حكم المتضمن معنى المنْع(٢)، ومنه "الحُكْمُ وهو المَنْع من الظُّلْم، والحِكمة هذا قياسُها؛ لأنها تمنع من الجهل"(٣)، وبما أن الجهل هو سبب سوء تقدير الأمور والحكم عليها، تكون الحكمة إذاً دقة التقدير، ودقة الحُكم على الأشياء والأشخاص والأحداث بناء على تجارب عملية تولّد المعارف الحياتية منبثقة عن أسس منهجية قرآنية تشمل الحياة كلها.

وجاء في التنبيه على تحرّي الدقة والمعياريّة في التطبيق العملي قول النبيّ عليه الصلاة والسلام:" إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ"(٤)، والشاهد في الحديث بيّنٌ، حيث إن عدم الانتباه للتصرفات والسلوكات المخالفة لمنهج القرآن يؤدي إلى اعتياد الإنسان على فعلها، وهذا الاعتياد هو كسر حاجز التقوى من القلوب، وانحدار في دركات التغيير السلبي.

٤- حث النفس على طلب أعلى الدرجات للزيادة في التغيير الارتقائي:

لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على توجيه أنظار أصحابه إلى القمم للارتقاء، وكان ذلك بتوجيه نظرتهم إلى أعلى درجة تحقق السمو والرفعة الإنسانية، وإيجاد التفعيل التنافسيّ للسعي الحثيث والجد والاجتهاد في بلوغ أسمى الدرجات، بقوله:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ **فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ**، فَإِنَّهُ

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، مجلد ٦، ج١٢- ص٢١٦.

(٢) انظر: **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص ٣١١

(٣) معجم مقاييس اللغة، **المجلد الأول ، ص ٣١١**

(٤) رواه البخاري في صحيحيه كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، حديث رقم(١٣٤٣)، المجلد الرابع، ج٨- ص٤٧٣.

أَوْسَطُ الْجَنَّـةِ، وَأَعْلَـى الْجَنَّـةِ، أُرَاهُ فَوْقَـهُ عَـرْشُ الـرَّحْمَنِ، وَمِنْـهُ تَفَجَّـرُ أَنْهَـارُ الْجَنَّـةِ"(١)، وقد خصّ الحديث الشريف المجاهدين؛ لأنهم هم الذين يُبدون الاستعداد الفعليّ التام لإثبات وجودهم ومكانتهم عند اختيارهم التخلي عن النفس والمال والروح في سبيل حفظ منهج الله ممن يريدون أن يطفئوا نوره، فيتنازلون عن الحياة الدنيا؛ لأنهم وصلوا إلى درجة اليقين القلبيّ بأن أنفسهم ليست ملكاً لهم، والاطمئنان بأن الله لا يُضيع أجرهم، وأثبتوا ذلك في العمل، كما أنهم ألزموا أنفسهم أن يبيعوا لله كل ما لهم في تجارة بينه وبينهم لن تبور، قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الّجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(التوبة١١١)، فكانت هذه الفئة من الناس مثالاً للتنازل التام عن الدنيا كلها طلباً للآخرة، وكان لارتقائهم حظ الكمال الإنسانيّ في الالتزام بتفاصيل القرآن، وكل ذلك التخلي جاء عن طيب نفس منهم.

وقد أثبتت الأدلة النقلية أن هناك فئات تحقق هذه الدرجة من التغيير الارتقائي غير المجاهدين، ففي قول الله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ" (فاطر٢٩- ٣٠)، فقوله تعالى: "وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ" دليل على تغيير حالهم إلى أحسن مما عملوا، فالتعبير بالفعل المضارع (يتلون) دليل على الدوام والاستمرارية في التلاوة، وقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم دليل على أن هناك من يقوم على كتاب الله ويكون صاحب الدرجات الارتقائية التي لربما توصله إلى الكمال الإنساني، فقال عليه الصلاة والسلام:"يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ

---

(١) رواه **البخاري في صحيحه** كتاب الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم(٩٨٦)، المجلد الثاني، ج٤/ ص٤٠٨-٤٠٩.

فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا"(١)، فالمداومة على قراءة كتاب الله تعني ازدياد المعرفة فيه، والمعرفة تقتضي التطبيق، والتطبيق لكتاب الله هو تطبيق منهجه في التغيير المستمر للارتقاء إلى أسمى الدرجات، قال تعالى:"وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ"(الأعراف ١٧٠).

وخلاصة القول: إن للنفس التي قامت أسسها على منهج قرآنيّ اعتباراتها بوجود ميزان تسعى من خلاله لتحقيق أعلى درجات السمو والرفعة المذكورة في القرآن، وإن النظرة العليا والكلمة العليا والقيمة العليا لهي من أهم المقومات والأهداف للمنهجيّة القرآنية في مختلف المجالات؛ الفكرية، والنفسية، والسلوكيّة، والأخلاقية، لتكون العقيدة الإسلامية هي عقيدة إيجاد الهمم العليا التي تأبى إلا التغيّر المستمر نحو الكمال الذي رضي به الله لعباده وجَعَل منهج القرآن سبيله، فيكون قول الله تعالى:"... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِيناً.."**(المائدة٣)** بمعنى الكمال الإلهيّ في التوجيه والتشريع والتغيير من الظلمات إلى النور بما جاء بمنهجه المتكامل، المتمثل بكتابه وصحيح سنة نبيّه، ليكون التطبيق لهذا المنهج هو السبيل الوحيد للوصول إلى الكمال الإنسانيّ بأعلى نسبة التزام حققها الفرد.

---

(١) أخرجه الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى(ت٢٧٩هـ)، **جامع الترمذي**، إشراف ومراجعة صالح عبد العزيز، دار السلام، الرياض، ط١/١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم ٢٩١٤، ص٦٥٥، وقَالَ أَبُو **عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ**، ورواه أبو داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني(ت٢٧٥هـ)، **سنن أبو داوود**، حققه محمد عوامة، مؤسسة الريان، بيروت، ط١- ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة، حديث رقم ٢٧٣، ج٢، ص٢٧٣.

- الفصل الثالث:

أساليب القرآن الكريم المنهجية، والتنفيذية للتغيير الفردي:

- المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم المعرفية المنهجية للتغيير الفردي:

- **المطلب الأول:** أساليب القرآن الكريم في التعريف المنهجيّ.
- **المطلب الثاني:** أساليب القرآن الكريم للتقريب المعرفيّ.

- المبحث الثاني: أساليب القرآن الكريم في التغيير التنفيذي:

- **المطلب الأول:** أساليب القرآن في التوجيه لتنفيذ تفاصيل المنهج.
- **المطلب الثاني:** أساليب القرآن لتحفيز التنافس للارتقاء.

المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم المنهجية للتغيير الفردي

تُعرّف **الأساليب المعرفية المنهجيّة** بأنها: ما اتخذه القرآن الكريم من طرق في إقامة المعرفة تفصيلاً وأجمالاً فيما ورد في المنهج القرآني من حقائق ماضية وحاضرة ومستقلبيّة، من تعريف الإنسان تفاصيل منهجه، وما استخدمه وسائل لتقريب الحقائق إلى الذهن في الأمور التي عرّف الإنسان بها، بهدف زيادة معرفته، وتشكيل التصوّر السليم غير المنحرف، وإعمال استعدادات النفس في فهم القرآن الكريم، وإيجاد الاقتناع العقليّ، وما جاء به من تأكيدات تؤدي إلى غرس القناعة في قرارة النفس.

لقد هدف القرآن الكريم كمرحلة متقدمة من مراحله إلى تغيير الإنسان من حالة هو عليها إلى حالة أخرى، تمتاز بالأفضلية عن سابقتها، ولا يتم ذلك الأمر إلا عند إقامة المعرفة لدى الإنسان المتغيّر بطريقة منظمة؛ لأن المعرفة هي"إدراك ما لصور الأشياء أو صفاتها أو سماتها وعلاماتها، أو للمعاني المجرّدة سواء أكان لها في غير الذهن وجود أم لا، حيث يكون كمالها بمطابقة الإدراك لما عليه المدرَك في واقع نفسه من صورة أو صفة أو سمة أو علامة، أو وجود أو عدم، أو حق أو باطل.."(١)، فلا بد من تشكيلها من خلال التعريف، وهذه المهمة الأولى من مهمات الأساليب في عملية التغيير الفردي، حيث إن عملية التغيير في حقيقتها عملية تبدأ معرفيّة وتنتهي بالتنفيذ للأوامر التي تضمن قيام الحياة على المنهج القويم.

ثم إن العلاقة بين الإبداع الأسلوبيّ للكلام واستعدادات الإنسان علاقة طردية، فكلما شمل الأسلوب الكلاميّ تفعيلاً لأكثر من استعداد في الإنسان في آن واحد؛ زاد إبداع الكلام لتأثّر النفس به، وكلما زاد إبداع الكلام زادت قيمته، وكلما زادت قيمته زاد إعجازه، والمستحيل الذي لا يقدر

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة**، دار القلم، دمشق، ط٤/١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ص١٢٣.

عليه بشر أن تقوم كل الاستعدادات في الإنسان فطرية كانت أو خَلْقيّة أو شعوريّة(١) بالعمل في آن واحد بسبب كلام مهما كان إبداعه، وهذا أحد جوانب الإعجاز القرآني النفسي، حيث إنه يستقلُّ باحتوائه على وجود القدرة الكاملة في طريقته لإحداث نهضة معرفية وعملية في الإنسان بكل ما آتاه الله من معِدّات خَلْقية، ودقائق عملية، ولا تتعامل مع استعداد واحد – عقلي مثلاً– دون آخر، ومجيء كلام يتعامل مع النفس بتكامل يناسبها لهو دليل عظم قائله، وشمول لما يحرّك النفس ويجذبها، فهو إذن أرقى من أن يكون كلام إنسان يجهل حقيقة نفسه أصلاً، ونهاية المطاف تستلم الاستعدادات الحسيّة للمدركات العقلية، بعدما تجري فيه المعاني من إدراك وتفكير وتخيّل وتذكّر وتصوّر...إلخ، عسى أن يجد نقداً عليها، أو مدخلاً يسوّغ له رفضها، أو داعياً يؤدي به إلى الانتقاص منها، وكلما حاول البحث عن النقص ازدادت يقيناً بمراتب الجمال في الكلام، وهذا يدلّ على كمال قائله، فيقف مستسلماً عاجزاً أمام كلمات جمعت بين المعاني والمباني جمعاً لا يقدر عليه قادر من البشر، فيشهد لها مع أنه حاول الانتقاص منها، فيسلِّم أمرها لإحساس النفس بالمعنى، فيجد الإحساس قد استسلم أمام صدق تلك المعاني، وعذوبة انسياقها مع النفس، وحسن جمالها المؤدي إلى راحة واطمئنان، فتعلن النفس استسلامها، وترفع راية عجزها عن المعارضة لإقرارها بإبداع الكلام، وتستجيب للقرآن بكامل القناعة، وهذه **الاستجابة هي التغيير** الذي يهدف القرآن إليه.

إن الأساليب هي طريقة تعامل المغيّر – الله – مع المتغيّر – الإنسان–، والمبدع لشيء أعلم بطريقة عمله، والله مبدع الإنسان، وقد أبدع من الكلام ما يتمم إبداعه في الإنسان، ويضمن

---

(١) يعني أنه لا يوجد كلام يثير الفطرة، ويثير كل ملكات العقل، ويثير كل ملكات الشعور والوجدان، ويصل في تعامله إلى الاستعداد الروحي في الإنسان في نفس لحظة المقال، أما عند سماع القرآن، فتقوم كل ملكات الإنسان واستعداداته مع كلمات القرآن قولاً ومعنىً في آن واحد.

تواصل الإنسان مع ربه، كما يضمن أيضاً استمرار عملية التغيير في النفس دون أن تفتُر، وهذا الأمر من أسرار الشعور باللذة دون إرادة عند سماع القرآن يتناغم مع تفاصيل الإنسان مهما كان جنسه ولغته، وما في القرآن من تآلف عباراته وبراعة أسلوبه، فترى النفس إبداع القرآن حتى مع كثير أسراره، كما أنه يقدر من خلال ذلك التعامل مع الفروق الفردية للناس على اختلاف تباينها، فمن يغلب عليه عمل أحد الاستعدادات كان له نصيب من الجمال الأسلوبيّ القرآنيّ، مثلاً من كان ذو شخصية عقلانية أخذ القرآن من عقله مأخذاً؛ لما فيه من فنون الخطاب العقليّ، ومن كان ذو عاطفة جيّاشة كان القرآن متناغماً مع عاطفته.

إن أساليب البلاغ القرآنية للناس أجمعين قبل اختيارهم للإسلام ديناً، تقوم على التعريف بداية، ثم تثبيت ما تم تعريفه من خلال أساليب تحتوي على سلسلة بيانية مترابطة، تؤكّد المعاني، وتقرّبها، وتأخذ في النفس الإنسانية مأخذها، لما فيها من التوافق التام بينهما، ولما يحقق الاقتناع العقليّ المواصل إلى القناعة القلبية.فجاءت المراحل الأسلوبية المتدرّجة في القرآن وتطبيقاته المنهجية البيانية لإحداث التغيير الفردي على ما يلي من مطالب:

المطلب الأول: أساليب المنهج القرآني في التعريف المنهجي

إن من بالغ الحكمة أن يتخذ القائل أساليب تعريفيّة تُخبر عن مراده، وتنقل السامع في صنعة البيان من معنى إلى معنى، أو من فكرة إلى فكرة في المعنى الواحد(١)، فالتعريف "ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيءٍ آخر"(٢)، ومقصد القائل من كلامه إيصال معرفة معيّنة لتؤدي غرضاً

---

(١) انظر: دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، اعتنى به وخرّج أحاديثه عبد الحميد الدخاخني، الرياض، دار طيبة، ط١٤١٧/٢هـ، ١٩٩٧م، ص١٨١-١٨٢.

(٢) الجرجاني، أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي(ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، وضع حواشيه محمد باسل السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٢١/١هـ/٢٠٠٠م، ص٦٦.

معيّناً، ومقدار الحكمة في ذلك يكون بقدر معرفة القائل بالسامع، أما من وجهة نظر السامع فإن من الطبيعيّ أن ينظر إلى ذات القائل بداية؛ لأن قيمة الكلام من قيمة قائله، والكلام تعبيرٌ دالٌّ على حقيقة المتكلم، ولا بد للكلام لكي يكون مسموعاً مستحسناً بجودة لفظ أن يكون له "جهة معلومة وعلَّة معقولة"([1])، وأن يكون هناك سبيل للتوصل إلى جهة القائل من خلال العبارة، وأدلة تثبت العلة، وهدفها إيجاد **المعرفة المسبقة القائمة على الأدلة اليقينية للتوصل إلى نتيجة للمعلومة قائمة بمنطق عقلي سليم**، يقول تعالى:"وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ **فَتَعْرِفُونَهَا** وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"(النمل٩٣)، والمعنى:" أي:لله الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة"([2])، بإقامة "معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات"([3]) ليتحقق قوله تعالى:"لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ"(الأنفال٤٢)([4])؛ لأن

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر(ت ٤٧١هـ، أو ٤٧٤هـ)، **دلائل الإعجاز**، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط٥/١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ص٤١.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، المجلد الثالث، ص٣٣٥.

(٣) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر(ت١٣٧٦هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، اعتنى بهذه الطبعة محمد عبد الرحمن مرعشي، قدم لها القاضي عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص٧٣٠.

(٤) هذه الآية جاءت في سياق سورة الأنفال، ولو سأل سائل ما علاقة سياق سورة الأنفال التي جاءت بذكر يوم الفصل في الدنيا بين المسلمين وقريش" لكان الجواب: أن سياق هذه السورة جاء سياقاً تعريفيّاً بأحداث المعركة، وما تفضّل الله به على المسلمين من نعم كثير تنتهي بنصر المؤمنين، وتعريف بسنة الله في التغيير، بسبب ورود واحدة من آيتي التغيير فيها، وكلها أمور تُعرّف الإنسان بطريقة استجابة الإنسان، وكيف تكون إرادة الله محققة لنُصرة المستجيب، وفيها نداء للمؤمنين يشمل أمر الله تعالى بالاستجابة لله ورسوله إذا دعاهم لما يحييهم.

البيّنة لا تكون إلا بعد المعرفة، فيلقى المسيء الجزاء الذي عرفه، أما المحسنون فينجز وعده لهم الذي عرّفهم به في قوله:"وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ"(**محمد٦**). ليكون هذا الأسلوب مثبوت الوجود بالأدلة القرآنية السابقة، وقد تحقق هذا التعريف المنهجيّ من خلال إلقاء المعاني بالطرق التالية:

<u>١- الحكمة الأسلوبية في الخطاب الإلهي:</u>

إن للحكمة في اتخاذ الأسلوب المناسب لمراعاة حالات النفس وتقلباتها دور هامّ في عملية التغيير؛ حيث إن استخدام الخطاب المباشر للناس كانت له حالاته في القرآن الكريم، وقد كثرت أساليب الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم من باب الحكمة في التعامل مع نفوس الناس لتغييرها على النحو الآتي:

- **أولاً: توجيه الأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم** : لا بد من توجيه الخطاب بأسلوب يراعي الحالة النفسيّة للمتلقين أثناء استقبال المعلومات التي عرّف القرآن بها، ولا بد من إيجاد الرغبة الذاتية من النفس للتحوّل نحو المنهج القرآني كبداية للتغيير، فمن حكمة الله تعالى في أول ما نزل من القرآن- كمثال على هذه الحكمة-، أن جاء الأمر موجّهاً لسيدنا محمد **صلى الله عليه وسلم** في ظاهره، فقال:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"(**العلق١- ٥**)، وجاء الأمر توجيهيّ لحاسة البصر كمدخل للمعرفة، بقوله: "**اقْرَأْ**"، وهذا من الحكمة؛ فلو كان هذا الأمر في أول ما نزل من القرآن مخاطباً للناس ما هي ردّة الفعل التي ستنتج من النفس؟.

إن الرفض المباشر من النفس لاستقبال القرآن الكريم فيمن لا مكانة له بسبب استعباده أو استضعافه ممن هو أقوى منه في المجتمع، سيواجه أسلوب الأمر بنفور نفسيٍّ، وهذا النفور يصد الإنسان عن استقبال الأوامر الواردة في القرآن؛ لأن نفسه قد ملّت ممن يهدفون إلى الاستعلاء والاستكبار، ويوجهون الأوامر بهدف استضعافه، فيظن أنها مجرد استمرارية لمعاناة الظلم عليه،

وهذا ما عافته النفوس؛ لأنها سئمت المهانة، وحاشا لله أن يكون منه كذلك، فكان من بالغ الحكمة التعريف بالله تعالى من خلال علاقة ودّيّة بينه وبين الداعي إليه، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ".

وهناك أمر آخر لا بد من بيانه وهو أن التغيير عملية معرفيّة، والقراءة هي الأداة التي تزيد المعارف سواء أكانت هذه القراءة لكتاب الله في الكون بالتأمل والنظر، أم قراءة القرآن، أم قراءة غيرهما مما يزيد به الإنسان من معارفه، فالقراءة إذن هي **الوسيلة للتغيير**، والهدف من نزول القرآن الكريم التغيير، إذن فإن نزول أول كلمة من القرآن **(اقرأ)** دليل على أن القراءة هي السبيل للتغيير ووسيلته، فمن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم دعوة للتغيير في الفرد، وأن التغيير هو عملية معرفيّة فكرية بداية تنتقل إلى مراحل سلوكية.

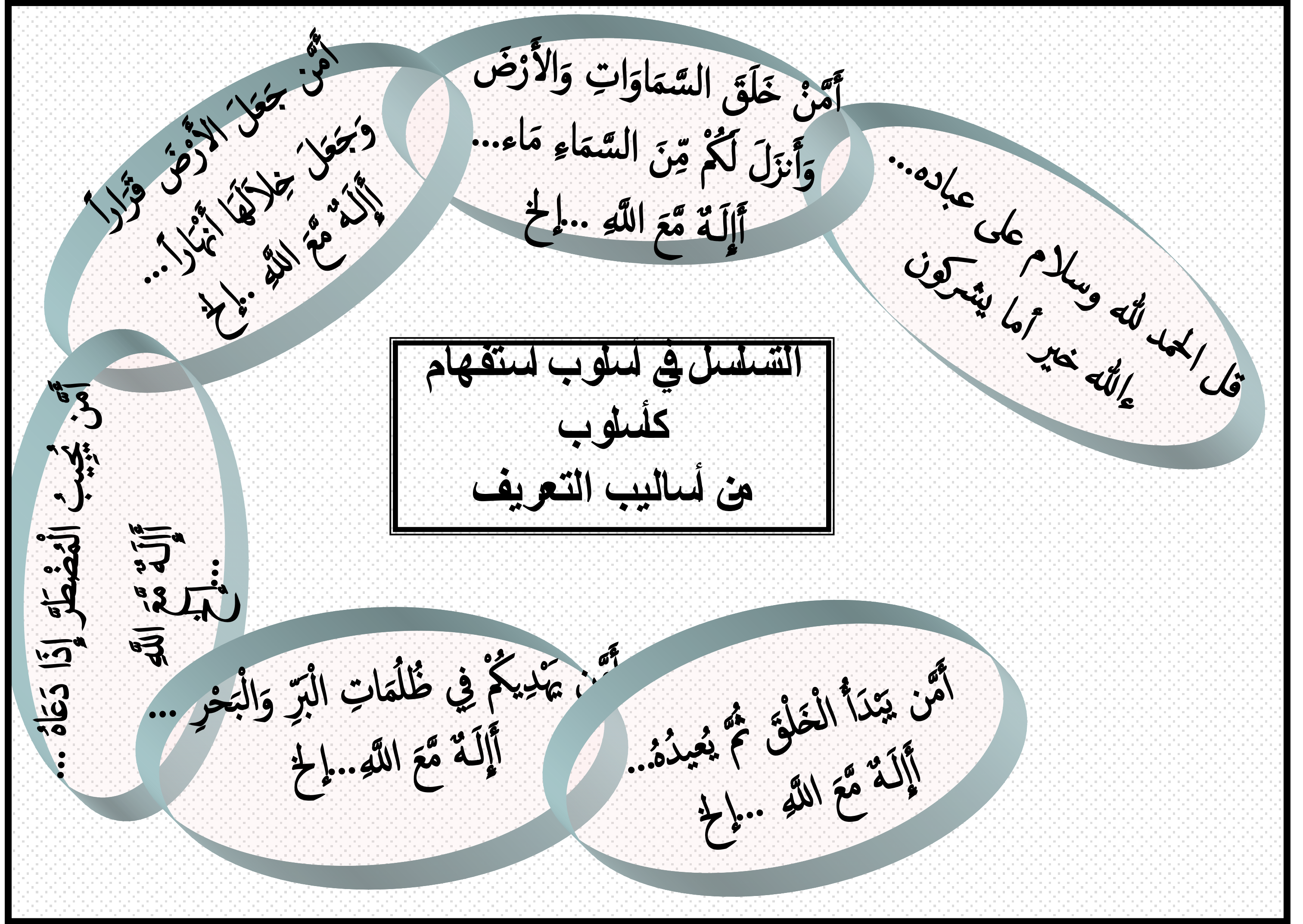
– **ثانياً: استخدام أسلوب التعجّب للتعريف في خطاب النبيّ** صلى الله عليه وسلم**:** إن أسلوب الخطاب بإثارة العَجَبِ فيه تنبيه للاستعدادات، وإثارة للمدركات، حيث إن للتعجب دور في تعريف الإنسان بأهمية القضايا التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتوليد الانتقاد لكل ما يخالف الحق، ولتوجيه المنطق العقل للاقتناع بالأمور التي عرّف بها القرآن الكريم، فمثلاً عند استخدام أسلوب **التعجب للتعريف بقضية اليوم الآخر**، وشذوذ من ينكرها، في قوله تعالى في سورة الرعد **:** "وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ"**(الرعد٥)**، "فقولهم عجيب حقيق بأن يُتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدّد عليك من الفِطَرِ العظيمة ولم يعي بخلقهنّ ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب"(١).

---

(١) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢– ص٥٠٤.

– **أسلوب الاستفهام كسلسلة متتابعة لإيجاد الإقناع العقلي:** وفي أهم الأساليب إثارة للتفكير المنهجي المنضبط في تتابع أسلوب واحد في أكثر من معنى، ومنها دور أسلوب الاستفهام في **التعريف والإقناع بما تم تعريفه**، والاقتناع العقلي إذا تمّ قطعت النفس في إحداث التغيير لما فيها شوطاً كبيراً، فالاستفهام بدوره إعمال لكل الملكات النفسية، مع زيادة العمق في التفكير، وزيادة تأثير هذا العمق في النفس، من خلال سلسلة استفهاميّة متينة، تجول بالفكر بين القضايا والحقائق، لإحداث إضافات تعريفيّة جديدة متتابعة.

ومثالها من سورة النمل، حيث ابتدأت تلك السلسلة بأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت السلسلة الأسلوبية الاستفهامية في تعريف المخاطبين، فيقول عز وجل:" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "(**النمل٥٩-٦٤**).



إن لأسلوب الاستفهام قوة في الإقناع، حيث إن له دور في تقرير النفس بالصواب، فمَن أراد إثبات أمر له دلائل كثيرة لمنكر، يتوجّه بالسؤال عن تلك الدلائل ليتوصّل إلى إثبات ما أراد من خلال تقرير المنكر نفسه عن الحقيقة، فيتولد الاقتناع؛ لأن ما يُطرح لديه من دلائل مثيرة لحركة التفكير، فيبدأ الفكر بالذهاب إلى أي مدخلٍ يثبت خطأ تلك الدلائل، فلا يجد سوى التصديق لها، وكلما حاول الباحث عن فرصة للإنكار وجد تصديقاً آخر..وهكذا، وكل تصديق بمثابة توكيد للمعلومة المتاحة أمامه، فإذا أظهر العجز عن إيجاد حجة للإنكار، كان هو الاقتناع العقلي، ولا حجة للنفس أن تذهب نحو ما تم التعريف به عندها، لسطوة الحق على النفس المفطورة على الخير، وموافقته إياها، فهذا الأسلوب هو بمثابة قيام حجة على النفس في عجزها عن إيجاد فجوة

تنكر ما تم التعريف به، وإذا تم الاقتناع العقليّ لا بد من تأثير مغيّر وموجه للنفس يحركها نحو التقدم إلى التزود من خير ما عرفت من الحق.، وهذا التوجّه هو حركة التغيير في النفس.

إن تقييد الإنكار النفسي، وإيجاد الاقتناع العقلي، وقطع الطريق أمام تفلُّتات النفس، وسدّ ثغرات الشك، كلها من أهم العوامل التي تُحدث التغيير، ومدى تأثير أسلوب الاستفهام في تحقيق هذه العوامل يدعم عملية التغيير لتستقرّ في النفس الإنسانية.

المطلب الثاني أساليب القرآن الكريم للتقريب المعرفيّ

التقريب:"هو سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب"([١])، **ويُقصد بأساليب التقريب:** الطريقة التي اتخذها القرآن الكريم لإيجاد الرابطة بين القضايا القرآنية، وإقامة العلاقة بين الأمور التي تم التعريف لها والتأكيد عليها، وتقريبها للأفهام، لإقامة التصوّر السليم عنها مجتمعة، وإحداث المقابلة المعرفية لتحديد موقع كل أمر منها في الحياة، وتحديد الأولويات العملية بينها، من خلال ضرب الأمثلة القصصية والأمثال الفكرية، والتصويرات الفنية، والتشبيهات البيانية؛ لإتمام المعرفة الشاملة بحدود الدين ككل من خلال إجمالها، وتشكيل تصوّر للجزئيات القضايا المعرفية الواردة في القرآن الكريم من خلال تفصيلها، مع اقتران هذه الأساليب بالإقناع العقليّ والبناء المنطقيّ، وتفعيل الشعور بالمعارف القرآنية بإيجاد التقييم للأحداث والمواقف والأشخاص الناتج عن المقارنة، بهدف ارتقاء معرفة الإنسان في تنظيم قراراته وفق سنن الله في خلقه، وضبط قدرته في محاكمة الأحداث والأشخاص في الحياة، من خلال ميزان عقليّ للحكم سويّ.

إن دور أسلوب التقريب في عملية التغيير هو اعتباره وسيلة لفهم خطاب القرآن الكريم، ومعرفة ما يترتب على الإلتزام به، وما يترتب على مخالفته، وجاءت الأساليب التي تعمل على تقريب المعارف كالآتي:

---

(١) الجرجاني، **التعريفات**، مصدر سابق، ص٦٨.

أولاً: التقريب بضرب الأمثال:

تعتبر الأمثال للمقارنة الواردة في القرآن الكريم محاكاة تستجلب شعور الإنسان عند إيجاد قوانين حياتية؛ هادفة إلى إيقاظ ملكة التمييز، استثارة التفكير بمنهج قويم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:"إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ **فَيَعْلَمُونَ** أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ"(البقرة٢٦)، فمن عرف الحق من الناس آمن؛ لأنه ميّز الصواب فاتبعه، والفئة الأخرى ضلت في تمييز مقاصد ورود المثل والخطاب القرآني، حيث "يُطلب المثال حتى يخرج الصواب"([1])؛ لأنه عندما يبيّن الأشباه "فإن حجج الله تعالى تصبح أقرب إلى أفهامهم"([2])،"كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً، ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه"([3]).

يقول الآلوسي في فائدة المثل كأسلوب للتقريب المعرفيّ: "لضرب المثل شأن لا يخفى، ونور لا يطفى، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق، ويميط اللثام عن محيا الدقائق، ويُبْرِزُ المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه شاهد، وربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما في العقل، فبضرب الأمثال تبرز – المعاني– في معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل في إدراكها، وهناك تنجلي غياهب الأوهام ويرتفع شغب الخصام"([4])، وتصبح القضايا التي صارت قريبة حقائق لا تخفى على أي إنسان.

---

(١) القرطبي، **الجامع الأحكام القرآن**، المجلد الأول، ص٩١٤.

(٢) **المصدر السابق**، المجلد الثاني، ص٢١٢٣، بتصرف.

(٣) رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، بيروت، دار المعرفة، ط١٣٩٣/٢، ١٩٧٣م، ج١– ص٢٣٦.

(٤)الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **تفسير روح المعاني**، مصدر السابق، المجلد الأول، ص١٦٥.

إن الهدف من ضرب الأمثال إيجاد التكامل الفكريّ، من حفظ القضايا التعريفيّة في الذاكرة وتثبيتها، لبناء الخبرة الإنسانية كما قال تعالى بعد ضرب المثل في الكلمة الطيبة: " تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"(**إبراهيم٢٥**)، فضرب المثل له دوره في التغيير "لما فيه من تصوير المعقول بصورة المحسوس تأثيراً بليغاً في تسخير النفوس"([١])، وهو خادم لغايات القرآن الكريم المرحلة والمحوريّة المحوريّة، حيث إن سعيه بالغ الأثر في تحقيقها.

والسؤال في هذا الجانب من الأساليب: كيف تتعامل النفس مع الأمثال فيتغيّر مما فيها؟

يكون هذا المثل كالدافع لإعمال الفكر في ماضي الإنسانية وحاضرها ومستقبلها، مستجمعاً الإنسان كل طاقاته في اتخاذ القرار الذي يضمن له السلامة، فبالأمثال"يرتفع التنازع بين الحس والخيال"([٢])، ويبدأ قياس الأعمال على من ذُكِر حالهم، وعلى القاعدة التي قيس عليها المثل، ومن هنا تكون بداية حساب النفس وفق سنن إلهية بيّنة، حيث يقوم المثل "بتشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح"([٣])، فيتكامل عمل النفس، وتتغذى الخبرة الإنسانية من خلال عرض تجارب الأمم الماضية، فإذا نمت تجربة الإنسان تغيّرت قناعاته وأفعاله، وزادت معارف الإنسان وتوسعت مداركه، وهذا ما ترمي إليه الأمثال كأسلوب من أسليب القرآن، حيث إن تلك الجدّيّة في القول، وتصوير أهمية الفعل للأمر الممثل به، وخطورة المواقف، لهو أمر ثائر في النفس عند استشعارها أهميّة القضيّة المطروحة، وكفيل بتحفيز سرعة استجابتها.

---

(١) الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **تفسير روح المعاني**، مصدر السابق، المجلد الخامس، ص١٢٥.

(٢)الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **تفسير روح المعاني**، المجلد الخامس، ص٢٠٢.

(٣) الفخر الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، المجلد الأول، ص٣١٢.

ثانياً: التقريب من خلال القصة القرآنية:

إن كلمة (قص) تحمل معنى تتبع الأثر.. والتساوي، فإذا قيل قصصت الشيء إذا سويت بين أمرين كأن الثاني تابع للأول([1])، وعليه فقد ورد أثر السابقين في القرآن الكريم من خلال أسلوب عرض قصصي للتعريف بحال الأمم الماضية خيرها وشرها، وللتنبيه بقيام العدل والمساواة بين الناس أجمعين في الخير والشر، وبيان القاعدة القرآنية في التعامل الرباني مع الناس كما جاء في قوله: " مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ"(الأنعام١٦٠) فتكون القصة ميزاناً يحكم به الإنسان على نفسه، ويعدل سلوكه من خلاله.

إن دور القصة القرآنية في التغيير الفردي دور بيانيّ شامل، وهذا الدور البيانيّ يقوم على تعريف الإنسان بالسنن الإلهية الجارية في الإنسانية من بداية الخلق إلى نهايته، وهذا التعريف يسهم في إثراء الخبرة في الإنسان، وإيجاد قدرته على اختيار الطريق الأسلم عند إرادة التغيير، ودورها في التغيير الارتقائيّ التثبيت لقوله تعالى: :"وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (هود١٢٠)، والاتعاظ الناتج عن عرض تجارب الأمم الماضية ونهاياتهم.

فالقصة القرآنية لا تقتصر على أسلوب واحد في العرض، إنما تحمل في ثناياها عدّة أساليب مجتمعة ومتكاملة، كالنداء والدعاء والاستفهام، والتشبيهات، وإخبار، واستثناء، ونفيٍ، ونهي، وتقديم وتأخير... إلخ من أساليب ما يوافق التكامل العملي لاستعدادات النفس الإنسانية.

إن الإحياء الذي تبعثه القصة القرآنية، وتخييل العواطف والانفعالات للموافق والأشخاص، والجمال الأسلوبي المتبادل بين شخصيات القصة، والتكامل التصويري الانفعالي للخير وأهله، وتلك المفارقة بينهم وبين الشر وأهله، الآخذة بالحس، والمستجلب للخيال فيرسم المشاهد وكأنها مرئية،

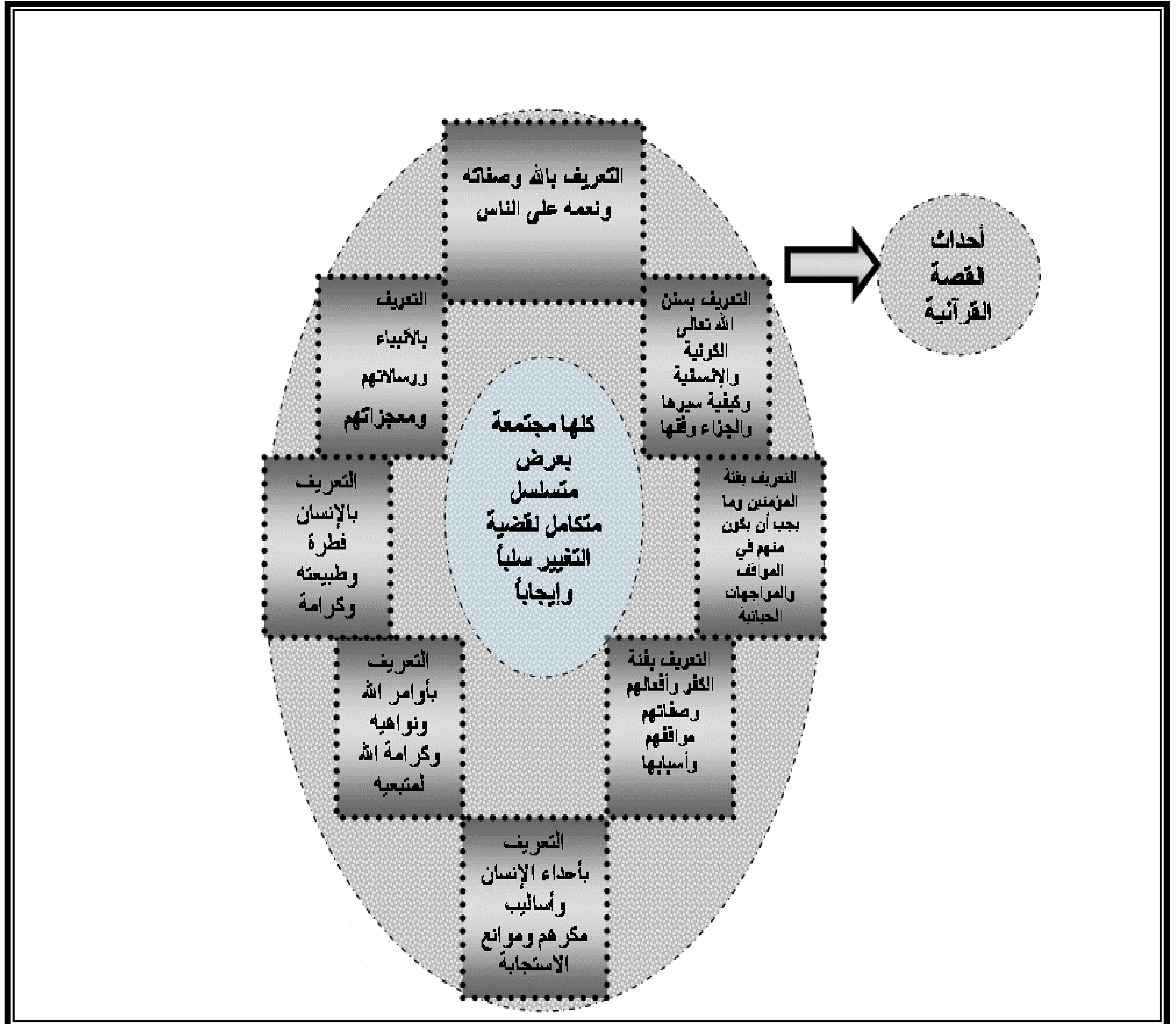
---

(١) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني، ص٣٦٣.

من غير فجوة بين الأفكار، مع تناقلات تعريفية إضافية، لهو من سمات الأسلوب القصصي القرآنيّ في توجيه النفس نحو ضرورة التغيير من حالهما، والإلحاح بإيجاد التوافق بينها وبين بارئها.

والشكل البياني التالي يُبيّن كيف يتم التقابل بين المواقف والأشخاص والأحداث من خلال القصة القرآنية، ليقرّب إلى الأفهام مقاصد المنهج القرآني، ويبيّن الجزاء والمآل لتقام الحجة على النفس، ولا يكون لها سبيلاً للإنكار أو الحجة بأنها لم تتعرف على مقاصد الخطاب القرآني:

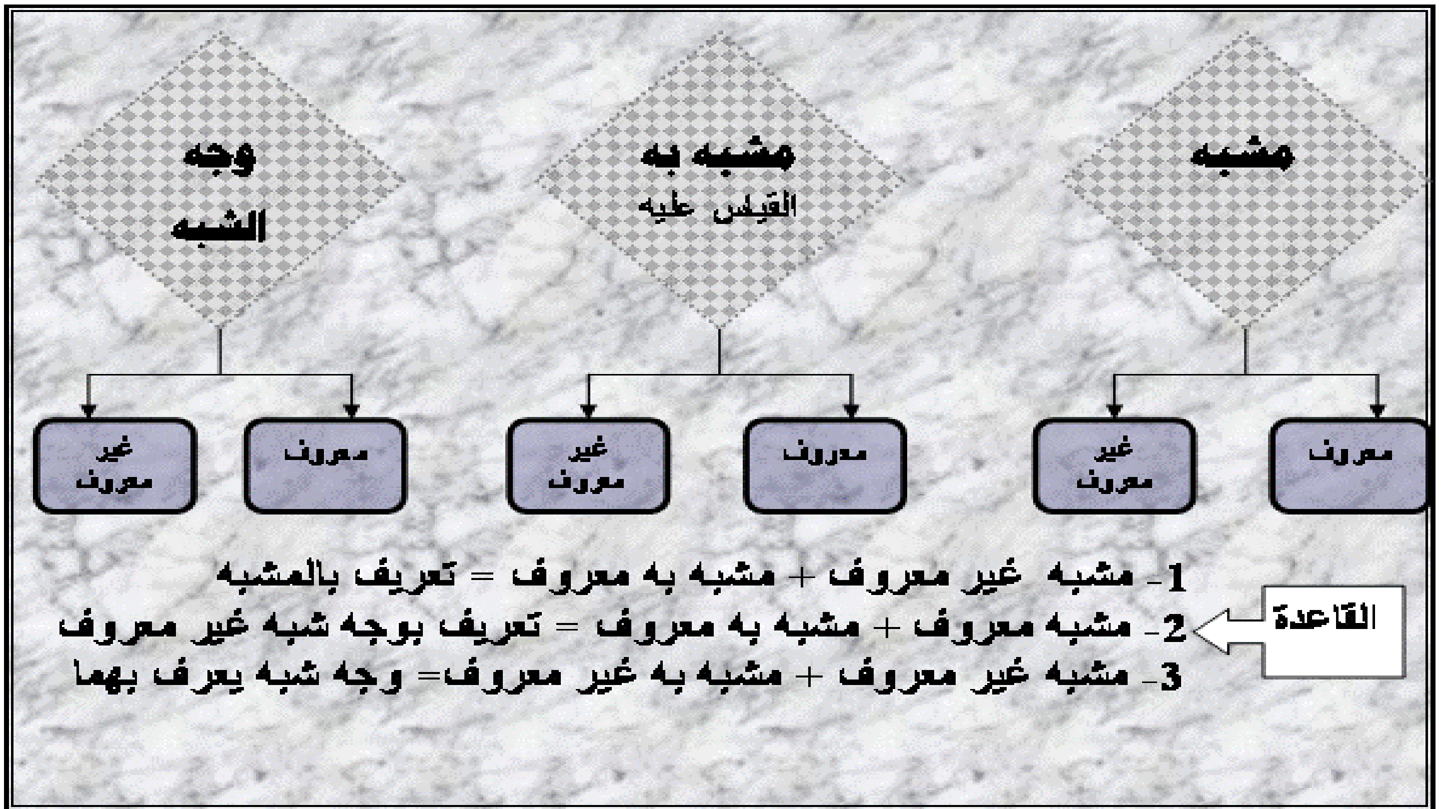
الشكل البياني يبين التقريب من خلال القارنة للأحداث في القصة القرآنية:



ثالثاً: التقريب التعريفي الضابط للفكر من خلال التصوير بالأساليب البيانية التمثيلية:

إن المنطق العقلي عملية بحث عن الحقيقة من طريق النظم المستقيم والتمييز الصحيح([1])، ودور الأساليب التمثيلية هو إقامة التمييز الصحيح باستخدام قُدْرَتَيْن هما؛ **المنطق لقيام الرابط، والخيال لقيام صورة هذا الرابط.**

ثم إن دور التمثيل التعريفيّ التعريف بأحد أجزائه غير المعروف في حال كون الآخر معروفاً([2])، أي أن يتم التعريف بالمشبّه غير المعروف ذاتاً أو حالاً من خلال استغلال معرفة المخاطب بالمشبه به أو حاله لتتم المعرفة من خلال التقريب أو العكس، أو أن يتم التعريف بوجه الشبه غير المعروف من خلال المشبه والمشبه به المعروفين للمخاطب،كما في الرسم المبيّن أدناه:



([1]) انظر: العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، دار نهضة مصر، بدور رقم طبعة، ص٢٦.

([2]) ولربما يكون المخاطب عارفاً ولكنه غافل فتكون أساليب التمثيل للتنبيه، والتذكير.

وما يلي تطبيق للقاعدة التقريبية من خلال إيراد الأمثلة عليها:

- **التعريف بالمشبه:** كقول الله تعالى في وصف الحور العين:"كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ"(**الرحمن٥٨**)، فالحور العين مشبه غير معروف، وتم اتخاذ التشبيه للتعريف بها في وصفها بأنها تشبه الياقوت والمرجان([١])، والياقوت والمرجان معروفان، ووجه الشبه([٢]) بياضهن وصفاؤهن وحمرة الخدود، واجتماع الصفاء والبياض كمال في الحسن كما هو في الياقوت والمرجان، وبهذا ترّبت المعرفة في العقل للأمر المجهول، فيولّد معرفتها استشعاراً بجميل الجزاء من الله تعالى إذا آمن وعمل صالحاً، أو بمعنىً آخر يستشعر الإنسان قيمة التغيّر بمنهج القرآن الكريم، وهذا الشعور نتاج اقتناع العقل من محبة القلب للنعيم المذكور، وهذا التقريب أحد أهم الأساليب للترغيب والترهيب في القرآن الكريم، فالرغبة بالشيء تستدعي السعي إليه والتغيير لأجله، والرهبة من الشيء تستدعي الكف عن كل ما يوصل إليه، وهذا الكفّ هو تغيير في حقيقة الأمر.

- **التعريف بوجه الشبه:** كما في قوله تعالى "أَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

([١])الْيَاقُوتُ فَإِنَّهُ حَجَرٌ لَوْ أَدْخَلْتَ فِيهِ سِلْكًا ثُمَّ اسْتَصْفَيْتَهُ لَأُرِيتَهُ مِنْ وَرَائِهِ، والْمَرْجَانُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ، وقد ورد حديث شريف رواه الترمذي في سننه في تفسير الآية:" إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُرَى بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً حَتَّى يُرَى مُخُّهَا"، كتاب صفة الجنة ، باب صفة نساء أهل الجنة.

([٢]) وقد اختلفت الأقوال في التفاسير في وجه الشبه على عدة أقوال : صفاء الياقوت في بياض المرجان، صفاء الياقوت . وحمرة المرجان، وقال ابن عطية : الياقوت والمرجان من الأشياء التى يرتاح بحسنها ، فشبه بهما فيما يحسن التشبيه به ، فالياقوت في إملاسه وشفوفه ، والمرجان في إملاسه وجمال منظره انظر تفسير الطبري المجلد الثالث عشر، ص١٧٣-١٧٤، الآلوسي المجلد التاسع، ص١١٩، ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام، **المحرر الوجيز**، ج١٤، ص٢١٤.

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ"(**الرعد١٧**)، فالمشبه به الماء النازل من السماء عند سيره في الأودية حاملاً في سيوله الزبد، والمعدن عندما ينصهر يحمل الزبد، والمشبه حال الحق والباطل في الحياة من حيث الديمومة والظهور، ووجه الشبه ديمومة الماء الصافي وأصل المعدن الصافي في الأصل، وبقاء الأصل كبقاء الحق في الحياة مهما طفا الباطل على السطح الذي كان يشبه الزبد، وزوال الزبد الطافي على السطح لأنه مستقذر كما هو الباطل في الحياة، فالمنطق العقليّ يقيس وجه الشبه **غير المعروف** بالمشبه والمشبه به **المعروفان**، فالماء والزبد والمعدن المنصهر وزبده معروفين، والحق والباطل أمران أيضاً معروفان، ووجه الشبه بين الأمرين الحسي والعقلي غير معروف، فتم التقريب لتوليد المعرفة، وإيجاد الاقتناع، وإقامة الحجة بوجود وجه الشبه الذي هو البقاء للحق والدوام، والزوال للباطل نهاية المطاف.

وإن للتمثيل وظيفة أخرى غير التعريف، فاقتران أسلوب التمثيل بالاستفهام للتقرير لهو تحكيم عقليّ بالموازنة الحاصلة والمقارنة القائمة، حيث إن القرآن يتخذ من أسلوب التمثيل تعريفاً لأمرين اشتركا في حكم، ثم يتبع هذا التعريف استفهاماً تقريريّاً بهدف إنطاق النفس بالحق البيّن أمامها، فتشهد على صاحبها بمنطق الحق البيّن.

وأمثلة هذه القضيّة كثيرة الورود، عميقة المعنى، منها قوله تعالى في مقارنة فريق المؤمنين بفريق الكافرين:"مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ"(**هود٢٤**)، وعند عرض صورة رجل أعمى وأصم أي لا يري ولا يسمع، يقف بجانب رجل بصير سميع، بيان الفرق بينهما؟

إن الفرق بداهة معروف في أن كلّاً منهما عكس الآخر، وأن قدرة البصير والسميع أكثر من قدرة الأعمى والأصم، وأن علم البصير والسميع أكثر من الآخر، وأن مكانة البصير و السميع أعلى من

الآخر، وأن البصير والسميع أكمل من الآخر، وعندما تتلقى النفس هذه الصورة المقارِنة، ويأتي السؤال: "هل يستويان مثلاً"، ماذا يكون جوابها؟

إن الجواب بديهيّ هو (لا، لا يستويان مثلاً)، بل شتان بينهما، وإن فرضنا أن هناك من قال أنهما يستويان، أو هناك من قال أن الأعمى والأصم أفضل من البصير والسميع؛ ما هو الحكم عليه؟ أهو الغباء، أم الجنون، أم عدم التمييز، أم التخلف العقلي والوهم الظنّي، أ، وهن التفكير والتمييز، أم أنه يعاني من أزمة نفسية تجعل الخلط واللبس بين ما كان بيّناً حاله، أو أن هذا الجواب ردّة فعل منكرة لمنتصر بالإقناع؟... إلى آخره من افتراضات تُبنى على منكر الحق الظاهر من خلال هذا التشبيه.

وعليه تقوم الصورة المتزنة بين متبع الحق، ومتبع الباطل، فيكون قرار النفس بيدها، أتكون كالأعمى والأصم، أم كالبصير والسميع؟ وبهذا الأسلوب يعين الله تعالى النفس على اختيار الحق بعد إكرامها بالإرادة، فكرامة الاختيار القائم على حرية الإنسان، يُضَاف إليه كرامة الأسلوب في ضبط الاختيار ضبطاً منهجيّاً، وتوجيه الحرية ضمن إطار الحق الذي لاتتكره النفس، ويبين قوله تعالى:"قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ"(الرعد١٦)، كيف يكون الإنسان أعمى، وكيف يكون بصيراً من خلال اعتقاده السليم بالله تعالى الذي جاء بمنهج القرآن الكريم الآمر بالتغيير إليه.

- **التعريف بالمشبه والمشبه به من خلال وجه شبه معروف**: كما جاء في قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم:"أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ*إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ*إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ*طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ"(الصافات٦٥)، فعندما شبهها الله تعالى بقوله:"طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فمن رأى الشياطين ليعرف كيف يكون طلع شجرة الزقوم؟

يقول الطبري في أحد أوجه تفسيره لهذا التشبيه:" أن يكون مثل ذلك برءوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم؛ وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان"([١])، فيكون المشبه شجرة الزقوم هي غير معروفة، والمشبه به رؤوس الشياطين وهذه الرؤوس أيضاً غير معروفة، ووجه الشبه المبالغة في التقبيح وإدراك القبح معروف، فقرّب وجه الشبه الصورة، وعرّف من خلال هذا التقريب بطرفي التشبيه.

([١]) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المجلد الثاني عشر، ص٦٨، وقد أورد عدّة أوجه لتفسير هذا التشبيه، منها أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا، وهي حية لها عرف فيما ذكر قبيح الوجه والمنظر، أو أن يكون مثل نبت معروف برءوس الشياطين ذُكِر أنه قبيح الرأس(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ).

المبحث الثاني: أساليب القرآن الكريم في التغيير التنفيذي

لقد تعلق الجانب التنفيذي من الأساليب بالسلوك الذي يسلكه الإنسان، وإنّ لاستثارة الحركة وتحفيزها عند الإنسان قبل إلزامه بأي أمر لهو كفيل بإيجاد تصميم على الاستمرار في التطبيق العملي لتفاصيل منهج القرآن الكريم، فلا بد من استخدام الأساليب التي تدفع النفس وتحثّها على الالتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، من خلال تشكيل استعداد نفسي طوعيّ لاستقبالها أولاً، والتدرج الدقيق في زيادة نسبة هذا الإلزام، فمن حكمة الله أن قام ببناء العقيدة في النفس أولاً، ثم طالب هذه النفس بأحكام المنهج القرآني الواجبة للسيطرة على سلوكها، وهذه "السيطرة بتوجيه السلوك نحو هدف معيّن، ولا تكون إلا عندما يتم معرفة الحاجات والدوافع والميول التي تمتاز بالتغيّر والتعدد والدينامية، حيث أنها –الدوافع والحاجات– تتجمع وتتآلف وتتغير بنحو مستمر، فتؤثر على السلوك الإنساني"([١]).

ولقد ظهرت خاصية التدرج القرآنيّ في هذا الجانب من الأساليب، فجاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:"إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ – **القرآن**– سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا لَقَالُوا لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا ..."([٢])، وعلى هذا كان

---

(١) منصور، عبد المجيد سيد وآخرون، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر**، مصدر سابق، ص١٢٥.

(٢) رواه **البخاري في صحيحه**، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم (١٤١٨)، المجلد الثالث، ج٦– ص٥٨٥.

البناء الأسلوبيّ في عدم إكراه النفس إلزامها طوعاً، كي لا يكون منها ردّة فعل سلبيّة، تؤدي بالنفس إلى النفور، أو إثارة اعتبارها لحاجاتها وغرائزها.

وعلى ما سبق فإن أساليب التغيير التنفيذية العملية لتفاصيل المنهج القرآنيّ كالآتي:

المطلب الأول: أساليب التوجيه الإلزامي:

لقد جاءت أساليب الخطاب القرآنيّ قبل فرض التزاماتها بترغيب للنفس في القبول من **وجهين:**

- **الأول:** منها بتحقيق العدل الإلهي برفع قيمة الإنسان الذي تاقت له النفس، والمساواة بين الناس التي هي نتيجة إقامة العدل، فلا يمتاز أحد على الآخر في التنفيذ، بل إن الأفضل هو من كان أكثر إلتزاماً وتنفيذاً للأوامر الإلهية الواردة في المنهج، فكانت الصرامة في التوجيه لازمة لكيلا يكون الاستهانة في التنفيذ.

- **والثاني:** أنه استثنى من بعض الإلزامات بعض الفئات تيسيراً على العباد؛ ليكون الجانب التنفيذي حسب طاقاتهم، فيكون المراد التيسير والتخفيف عن الناس لقوله تعالى:" يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"**(البقرة١٨٥)**، " يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً"**(النساء٢٨)**، وتسمى بالسياسة الاستثنائية في الأسلوب القرآني.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأساليب بشكل عام وهذه الزمرة بشكل خاص تسهم في تشكيل التوافق بين النفس والسلوك لدى الإنسان، والتوافق بين البيئة و السلوك، ويسمى هذا التوافق **بالتوافق السلوكي**؛ الذي يعني تفعيل "السلوك الموجّه للتغلب على عقبات البيئة، أو صعوبات مواقفها، كما أن آليات توافقه التي يتعلمها هي استجاباته المعتادة التي يسير عليها لإشباع حاجاته، وإرضاء دوافعه، وتخفيف توتراته"(١)، مع ضمان عدم خروج السلوك عن المنهج المنظّم.

---

(١) منصور، عبد المجيد سيد وآخرون، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص٣١٦.

وعلى ذلك الأصل شملت أساليب التوجيه الإلزامي لتحقيق التغيير السلوكي ما يلي:

(١)– الإلزام العام للتغيير التنفيذي: وهو قاعدة تنفيذيّة عامّة يتساوى فيها الناس أجمعين في التشريع دون تخصيص أحد، فجاء الخطاب من خلال توجيه شروط الإلزام العام الذي لا يفترق فيه أحد عن أحد من خلال استخدام أسلوب الشرط، حيث إن هناك حِكَمٌ بالغة، وأسرار دفينة في استخدام هذا الأسلوب، فمجيء هذا الأسلوب قوة تحرك التركيب النفسيّ، مع فرض القياس العقليّ للوزن بين الأعمال، فما كان معروف النتائج في البداية كان ألزم في النفس، وأدعى لقيام الحساب على التقصير.

إن قيام الإلزام العام له دور في التغيير التنفيذي في استخدام الإنسان لإرادته في التغيير، ففي قول الله تعالى:" مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ"(فصلت٤٦)، وقوله تعالى:"مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً"(الإسراء١٥)، وقوله:"مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ"(الروم٤٤)، يكون بمثابة إلزام غير مباشر، ويبيّن الله من خلال هذا الأسلوب ما يريد من عباده، وينظم الفكر على قواعد التناسب بين معاني الفعل والجزاء، فالمعنى الأول فعل الإنسان، والمعنى الثاني جزاء الفعل، فيكون الإنسان عند الالتزام عارفاً بسنة الله تعالى في احل تغيّر فعله موافقاً لمنهج الله، أو كان هذا التغيّر مخالفاً لمنهج الله تعالى، وهذا كله مما ينطوي في عموم الآية الكريمة:"إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"(الرعد١١)، فإذا غيّر الإنسان فعله في تنفيذ أوامر الله، غيّر الله من حاله بحسنها جزاء بما كان منه من عمل، ونقيض هذه المعادلة قائم المعنى، متضمّن في السنة الإنسانية في التغيير، حيث كان ذلك كله دون توجيه الأمر المباشر والفرض الملزم الصارم، لحث إرادة الإنسان على اختيار الأعمال، إنما بإيجاد القناعة نفسيّة عند قبول العمل، واستشعار المساواة للناس جميعاً عند إصدار الأمر بهذا الأسلوب، يشكّل الرغبة الكاملة في الالتزام، وتقرّ للنفس

بخطئها إن خالفت الالتزام، ويهيئ النفس لمواجهة أي أمر يظهر خلاف القاعدة، فلا نفور من استقبال القاعدة الثابتة التي تُوازِن بين فعل الإنسان وجزاء الله، والتي تساوي بين المكلّفين جميعاً دون أيّ تمييز أو تفريق.

<u>(٢)– السياسة الاستثنائية:</u> والسياسة من "السُّوس وهو الطّبع. ويقال: هذا من سُوس فلان؛ أي طبعه. وأمَّا قولهم سُسْته أسُوسُه فهو محتملٌ أن يكون من هذا، كأنّه يدلُّه على الطبع الكريم ويَحمِله عليه"[(١)]، " والسِّياسةُ القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه"[(٢)]، **والسياسة الاستثنائية:** هي ما جاء في القرآن الكريم من أساليب تنفيذية تستثني فئات من الناس من الإلزام إما استثناء كليّاً أو جزئياً، إيفاءً من الله بما وعد عباده من إلزامهم حسب طاقاتهم، فإما أن يبدلهم أحكاماً وفق وسعهم وهذا في حال الاستثناء الكلي ككفارة إفطار رمضان لمن لا يقدر الصيام بسبب المرض، وكما جاء في بيان فريضة الحج، واستخدام أسلوب الشرط متضمّناً الاستثناء، فقال تعالى:" وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"(**البقرة١٩٦**)[(٣)]، أو أن يبقى التكليف العام ولكن يكون لهذه الفئة طريقة مخصوصة في التطبيق حسب وسعهم، كصلاة المريض وهو جالس بسبب المرض، أو أن يكون هناك عفوٌ كليّ عن هذا الإلزام ولذلك لأنه لا يوجد قدرة نهائياً على القيام به، كسقوط فرض الزكاة عمن لا يملك النصاب.

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص ٥٧٩.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (سوس).

(٣) والتفصيل يستدعي الإطالة، لذا لم أذكر تفصيل التحليل للآية بل استشهدت بها على الفكرة المطروحة.

إن استثناء ذوي الحاجة من تكليفهم هي من أدلّة العدل الإلهي، حيث لا يتم معرفة السلوك الإنساني والتنبؤ به إلا عندما يكون المتنبّئ عالماً "بالموقف الخارجي المحيط بالفرد وخصائصه، والتكوين الحيوي والعصبي للفرد، وجانب الخبرات التي تعرض لها الفرد في مراحل حياته، ومدى التشابه بين المواقف الحاضرة وسابق الخبرات، وما يحتاجه من دوافع لتحريك سلوكه"(١). ولقد أقرّت العقيدة عند الفرد بأن لله مطلق العلم، ومنها علمه بالسرّ والعلانية عند الإنسان، لذا فهو الأعلم بكل ما يحيط بالإنسان من مواقف، وتكوين الإنسان الحيويّ والعصبيّ، وجانب الخبرات عند كل إنسان، فتكون أوامره مناسبة لكل حال، ومنهجه منظم لكل مجال، وموافق لكل نفس، ومراعياً كل قدرة مهما قلّت أو زادت.

ومن صور إعجاز القرآن الكريم أنه جاء بالقول الذي يؤثر في السلوك على اختلاف الفروق الفردية بين الناس أجمعين في المعنى والأسلوب، إذ إنّه انطلق من مركز الالتقاء بين الناس جميعاً، فجاء بالأسلوب الذي ينبئ الإنسان به عن نفسه فيكون دافعاً للارتقاء، ورابطاً عمله بعقيدته.

المطلب الثاني: أساليب تحفيز التنافس للارتقاء

هو أسلوب قرآنيٌّ يهدف إلى تحفيز النفس للانتقال والارتقائي في مراتب القرب والإحسان من خلال تفعيل دور الفروقات الفرديّة، من تحبيب للنفوس الملتزمة وترغيبها، وتوجيه الهمّة نحو أعلى درجات الالتزام الإرادي، فإذا تمسَّك بها صار مرتقياً للأفضل، ومتفاعلاً مع القرآن بعمق أساليبه ومعانيه، ومسارعاً في الخيرات، ومسابقاً للوصول إلى أعلى الدرجات، فقال تعالى:" وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ"(**المؤمنون٦٠-٦٢**).

---

(١) منصور، عبد المجيد سيد وآخرون، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وعلم النفس**، ص١٢٥.

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأساليب متعلقة بالاطمئنان النفسيّ، وتُظهر تبايناً سرعة الاستجابة عند تنفيذ تفاصيل المنهج، فمثلاً إبراهيم كان أمّة كما بيّنت آيات القرآن الكريم، واتخذه الله خليلاً، وهذه من أقصى درجات القرب من الله تعالى، ولما كانت نفسه مطمئنة نالت هذه المرتبة، ودليل ذلك قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..."(البقرة٢٦٠)، فلم يكن طلبه من باب الشك، إنما كان استزادة وارتقاءللوصول إلى درجة الاطمئنان. **ويتنوّع الخطاب القرآنيّ في استخدام زمرة من الأساليب المتفرّعة:**

فالترغيب للتشويق، وهو تحويل الإرادة وتركيز النظرة نحو شيء طلباً له، والشوق هو "تعلّق بالشيْء، ونزاعُ النَّفْس إلى الشيء"(١).

كما أن الترغيب يولد الرضا، لقوله:"جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رِّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ"(البينة ٨)، فإن الآية القرآنية تحمل معنى الترغيب فيما أعدّه الله تعالى في الجنة، وهذا الترغيب يبعث شعور الرضا بما عند الله من خير، فيكون هذا الرضا زيادة في الإيمان، وهذه الزيادة تغيير في طبيعة الحال.

واختيار صيغ التفضيل في **توجيه معنى الارتقاء أحد السبل لتحفيز التباين السلوكيّ**، كما في قوله تعالى:"وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"(الشورى٤٠) فقوله (أصلح)، دعوة لأن يتوجهوا إلى ما هو أبقى من دار الزوال، ويستقيموا على طاعة المنّان، فيغفروا إذا غضبوا، فحب تقدير الذات من حاجات الإنسان، والتنازل عنه لا يكون إلا من أصحاب النفوس التي تستعلي عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة الأبقى، والتخلي عن حظ النفس من أجل الله تعالى يعني وجود تقدم في مراتب التوافق النفسيّ، والتكامل الشخصيّ في البناء، والترغيب هنا إنما هو

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص٦٣٣.

لزيادة التنافس على منزلة القرب من الله كما جاء في قوله:"الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً"(الإسراء٥٧)، فجاءت الآية تعريفاً بالقاعدة التي قررها الله تعالى في بداية دعوة العبد للالتزام بالميثاق، فعند الترغيب بالعفو جعل الجملة بصيغة الخبر:"وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" وهي تقرير لحق الإنسان في القصاص من المعتدي، وبعد اطمئنان النفس لثبات هذه القاعدة ودوامها، يأتي دور أسلوب التعقيب بلا مهلة لتفيد الترتيب المتصل([1]) بتلطف الأسلوب في قوله:"فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ"، وهنا تبدأ المفارقة بين المتلقين للأسلوب، حيث إن من ابتغى القرب أكثر فقوله: " فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" تعني له الكثير، فهو يعلم أن الله هو صاحب مطلق الكرم، وله كل الملك، يصرّف ملكه كيف يشاء، ومبدأ العطاء منه ومنتهاه إليه، فتُلغى قيمة الذات أمام أجر الله، فالله هو الذي أعطى للذات قيمتها، وهو يجزي أجراً مقابل التنازل عن هذه القيمة تنازلاً يوافق منهجه، يكون جزاؤه زيادة في هذه القيمة أضعافاً مضاعفة، ليأتي أسلوب التوكيد بعدها بقوله:"إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" تأكيداً لمعاني العدل الإلهي، فتتباين النفوس في التسارع إلى العفو بعد الترغيب بقدر حظ الإيمان من كل نفس، قال تعالى:"مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ"(البقرة٢٤٥).

كما أن **للمدح** دور في تحفيز التباين السلوكي، فإن ما تُمدح به أي فئة التزمت وأدّت ما عليها، يُكسبها شعوراً بالغبطة والتنافس الناتجة عن حب التقدم نحو هدف الرضا، ومثال ذلك الاستفهام في قوله:"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(فصلت٣٣)، جاء الاستفهام بغية "إيقاظ وإثارة حركة الفكر والحس؛ ليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق، فيستوعبه بخفاياه ودقائق همسه وكل حواشيه، فيلتقط المراد، ليهيئ الاستفهام النفس لتتلقى من

(١) انظر: المرادي، ابن أُمّ قَاسِم، **الجنى الداني في حروف المعاني**، مرجع سابق، ص٦١.

السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور"([١])، ويُحكم الخيال دوره في تصوير المتصف بهذه الأوصاف، فتكون دافعاً يوجّه سلوك الإنسان نحو بلوغ درجات الإحسان،"فالمهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقيقة، ثم يُترك ليتعامل معها بوعيه، ويتدبرها بفكره، وينتهي فيها إلى ما يراه"([٢]) مناسباً لتقدّمه وارتقائه.

أما **التحبيب** فهو من "اللزوم، فالحُبّ والمَحبّة، اشتقاقه من أحَبَّه إذا لزمه"([٣])، وأصله نابع من "تقوية اليقين؛ فبمقدار قوة اليقين يزداد الإنسان ارتقاء في درجة مستوى البشر"([٤])، والتحاقاً بقمم الكمال التي يسعى المُجدّ لها، ومثالها قوله تعالى:"وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ"(**الواقعة١٠-14**)، فالتوكيد بتتابع كلمة **(السابقون)**، وبعدها الإشارة لمرتبتهم، وتحديد موقعهم، والاستفاضة في وصف النعيم الحاصل لهم كقوله:"مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ"(**الواقعة١٦**)؛ كل ذلك ليتبادر للذهن من خلال المبالغة والمدح عظم النعيم، مع جلب التشويق لتلك النعم، وإيجاد الدافع؛ لإحراز هذه المرتبة، والحماسة في التسابق للقرب، فتتأصل جذور الرجاء في النفس، وتزداد همتها للتسابق، وترتفع معنوياتها لتكون جاهزة لمقابلة صعوبات الحياة بالصبر، مع إشفاق من الله([٥])، وجعل إيمانهم إيماناً نقيّاًي من مثقال ذرة إشراك،

---

(١) أبو موسى، محمد، **دلالات التراكيب دراسة بلاغية**، ص٢٥٩.

(٢)المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٣) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص٢٧٥.

(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، المجلد ٧، ج١٥- ص٢١، بتصرف.

(٥) يقول ابن كثير في قوله تعالى في سورة المؤمنون آية ٥٧:"إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ": أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن

فالمتسابقون "خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة؛ استقصاراً لها، واستعظاماً لجنابه عز وجل"([1])، فكلما زاد الاستعظام لجنابه جل وعلا زاد الدافع للعمل؛ ليصل الإنسان إلى مرتبة الرضا عن الله، وهو السبيل لإيجاد النفس المطمئنة التي جاء التوجيه المحبب لها في قوله تعالى:"يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي"(**الفجر٢٧-٣٠**).

البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا، انظر: **تفسير القرآن العظيم**، ص٢٣٤.

(١)الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، **تفسير روح المعاني**، مصدر السابق، المجلد العاشر،ص٧١.

الفصل الرابع:

خصائص المنهج القرآني في التغيير الفردي، وآثاره:

- المبحث الأول: خصائص منهج القرآن الكريم، وفيه:
- الخاصيّة الأولى: الاستقلال.
- الخاصيّة الثانية: الوسطية.
- الخاصية الثالثة: الجمال.
- الخاصية الرابعة: الكمال.
- المبحث الثاني: آثار المنهج القرآني في التغيير الفردي:
- القسم الأول: الآثار على المستوى الفردي.
- القسم الثاني: الآثار على المستوى الاجتماعي.

المبحث الأول: خصائص المنهج القرآني في التغيير الفردي

(الاستقلال، الوسطية، الجمال، الكمال)

إن المنهج الذي لا يوجِد "فُرْجَةً بينه وبين غيره"([1]) بحيث لا يتميّز عن غيره من المناهج، ولايكون منفرداً بهذا التميّز ويكون بينه وبين غيره اشتراك، منهج ناقص الطريقة، لوجود مثله أو أفضل، ولوجود مجال للمقارنة، والتفاوت في قيام سموّ الإنسانية.

ومن هنا جاءت **خصائص المنهج القرآنيّ** عند مسيرة تفاصيله لتغيير الإنسانية عن غيره من المناهج، حيث إنه مختصٌّ بالتميّز المطلق، ليس في تغيير الإنسان فحسب؛ بل تميّزاً تامّاً شاملاً مطلقاً في ذاته وعمله، لم يسبق له مثيل، ولن يلحقه مثيل، إلى يوم الدين لقوله تعالى:"أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً"(النساء: ٨٢).

إن الكلام صفة المتكلم([2])، والقرآن كلام الله الذي له المثل الأعلى، وعليه يكون للقرآن من الإجلال ما تتصدع منه الجبال، فقال تعالى:"لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(الحشر٢١)، "فلو صَفَتِ القلوب من الأكدار، وملئت بالأنوار، لفهمت أسرار الكتاب، وجواهر المعانية، ولأدركت معرفة الحق من الكلام"([3]).

إن الميّزات التي يختص بها منهج القرآن عن غيره من المناهج والكلام تمتاز بأنها معجزة عن وجود الأحسن منها أو المثيل لها، فكون القرآن الكريم متميّز التأثير، وكونه متميّز التنظيم والتشريع، وكونه متميّزاً دون حدٍّ، يعني اختصاصه بما لا يحصى من ميّزات.

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول، ص٣٤٤.

(٢) انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، مجلد ٣، ص٣١٨، وكذلك السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، مصدر سابق، ص٨٧٦.

(٣) ابن عجيبة، المصدر السابق، مجلد ٣، ص٣١٨.

ولا بد من الإشارة لعدّة خواص أساسية فُصّل فيها من كتّاب آخرين([١])، درسوا قضية خواص القرآن فكان لما كتبوا الحظ الوافر من التفصيل، ومنها ربانية المنهج، وثباته، وشموله، وتوازنه، وإيجابيّته، وواقعيته، وتوحيده.

وكل خصائص القرآن الكريم في الحقيقة تعود في أصلها لخاصيّة واحدة تشملهم جميعاً، وهي الربانية، وبما أن كل الخصائص راجعة لها، فإن هناك ميزات تفصيلية اختص بها هذا المنهج الرباني تتفرّع عن هذه الخاصية أيضاً. **وعلى ما سبق فإن خصائص المنهج القرآني التي جاءت بها هذه الدراسة ما يأتي:**

***- الخاصية الأولى: استقلال المنهج القرآني:**

أي انفراد المنهج بنفسه، دون الحاجة إلى غيره في خصوصيته، وهو من باب الترفع والاستغناء، وصفة الله تعالى (الغنيّ) الذي استغنى عن الشريك والزوجة والولد والأعوان، وانفرد بالألوهية والربوبية والعز والكبرياء، ومنها كان غنى المنهج القرآني واستقلاله عن غيره من المناهج كانت أو الأعوان أم الشركاء،"فإن القوي من له استقلال باطن بما يحمله القائم في الأمر، ولو ضوعف عليه ما عسى أن يضاعف، وحمايته مما يتطرق إلى الإجلال بشدة وبطش منبعث عن ذلك الاستقلال، وما ظهر من أثر ذلك فهو قدرة"([٢]). إذن فمشرّع المنهج القرآني في التغيير رب مستقل بوجوده، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ لأنه واحد، فمرجع خاصية الاستقلال صفة الوحدانية.

---

(١) وأقصد المفسر سيّد قطب رحمه الله تعالى، فقد فصّل في كتابه **(خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته)** عن هذه الخصائص للمنهج، بجودة سبكه، وحسن تفصيل.

(٢) البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآي والسور**،ج٧-ص٥٠٦، بتصرف.

فالمنهج القرآني مستقل عن المثل، فهو منهج فريد، فلا يوجد منهج يجمع مقومات الصلاح للإنسانية، والكون، والحياة كالذي جاء في القرآن، فاختص بالانفراد فيما جاء به، فلا مثيل له في منهجه الذي جاء ليغير الفرد تغييراً مستمرّاً نحو بلوغه درجات عليا من الارتقاء، فيكون إذن مستقلاً بالإصلاح فهو منهج إصلاحيّ.

وهو منهج مستقلّ في عمله، فإما أن يكون **الاستقلال العملي بالتكامل التام بين أهدافه وأسسه وأساليبه،** حيث إن أسسه وأساليبه جاءت لتحقيق أهدافه بدقة وتناسق وتوافق بينها جميعاً، وانفرد منهجه بهذه الخاصية واستقل به عن غيره، **أو استقلاله بتعامله مع الإنسان** بكل جوانب استعداده، حيث إن له من الأثر ما لا يقدر الإنسان إهماله، فهو منهج "يخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبه الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع، واللمسة المباشرة والإيحاء، وهذا الإيحاء بالحقائق الكبيرة، التي لا تتمثل كلها في العبارة. ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها"([١]) فهو المنهج الوحيد الذي يستقل بمخاطبة كل استعدادات النفس الإنسانية([٢]).

كما أنه مستقل بأنه الحق، وما دونه ما هو إلا الباطل، فقال تعالى:"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ" (الحج: ٦٢)، فأيّ منهج وجد على وجه الأرض اتصف بالحق المطلق؟ لذا فهو استقلّ باختصاصه بأنه فرقان، يقص الله فيه الحق وهو خير الفاصلين، ويعمل على تصفية الفرد من شوائب الشرك بالله تعالى، فهو يقوم على التمييز بين الأمور لانتفاء اللبس والخلط، بحيث تجد كل واقعة من وقائع الحياة حكماً لها، أو موقفاً منها، أو طريقة للتعامل، فالفرقان هو "الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما، وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ،

---

(١) قطب، سيّد، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**، بدون اسم دار للنشر، ط٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص١٦.

(٢) وسيتم التفصيل في اتصاف المنهج بخاصية الوسطية في التعامل مع النفس.

وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ، وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل، فقد تبين بذلك أنّ القرآن سُمّي "فرقانًا"، لفصله – بحججه، وأدلَّته، وحدود فرائضه، وسائر معاني حُكمه– بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بنصره المحقّ، وتخذيله المبطل، حُكمًا وقضاءً"(١)، فأي منهج امتاز بأنه فرقان يميّز بين الأمور كلها، ويصنّفها ليعلم الإنسان موقعه فيه وجزاء عمله الذي أقدم عليه؟

وهذا يسهم في إيجاد الشخصيّة المستقلة التي تميّز بين الحق والباطل مهما اختلطت بها الأحداث بدقة واتزان، كما كانت شخصيّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي سمّي بالفاروق.

وأن يختص منهج القرآن بخاصية الفرقان يعنى أن تظهر مكانة كلمة الله تعالى أمام كلمة الباطل، فتظهر المسافة بينهما، ففي قمم العلو كلمة الله، وقمم الانحدار كلمة غيره، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فينجلي الفارق بينهما ليكون الفارق ظاهراً للعيان، "فباعتبار الفرق يكون منشأ الاستقامة"(٢).

وهو مستقل في تعامله مع الروح، فهو منهج روحيّ، فلا يوجد منهج يتوصّل لطريقة في التعامل مع الروح إلا منهج القرآن الكريم؛ لأن مشرّع المنهج هو المنفرد في معرفة حقيقة الروح، والروح من الاستعدادات للتغيير، إذن فمنهج القرآن في التغيير هو الذي سيستقلّ وينفرد في التعامل معها، والتأثير بها أكثر من أي منهج آخر.

وهو مستقل في التعامل مع زمن الحدث الماضي والحاضر والمستقبل، "فللإنسان أيام ثلاثة: الأمس والبحث عنه يسمى بمعرفة المبدأ، واليوم الحاضر، والبحث عنه يسمى بعلم الوسط، والغد والبحث عنه يسمى بعلم المعاد، والقرآن مشتمل على رعاية هذه المراتب الثلاثة"(٣)، فيبيّن أحداث

---

(١) الطبري، مقدمة تفسير **جامع البيان**، المجلد الأول، ص٦٤.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مصدر سابق، المجلد الثاني، ص٨٩.

(٣) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد الثالث، ج٧– ص١١٢.

الماضي، ويهدي لقوام الحاضر، ويبيّن وقائع المستقبل، بتناسق بين الأحداث، وتوجيه دقيق يربطها جميعاً، من خلال سنن حياتية وكونية، تسير عليه السنن الإنسانية.

كما أنه مستقل في لغة خطابه التي كانت وسيلة التغيير، حيث احتوت على أساليب البيان، نظماً، وجودة سبك، وتصوير المعاني، والإيجاز مع وفاء المعنى، والتأثير بلا تأثُّر، وطريقة التأليف، ووفاؤه بحاجة البشر، وثبوته القطعي، "ولِما ترى من استقلالِ هذه الطريقة بضروبٍ من أسباب المبالغةِ والتأكيد، كثُر سلوكُها في التنزيل المجيد، كيف لا وكلُّ ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوبٌ جليلةٌ حقيقةٌ بأن تقشعِرَّ منها الجلودُ، وتطمئنَّ بها القلوبُ الأبية، ويتلَقَّوْها بآذانٍ واعية"(١)، لذا "تستقل الأنفس الإنسانية في جنب قدرته سبحانه أيما استقلال"(٢)، فمنهجه تعالى قائم على اليقين، "ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِن الخَلْق في توهم الإنجاد والإعانة"(٣). وهو المنهج المستقل بالحفظ من التحريف والتبديل رغم وجود من يمكر به، كما أنه مستقل بالدوام ما دامت السماوات والأرض، فتمام نوره باق إلى يوم الدين لقوله تعالى: "وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ" الذي يخرج به الناس من الظلمات.

*- **الخاصية الثانية: الوسطية:** إن من بالغ الحكمة التعامل مع مركز الوسط في كل الأمور، حيث إن الوسط في اللغة "بناءٌ صحيح يدلُّ على العَدل والنِّصف. وأعْدلُ الشَّيءِ:أوسَطُه ووَسَطُه"(٤)، والوسط هو المحور الثابت الذي تحيطه الموجودات،" وسمي الوسط سواء، لاستواء

---

(١) أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج١- ص٨٠.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مجلد ٥١، ص٢٦١.

(٣) القشيري، عبد الكريم بن هوازن(ت٤٦٥هـ)، **تفسير لطائف الإشارات للقشيري**، ج١- ص١٨٤.

(٤)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص ٦٣١

المسافة منه إلى الجوانب"([1])وعليه يسمى الوسط مركزاً لعلاقته بين كل الجوانب والأطراف دون طغيان لأحدها على الآخر،"فالأطراف يتسارع إليها الخلل "([2])، والقرآن هو القول الوسط الحق العدل([3]) الذي لا تشوبه شائبة، وهو المختص بمركز الهداية والرشاد، يقول الآلوسيّ:"الصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال وتأكد ذلك بقوله تعالى:"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً"(البقرة: ١٤٣)"([4])، كما أن الوسط هو السبيل الذي لا بد من ابتغائه، وقد جاء في القرآن الكريم "التعبير عن الأمر الوسط بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون، ويوصلهم إلى المطلوب"([5])، كما" أن الوسط من كل شيء خياره"([6]). خياره"([6]). ومن أمثلة الوسطية التي اختص بها القرآن الكريم في عملية التغيير عن غيره:

١.**تخصيص النفس بالتغيير كمركز وسطيّ في الإنسان:** إن تخصيص النفس بالتغيير في قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ **مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"(الرعد: ١١) دليل على أن النفس هي الرابط بين الجانب الماديّ للإنسان والجانب المعنويّ، فمن غيّر نفسه فهو لا بد من أن يغيّر توجيه حواسّه، وضبط عمليات عقله، وإصدار الأوامر السلوكية المناسبة، وضبط الانفعالات والشهوات والأهواء بميزان المنهج القرآنيّ، وما ينتج عن ذلك من الرقيّ الروحيّ في ارتقاء العلاقة بين الخالق

---

(١) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، المجلد الثامن ص٨٩.

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي،،**تفسير البحر المحيط**، المجلد الأول، ص٥٩١.

(٣) انظر: ابن كثير،إسماعيل القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، المجلد الثالث، ص٣٥١.

(٤) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، المجلد الأول، ص٩٥.

(٥) المصدر السابق، المجلد الثامن، ص١٨٣.

(٦) الرازي، **التفسير الكبير**، المجلد الثاني، ج٤– ص٨٤.

والمخلوق، لذا فإن تخصيص الأمر بالتغيير في النفس كفيل بأن يكون أمراً بتغيير كل ما سبق ذكره، وهو جانب من جوانب الإعجاز القرآنيّ في اختيار اللفظ الجامع لكل أطراف عملية التغيير.

٢.**تخصيص التغيير بالذكر عن الكلمات الأخرى:** كما أن انتقاء لفظ التغيير كلفظ متوسط بين التحوّل والاستبدال أيضاً دليل آخر على وسطية التعامل مع الألفاظ، حيث أن الإنسان عند إرادة التغيير يعمل على تحويل مساراته وفق منهج الله، واستبدال السقيم من الأفكار والسلوكيات بقويمها، وعند ذكر لفظ (التغيير) استغنى عن التفصيل في التوجيه والتبديل.

إن خاصيّة الوسطية المنهجية في التعامل تكفل إيجاد أسس البحث المنهجي لدى الإنسان، وإطلاق التفكير إلى العنان، ليتقدم في البناء الفكريّ والسلوكيّ، وليعرف كيفية التعامل الحياتيّ من خلال منهجية سليمة يضبطها التفكير المنهجيّ، وتصطبغ بصبغة الله، وتتسم بالسمة القرآنية الحكيمة، ويكون من آثارها وجود الفرد المتوازن الباني للمجتمع المتوازن، المحقق للأمة الوسط.

٣. **وسطية الخطاب للمنطق الوجداني في النفس:** كما عمل القرآن على تحديد أقرب طريق للوصول إلى هدف التغيير، فاتخذ من الخطاب بالمنطق الوجدانيّ سبيلاً للحوار والجدال، والتهديد والتيسير، والترغيب والترهيب، والأمان والتخويف، باعتبار الموقع الوسط في إيصال لغة القرآن لتفاصيل النفس الإنسانية، حيث إن الاتصال الوجداني عبارة عن"مجموعة من الأحاسيس المتمثلة في الاستئناس والنفور التي تظهر بين الفرد ومحدّثه، لتعبّر عن حقيقة المشاعر والعواطف"([1])، والمنطق هو "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر"([2])، والوجدان من وجد إذا

(١) سالمي، د. عبد المجيد سالمي وآخرون، **معجم مصطلحات علم النفس**، دار الكتاب اللبناني، ط١-١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٢.

(٢)الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، مصدر السابق، ٢٢٩.

حصل على مبتغاه ولقي ضالته، وظفر بها([١])، وهو مشتق من الوجد الذي يعني"ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع"([٢])، والوجدانيات"ما يكون مدركاً بالحواس الباطنة"([٣])، فيكون المنطق الوجدانيّ نتاج عصمة الفكر عن الخطأ مع حالة في القلب ناتجة عن السماع، تُنتجُ وتحرُّك الأطراف، "فالأسماع محك القلب، ومعيار ناطق"([٤]) فيلقى الإنسان ضالته فيما شرع في التفكير فيه، "فأول درجة السماع، أي فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح"([٥])، فعندما تتلقى الأسماع كلمات الله فإنها تحاول أن تتفهم معانيه، وعندها يكون للوجد النصيب من تلقي تلك المعاني، حيث يصبح للخطاب منطقاً وجدانيّاً يحرك النفس لتتوجه الجوارح بالقبول لتدفق المعاني، وهذا التحرك الوجدانيّ هو الدافع لعملية التغيير الفرديّ ومحرّكها.

إن الوجدان ناتج عن التفكير، ومثير لمشاعر الشوق، التي تقود الإنسان نحو التقدم والرقيّ، "فالعبد إذا كان في الترقي حصل بسبب تعاقب الوجدان، والحرمان، والوصول، والصد آلاماً مخلوطة بلذات، واللذات محفوفة بالحرمان والفقدان، كانت أقوى، فيشبه أن يكون هذا النوع من

---

(١) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (وجد).

(٢)الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، المصدر السابق، ص٢٤٥.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه، ج٣- ص٣٣٦.

(٥) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مصدر سابق، ج٣- ص٣٥٩.

اللذات مما لا يحصل إلا للبشر"([١])، فيختص القرآن بخطاب منطقيّ يقيم التوازن النفسيّ، فلا يغلب العقل على الإحساس، ولا الإحساس على العقل.

إن اختصاص القرآن الكريم في خطاب لكل استعدادات النفس هو أقوى درجات التأثّر للنفس، ليُحدث نهضة عملية في النفس الإنسانية يغيّر من خلالها ما حوته هذه النفس، وهذا التغيير ينعكس على سلوك الفرد بحسن التعامل ورقيّ الأخلاق، "فعمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة، وإيقاظ الحس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاها إلى الوجدان، وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة، أو المشاهد المشخّصة، والمصائر المصوّرة، كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتدركها الفطرة المستقيمة"([٢]).

إن المنطق يقتضي البحث، والفطرة تقتضي شعور الإنسان بالنقص الذاتي، ووجود ذات كاملة غَرست في النفس ذاك الشعور، فعندما يجد الإنسان ضالته فيما يكمّل نقصه فقد نتج عن ذلك الوجدان ثمار الإيمان اليقينيّ بوجود الله وحده، المنزل للقرآن كلامه، المنظم لحياة الإنسان في منهجه متخذاً من الوسطية منهجاً في التعامل مع النفس الإنسانية وخطابها.

***- الخاصية الثالثة: جمال المنهج القرآني:**

إن هناك علاقة بين اختصاص منهج القرآن الكريم بالجمال والتغيير الفرديّ، فللجمال دور في الاستدلال على وجود الله تعالى من خلال الشعور بجمال الخلق وكمال الصنعة، وهذه العلاقة تكمن فيما لتلك الصبغة الجماليّة التي تصطبغ بها عملية التغيير الفرديّ المتحققة من خلال

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مجلد ٢، ج ١٤- ص١٧٧-١٨٨.

(٢) قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية الرابعة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٨٤-١٨٥.

التعامل مع القرآن الكريم. فمعنى الجمال الحُسْنُ([1])، والحُسْنُ " كون الشيء ملائماً للطبع،... وكون الشيء صفة كمال، ... وكون الشيء متعلق المدح.."([2]) وبما أن الجمال كون الشيء صفة كمال، فإن كمال الانسجام بين منهج الله وطبيعة الإنسان هي من أسمى مظاهر الجمال؛ لأنه المنهج الموافق للفطرة والطبع، والمكمّل لزينة خلق الإنسان، بجمع منسجم بين جانبي الإنسان الماديّ والمعنويّ، بلفظ أقرب للنفس في وقعه، وأكثر إثارة للذة في تذوقه، **فالجانب الأول** لجمال المنهج القرآني في التغيير الفرديّ، أنه لفت الإنسان لما حوله ليتأمّل نظام الكون، ودقة الصنعة للخلق، فحث الإنسان إلى النظر المتأمّل؛ لأنه منبع الاستمتاع بوقع الطبيعة حوله في إبداعها، والتوصّل من عند تأمّل جمال الصنعة إلى جمال الصانع، وبها يكون ربطٌ للشعور بالمعرفة، وتغيير النفس من خلال استشعار جمال الصنعة الإلهية في الخلق، فالله "جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ"([3])، فلا بد من "ذكر القلب بالتفكر في الملكوت ومطالعة صفات الجمال"([4]) وعلى هذا يقوم إيمان الإنسان بخالقه على أسس التفكير في الجمال الذي يثيره الإبداع في الخلق واستشعاره([5]).

أما الجانب الثاني: فهو في تلك اللذّة المنبعثة من خطاب الصانع الجميل، وأسلوب كلامه المؤثّر في النفس بكل تفصيله، فيأتي مرّة بإثارة شعور الجمال بانتقاء الألفاظ الباعثة له، فتكون استعمالاً للخيال الذي استعدّت به النفس، فمثلاً عند بعث جمال العلاقة بين الخالق والمخلوق

---

(١)انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص٢٦٤ .

(٢)الجرجاني، **التعريفات**، مصدر السابق، ص٩١.

(٣) وصيغة الحديث (إن الله جميل يحب الجمال)، **رواه مسلم في صحيحه** كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه، حديث برقم:(١٧٨)، ص٦٦.

(٤) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، المجلد الخامس، ص١٦٧.

(٥) ولقد استفاض محمد قطب في كاتبه **منهج الفن الإسلامي** في قضية الجمال القرآنيّ في إشاراته للكون، انظر: كتابه طبعة دار الشروق سنة ١٣٩٣هـ،١٩٧٣م، من ص١٢٥-١٣٤.

باختيار ألفاظ التقريب والتحبيب كما في قوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"(البقرة١٨٦)، وذلك لاستجلاب نفوسهم دون إجبار أو إكراه، وهذا الاستجلاب تغييرٌ مقيم لعلاقة المحبّة بين الله وعباده، فاختار لفظ (عبادي) في وصفهم. كما أنه لم يجعل جواب سؤالهم: (فقل إني قريب) مثلما كانت سياسته فيما جاء جواباً لأسئلة أخرى، فجاء الإضمار([1])، لِيُلَوِّنَ الخطاب مع توجيهه، ليستشعر الإنسان قيمة وجوده، كاسراً سطوة القسوة القلبية، مخاطباً فطرة النفوس التي جُبِلت على الإحسان، مستدعياً ما أودعه في ذاكرته من فيض إحسانه على خلقه لمّا شَمَلَهُمْ بكل خير.

والتغيير الحاصل من استشعار الإحسان أثبت في النفس، "فالخير إشارة إلى كشف الجمال"([2])، والاستزادة في الخير تقرّب إلى الله، وهذا التقرّب هو تغيير في النفس يُحدث تقدّماً وارتقاء، يقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه جل وعلا:"...وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"([3])، فمن من الآلهة التي اتبعها التابعون كانت بهذه الرحمة، وهذا الكرم والجود؟ **إذ هذه ميّزة جماليّة أولى** لمنهج الله تعالى، ومَنْ من المناهج التي اتُّبِعت من دون الله نظرت إلى المتَّبِع بهذه النظرة التي تبيّن كرامة هذا الإنسان عند هذا الإله؟ **هذه ميّزة**

([1]) انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء الشافعي،**تفسير معالم التنزيل**، ج١- ص٢٢٥.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، المجلد الرابع، ج٦- ص١٨٨.

(٣) أخرجه **البخاري في صحيحه**، كتاب الرقاق باب التواضع، حديث رقم ١٣٦٦، المجلد الرابع، ج٨- ص٤٨٢،٤٨٣.

جمالية أخرى، فتنشأ العلاقة بين المستشعر بالجمال والمتصف بالجمال، وهذه العلاقة قائمة على الحب بين الطرفين، وهذا الشعور هو الأساس في جعل رباط العبودية بين العبد وربه رباطاً وثيقاً لا يقدر قادر على بتره، وهو الداعي إلى السعي الحثيث، المحاط بالصبر الجميل على كل ما يعيق التوجه نحو الاستزادة من التطبيق لتفاصيل منهج الله تعالى، بتدقيق النظرة في التفاصيل، فأي منهج على وجه الأرض قام على هذا الأساس، واختصّ بهذه الخاصيّة؟.

إن قيام العبودية على أساس المحبة المتبادلة بين العابد والمعبود هي من أدلّ الدلائل على اختصاص المنهج القرآنيّ بخاصيّة الجمال، حيث إن الإنسان بالتزامه يصل إلى درجات عليا من الإحسان العملي المتمثل بالإتقان للعمل، ويتصف الإنسان بالإحسان في الخُلُقِ، ومثالها الصبر الجميل الذي تمسك به يعقوب عليه السلام، فأخبر الله تعالى في كتابه عن قول يعقوب، فقال تعالى: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "(**يوسف٨**)، وأمر نبيّه عليه الصلاة والسلام به فقال: " فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً "(**المعارج: ٥**)، وجاء أمره كذلك بالصفح الجميل: "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"(**الحجر٨٥**)، فيتنافس العابدون في تحصيل القرب من الله، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويتلاقى الخطاب الجماليّ في القرآن مع القيمة الجمالية للالتزام بمنهج الله تعالى بقوله:"فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"(آل عمران: ١٤٨) **فيكون الجانب الثالث** من المنظومة الجمالية جمال الميزان القرآنيّ في إعطاء القيمة الجمالية الخُلُقِيَّة في العلاقات الحياتية كافة، وهي الوصول إلى درجات عليا من التغيير الارتقائي.

الخاصية الرابعة: خاصية كمال المنهج القرآنيّ:

الكمال"تمام الشيء"(١)، فإن أُطلق كمال المنهج من جهة واضعه فإنه تام بكل شيء جاء فيه، ولكل شيء جاء لأجله، وهذا جانب من جوانب الاعتقاد الذي ينبني عليه التصوّر السليم عن الله بذاته، وصفاته، وأفعاله، فهو المتصف بالكمال كله وحده، وبتمام أفعاله جعل هذا المنهج على أكمل وجه، فأتم النعم، وأكمل الدين على أتمّ بيان، وأحسن نهجه، وعليها فإن الظن بالله غير الحق ظن الجاهلية في ذاته وصفاته وأفعاله يكون خروجاً عن المنهج، وخروجاً من الملّة، حتى وإن كان العمل وفق مقتضيات منهج الله تعالى.

فمنهج القرآن الكريم كامل بمصدره، وهو كامل في الانسجام العملي المتوازن والمنظَّم بين أهدافه وأسسه وأساليبه وخصائصه، وهو كامل الشمول للناس وللزمان، حيث إنه المنهج الوحيد على وجه الأرض جاء للناس كافة لقوله تعالى:"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ"(سبأ٢٨)، وكامل الشمول لكل ما كان قبله، وكائن حاليّاً، وسيكون مستقبلاً، فالكمال بالنسبة لواضع منهج القرآن الكريم مردّه إلى صفة الكمال الإلهيّ، وهي صفة ثابتة بالذات الإلهية.

إن النظر لخاصية الكمال بالنسبة لمستقبِل المنهج (الإنسان) لها جانبان، **الجانب الأول** من جهة كمال خلقته، وهي تندرج تحت بند نعم الله عليه بأنه خلقه في أحسن تقويم، وهي راجعة لكمال الخالق الذي يكون كمال خلقته دليل على كماله.

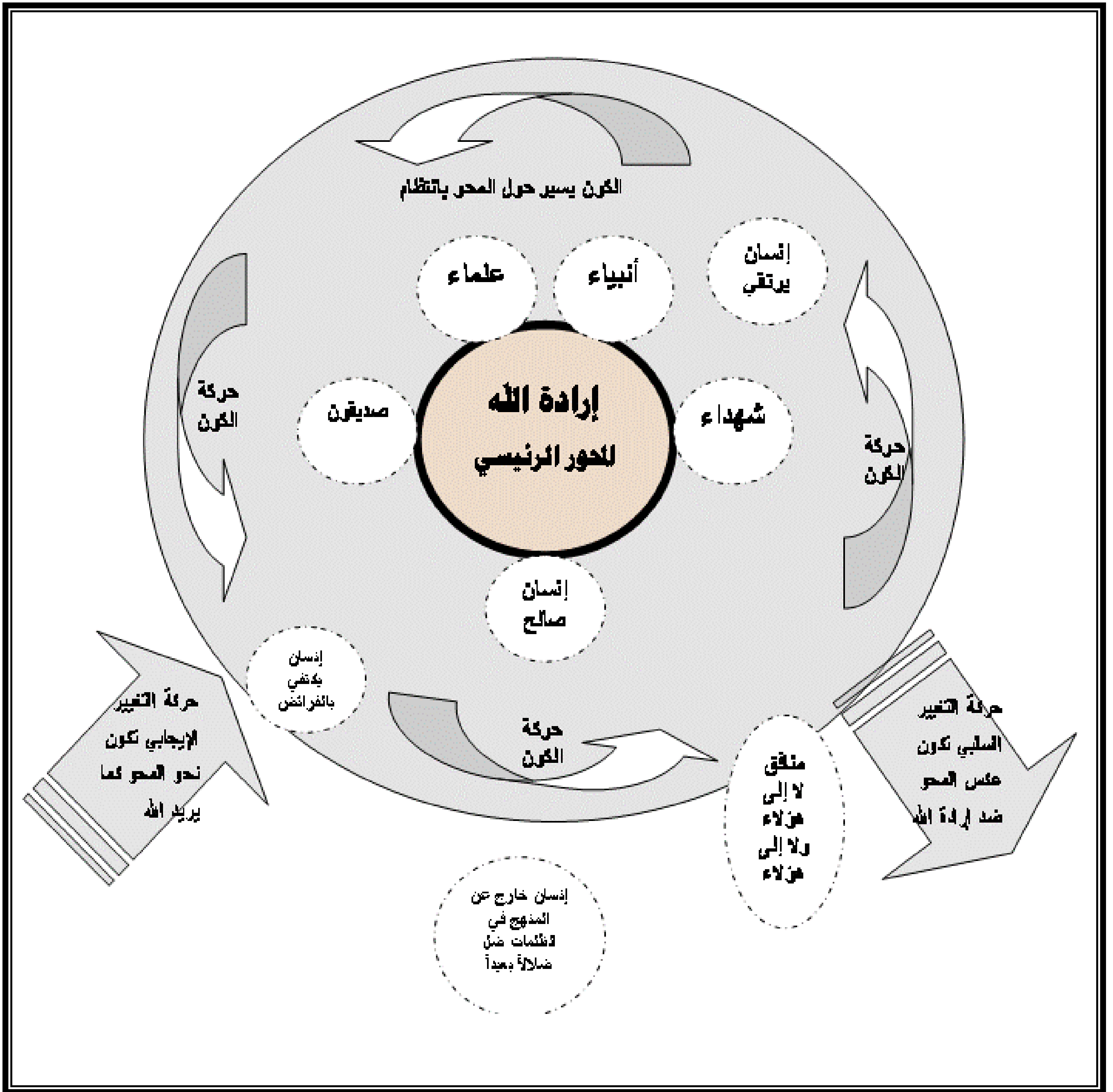
أما من جهة تطبيق الإنسان لمنهج القرآن الكريم؛ فإن ما امتازت به خاصيّة الكمال أنها متفاوتة ومتحركة؛ لأن التطبيق الإنسانيّ لتفاصيل المنهج مختلفة، فالتغيير يعني إقامة العلاقة الوثيقة والقريبة بين إرادة الله، وإرادة الإنسان، بوجود جامع بينهما وهو المنهج، لتحقيق الانضباط والنظام

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص٤٢٤.

في مسيرة الحركة الإنسانية، أما الحركة الكونية فهي منضبطة بسننها دون خلل في سيرها؛ لأن ما يسيّرها هو إرادة الله وحده، ولا وجود لإرادة أخرى تحكمها، لذا فإن التسمية المناسبة للكمال بالنسبة للمخلوق هي الكمال التطبيقيّ، الذي يعني مدى التوافق بين الإرادتين، ومدى إرادة الإنسان بأن يطبّق منهج الله الذي يريده للناس.

فمن خلال هذه الخاصيّة يستطيع الإنسان أن يعرف مكانته بقدر توجيه إرادته للعمل بمقتضيات المنهج، وكل أفعال الإنسان خيراً كانت أو شراً محكومة بمشيئة الله تعالى، وبهذا يستطيع أن يحدد مكانه في دائرة منهج الله تعالى إن كان على حدوده دون استزادة، أو كان مرتقياً بجهد، أو كان مرتقياً بتلقائية دون جهد، أو كان من المحسنين، أو كان من الأنبياء والشهداء والعلماء والصديقين، وهي أعلى مراتب التوافق العملي بين الإرادتين، كما يبيّن الشكل التالي المسيرة الإنسانية الإرادية بين التوافق مع إرادة الله أو الاختلاف بينهما:



إطار المشيئة

أي إن مشيئة الله تعالى تحكم كل المخلوقات

فالمشيئة أعم من الإرادة

قال تعالى:

" وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً "

المبحث الثاني: آثار التغيير الفردي بمنهج القرآن الكريم

- القسم الأول: آثار التغيير على المستوى الفردي:

إن آثار التغيير الذي يكون بمنهج القرآن لا تُحصى ولا تُعد، وتتعدى الفرد لتصل إلى ارتقاء في المجتمع والحضارة، **فمن أبرز الآثار التي حققها منهج القرآن في التغيير على مستوى الفرد:**

- **الأول: الفرد المتوازن:** وهذا التوازن يشمل الفرد في نفسه، فيكون متوازناً في تفكيره، فلا يتأثر بالباطل مهما جاء بصور الإقناع العقلي، ويكون الفرد متوازناً في سلوكه وتعامله في علاقته مع نفسه، فيعلم أنه لها حقّ، ولكن لا يطغى حقها على واجباته اتجاه ربّه والناس.

ويكون الفرد متوازناً في اختيار الخيارات الأنسب في حالة تعرّضه لمشكلات في حياته، حيث إنه يكون متوازناً " بين الاندفاع والتروي، والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة... "(١).

كما أن اتصاف المؤمن بالتوكل هو أحد مظاهر هذا التوازن، فيقول سيّد قطب في وصف هذا الأثر بأنه: "التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام"(٢).

كما أن هذا التوازن يشمل التوازن الاقتصادي من حياة الفرد، فلا يسرف ولا يقتر كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن:"وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً"(الفرقان٦٧)، ولا يغلّ يده عن الإنفاق ولا يبسطها، فقال تعالى:"وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً "(الإسراء٢٩).

-الثاني: اتصاف شخصية الفرد بالقيادية: وتكون القيادة السليمة إما لنفسه التي هي بين جنبيه، فيقودها إلى كل ما ينجّيها ويرتقي بها، أو قيادته لغيره ممن هو مسؤول عنهم حسن قيادة، من

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، المجلد الأول، ج١، ص١٨٩.

(٢) المصدر السابق، المجلد الأول، ج٢- ص١٢١.

أسرة، أو عشيرة.... إلخ، حيث إن الفرد المتغيّر بمنهج القرآن الكريم – غالباً– تتصف شخصيّته بالقيادة؛ لأنه يُحسن قيادة نفسه وتغييرها المستمر نحو الارتقاء بالقرآن الكريم، ويحسن قيادة ما كان مسؤولاً عنه من أسرة أو أفراد آخرين في توجيههم وقيادتهم نحو ما يحقق لهم الارتقاء والرفعة والخير.

والشخصية القيادية هي الشخصيّة القادرة على القيام بكافة المسؤوليات بطريق منظمة، وقادرة على إصدار أفضل القرارات المناسبة للأحداث التي يواجهها الفرد والجماعة، ويدل على ذلك ما كان من النبيّ صلى الله عليه وسلم من اختيار قيادات الجيوش للصحابة رضي الله عنهم مثلاً.

والقصّة القرآنية لها دور بارز في الإشارة للشخصيّة القيادية في القرآن الكريم، فجاءت بنماذج قيادية، ومن أمثلتها قصّة طالوت وقيادته لجنوده في سورة البقرة، وقصة الخضر وقيادته التعليميّة لموسى عليه السلام في سورة الكهف، وسليمان عليه السلام وقيادته لما وهبه الله إياه من ملك. وعلى ذلك فإن القرآن الكريم يغيّر الشخصيّة في الإنسان إلى حدّ إعطائه قدرة القيادة السليمة لنفسه ولغيره، فيكون ذو شخصية مستقّلة غير منقادة إلا لله تعالى وحده، ويكون إنساناً قائماً بمسؤولياته على أكمل وجه.

– القسم الثاني: آثار التغيير على المستوى الاجتماعي:

إن مدى ارتباط التغيير الفردي بالتغيير الجماعي يجعل الأثر الناتج على الفرد ينعكس في مجتمعه، لذا فإن الآثار الناتجة نجاح التغيير الفردي كما يأتي:

١- **العدالة الاجتماعية:**

إن العدالة الاجتماعية المتحققة كأثر من آثار التغيير الفردي هي من أهم الأهداف القرآنية فقال تعالى:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..."(**الحديد٢٥**)، يقول

الآلوسي في معنى إنزال القرآن لعلة قيام الناس بالقسط أي" أي بالعدل، يشتمل التسوية في أمور التعامل باستعمال الميزان، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب"([1]).

ومن أسس العدالة الاجتماعية المساواة الإنسانية، والتكافل الاجتماعيّ([2])، فالمساواة نتاج الكرامة الإنسانية التي حققها القرآن الكريم في منهجه الذي غيّر الناس حتى ارتقى بهم في سلم الرفعة الدينية والرضا، يوم جعل ميزان التفاضل بين الناس هو التقوى لقول الله تعالى:"يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(الحجرات ١٣)، فلا فضل في هذه الحالة لعربيّ على عجميّ إلا بها، وقيمة استشعار الكرامة "هو إشعار كل فرد بأن له حرمة لا يجوز أن ينتهكها عليه الآخرون، ولا تقِلّ حرمة أحد على حرمة أحد، فهم فيها سواء، وهم جميعاً مؤمنون"([3]).

أما **التكافل الاجتماعيّ** الذي حققه القرآن الكريم كأثر من آثار التغيير الفرديّ، فإن ما جاء به من نظام يحكم كل فرد نفسه به، وهذا النظام إما نظام أسريّ، أو اقتصاديّ، أو تعامليّ، كفيل لأن يحكم ضرورة وجود الإنسان بين أفراد علاقته بهم كتاب الله تعالى، فمثلاً التكافل العائلي في الإسلام الذي يعدل بين أفراد الأسرة في التعامل والنفقة والميراث، وما في أحكام القرآن من تفصيلات لإقامة العدل بين الزوجين، وتوزيع الحقوق والواجبات بينهما.

كما أن التغيير الفردي كان له الدور في تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فلما تغيرت أحكام البيع، جاء القرآن بالحكم فقال تعالى:"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا..."(البقرة٢٧٥)، وأباح الدَّيْن،

([1]) الآلوسي، روح المعاني، المجلد التاسع، ج١٤، ص١٨٨.

([2]) انظر: قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٢١-٣٥.

([3]) المرجع السابق، ص٥٩.

وضبط كيفية التعامل فيه بكتابة الدّيْن وشهادة الشهود، ليحفظ حق كل فرد، فيتكافل الكل في عون الآخر عند حاجته، وتواصل الجميع في التعامل كجسد واحد، لينتقل التكامل العمليّ لعملية التغيير من أعضاء النفس الواحدة إلى أفراد المجتمع الواحد كجسد واحد، وكل فرد فيه كعضو من أعضاء هذا الجسد.

ولقد جاءت النصوص تبيّن طبيعة مجتمع المتبعين للقرآن الكريم منهجاً، فقال تعالى:" مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً"(الفتح٢٩)، وجاء في الحديث الشريف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(١)، وبهذا يكون التغيير الحاصل من إلتزام منهج القرآن الكريم سبيل للتكافل الاجتماعيّ، وتحقيق للعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلاميّ.

٢- **قيام المجتمع الأخلاقي:**

إن انتشار الأخلاق القرآنية بين أفراد المجتمع الواحد بحيث تصبح هي مقياس لقيمة الشخص لهو من أهم الآثار التي تنتج عن التغيير الفردي الذي انتهجه القرآن الكريم.

فالأخلاق على قسمين:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب بَاب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم(٢٥٨٥)، ص١٢٤٧.

- **منها ما كان واجب التنفيذ** وهي الأخلاق التي يأثم تاركها ويعاقب عليها مثل الزنا، شهادة الزور، الظلم، وهدر الحقوق، وأكل مال الناس بالباطل، والكذب، والسرقة، والسخرية، .... إلخ، ووجودها دليل على مجتمع فاسد، تملؤه الآفات الاجتماعية.

لذا كان دور القرآن الكريم لتحقيق التغيير الفردي تحريم ما يناقض هذا القسم من أقسام الأخلاق، لضمان قيام مجتمع يخلو من البغضاء والسوء والفحشاء والمنكر والاعتداء، فمثلا جاءت الآيات الآمرة باجتناب الزور، فقال تعالى:"ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ "**(الحج٣٠)**، وجاء من الآيات ما يأمر بالصدق فقال تعالى:"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ"(التوبة ١١٩)، وغيرها من الأمثلة الكثير التي تجعل الجانب الأخلاقيّ الواجب منظومة متكاملة تجعل من المجتمع مجتمعاً أخلاقيّاً منضبطاً بالقرآن الكريم، نظيفاً من آفات الفحشاء والمنكر والبغي.

أما القسم الثاني من الأخلاق فهو ما كان مستحبّاً، فيأخذ المتمسك فيه من الأجر دون أن يؤدي تركه للعمل بهذا الخلق إلى العقاب، فمثلاً العفو والمغفرة من أجمل الأخلاق التي تجعل المجتمع الإسلاميّ مجتمعاً متماسكاً ومواصلاً، لا تشوبه الانقسامات، ولا يحيا بالبغضاء، بل ويقطع حبال الشيطان من أن تشوب قلوب الناس، فمثلاً موقف أبي بكر بعد حادثة الإفك، يوم كاد يقطع نفقته عن مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ،عندما علم أنه كان يقول في ابنته ما قال، فنزل قول الله تعالى:"وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"**(النور٢٢)**، فقال أبو بكر:" بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي

أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا"([1]).

إن الآثار المترتبة على التمسك بهذا القسم من الأخلاق سبيل لرقي المجتمع المتمسك بالقرآن الكريم، حيث إن تغيير النفوس الضيّقة بالنفوس التي تأخذ من سعة الصدر مبدأ لها، سبيل للتجاوز عن الأخطاء والزلات، وتتصف بالإيثار الذي يثري المجتمع بكمال الأخلاق، فيتقي الإنسان شحَّ نفسه مثلما يتقي السوء، وسعة الصدر تمثل المكان الأنسب لقيام أخلاق عليا يحققها منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي لقيام مجتمع أخلاقيّ، قال تعالى:"وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(الحشر٩). وعلى هذا يكون من أهم الآثار المترتبة على تحقيق منهج القرآن الكريم في نفس الفرد، ونفوس الجماعة قيام مجتمع أخلاقيّ متصف بجميل القول والعمل، فرداً وجماعة وأمة، فيكون الفرد متوازناً والمجتمع متوازناً والأمة الوسط التي وصفها القرآن الكريم بخير أمة،وهو التغيير الذي يبدأ من الإنسان كنواة، وينتهي بالأمة الإسلامية.

([1]) رواه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى:"**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا إِلَى قَوْلِهِ الْكَاذِبُونَ**"،حديث رقم(١١٧٥)، مجلد٣، ج٦،ص.٤٦٦

- الفصل الخامس: موانع التغيير الفردي في القرآن الكريم، وفيه:

- المبحث الأول: المانع النفسي الداخلي وعوامله.

- العامل الأول: الفساد العملي للحواس.

- العامل الثاني: الفساد العملي للعقل والقلب.

- المبحث الثاني: المانع الحياتي البيئي:

- العامل الأول: المانع الأسريّ.

- العامل الثاني: المانع الاجتماعي.

الفصل الخامس: موانع التغيير الفردي في القرآن الكريم

إن الخير سابق للشر، وضلال الإنسان أمر عارض، وحالة خارجة عن الأصل الذي قامت عليه الحياة، وعدم استجابته لا تكون إلا بوجود حائل يحول بينه وبين الرجوع إلى أصله الخيّر، وعليه فإن الضلال والإصرار عليه استمرار لوجود الحائل بين الإنسان وبين الاستجابة، فيكون الابتلاء لهذه الفئة بالشرّ والخير لإثبات الحجة على الإنسان بأنه اختار ما لا يناسب أصله، واستدراجاً له؛ لأنه بضلاله اختار الشر الذي ليس من أصله وترك الخير الذي جبل فيه، فتنقّل في دركات الضلال حتى يعتاد على الفعل السيء، فيُقبض على ما تم الاعتياد عليه(١).

لقد جاء في آيات القرآن ما يؤصّل موانع التغيير ببيان إجماليّ وتفصيليّ لأسبابها؛ ولتعريف جنس البشرية بالعدو الحقيقي الذي يتوعّدها بسلخها عن أصلها الخيّر الذي جُبِلَ عليه آدم، وكي لا يكون للناس على الله حجة عرّفهم السبب الرئيسي المؤدي إلى إضلالهم وسوء حسابهم، فبيّن أن هدف الشيطان هو أن يشاركه آدم وذريّته فيما استحقه من لعنة، فقال تعالى مبيّناً هدف إبليس وتوعّده لآدم وذريّته:" قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً"(الإسراء: ٦٢)، وقد بيّنت هذه الآية أمراً هامّاً، وهو في قول **(كرّمْتَ عليّ)**، دليل على أن السبب الرئيس في المعصية تكريم الله تعالى لجنس البشرية، لذا فإن أول ما يسعى إليه في منهج إضلاله هو طمس التكريم الإنساني بإبعاده عن مصدره، والتكريم هو من أهم الأسس القرآنية لإحداث التغيير الذي جاء القرآن الكريم يؤصّلها في النفوس، ويبني قواعده الارتقائية عليها، ويزيل كل عائق أمام وجودها، ويبني عزّ المسلم بها، وبها ميزان التفاضل، حيث إن الإنسان مكرَّمٌ ما دام في إطار منهج الله، مهان ما دام مكرِّماً للشيطان باتباع سبيله، فاستثنت الآية (قليلاً) دليل على أن قليلاً من

---

(١) ولا يعني ذلك أن من كان في دائرة الاستجابة لمنهج الله لا يكون الابتلاء بالشر والخير قياماً للحجة عليه، بل هناك للمؤمن قضية أخرى لا بد من حسابها وهي الابتلاء كعامل من عوامل تكفير السيئات والخطايا عنه.

عباد الله من يفهم هذه القاعدة، ويؤطّر حياته عليها، ويعمل بها، إذن فمن اتخذ الشيطان له قريناً فقد قدم مهانته على كرامته، ورضي بذلّه على عزّته، فبئس ما اتخذ بدلاً، قال تعالى:"وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً"(**الكهف٥٠**).

إن الابتلاء "من الامتحان، وهو الاختبار... ويكونُ البَلاءُ في الخير والشرّ. والله تعالى يُبْلِي العَبْدَ بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً، وهو يرجع إلى هذا؛ لأن بذلكَ يُختبَر في صَبْرِه وشُكْرِه"(١)، وتوجّه إرادته وسلامة اختياره، قال تعالى:"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"(**الأنبياء٣٥**).

إن الابتلاء لكل الخلق إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم اختبار لمدى الالتزام بمنهج الله تعالى، والثبات على هذا المنهج، ويكون مقروناً بمدى المعرفة لمنهج القرآن، والمقارنة بينه وبين أي منهج آخر، واليقين الناتج عن تلك المعرفة المضبوطة بميزان حكم يختار فيه المؤمن أو الكافر أي السبيلين يسلك بكامل إرادته، وإزالة أثر أي مانع يمنع الإنسان من التقدم في التزام منهج الله تعالى، وكل ما سبق هو علاقة الابتلاء بالتغيير الفردي، وعليه يكون الابتلاء والاختبار جارياً حتى يقوم الناس لرب العالمين في يوم فصلٍ، يعرف فيه كلّ امرئ ما كسب من خير أو شر، فقال تعالى : "إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ"(**الغاشية٢٥-٢٦**).

والابتلاء متفاوت بين الناس على حسب موقعهم من منهج الله تعالى، فلو سأل سائل: لماذا يستجيب الإنسان للشيطان مع أن القرآن مختصٌّ بأسس منيعة لا يختلف على سلامتها اثنان؟، وله من أساليب التأثير ما لا يقدر الإنسان غضَّ الطرف عنها؟، وله من خصائص التغيير ليس كمثلها خصائص في الوجود؟.إن المانع من التغيير الفردي بمنهج القرآن يكون لعدة عوامل، وهي كالآتي:

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص١٥٢.

المانع الأول: المانع النفسي الذاتي

إن الفساد العملي لاستعدادات النفس كفيل بإيجاد إنسان مضطرب، وغير متوازن، وغير متوافق مع نفسه ومع من حوله، فهذا التوافق هو من مقومات الصحة النفسية، حيث إن التوافق النفسي يضمن القدرة على الانسجام الوظيفي لجوانب النفس المادية والمعنوية، والمنتجة للقدرة على الانسجام الحياتي مع عناصر الحياة الأخرى والتكيّف معها، والتغلب على عقبات البيئة المحيطة، مع اقتران هذا الأمر بشعور من الارتياح والسعادة النفسية، والرضا المؤدي بالإنسان للتقدم الحياتيّ، والتكامل في الشخصية، وإصدار القرارات السلوكية المنتظمة والدقيقة، التي تحقق أفضل النتائج، حيث إن نتاج التوافق تحقيق التوازن، والتوازن يعني القابلية الطبيعية لتهيئة قدرات الإنسان وخبراته لتحقيق أكبر قدر ممكن من التكيف، والتقدم، والارتقاء الحياتي.

إن التكامل العملي بين استعدادات النفس الإنسانية يجعل أبعاد البحث في مسألة الموانع مرتبطة الجوانب، حيث إن التفريعات لهذه المسألة بكثرتها ودقّتها تعود لتعدد حالات النفس واختلافها من شخص لآخر، أو بمعنى آخر تعود لوجود الفروق الفردية، حيث إن وجود هذا التكامل العملي بين استعدادات النفس البشرية يعمل على تشكيل تداخلات بين كل عائق وسابقه، فالنتائج مبنية على الأسباب، والأسباب هي مركز البداية للمانع في النفس، وشتات عمل استعداداتها هو السبب الماباشر، والعوامل المؤثرة في عمل الاستعدادات تؤدي إلى امتناع الفرد عن التغيير من سبيل الشيطان إلى منهج الرحمن ، وهي:

-**<u>العامل الأول: الفساد العملي للحواس</u>**: والمقصود منها هو ما يصرف الاستعدادات الحسيّة (السمع والبصر) عما يلي:

١- إما الانتباه للبيان القرآنيّ، وتوجيه الجهد العقلي إلى كيفية إبعاد الحواس عن التقاط المعلومات الموجهة، ويكون منبع هذا الصرف من داخل النفس.

٢- وإما أن يسمع كلام الله تعالى، ولكن توجيه الحواس إلى ما يغترّ به من ماديات، أو بمعنى آخر بناء الاعتقاد على ما يُلمس بالحواس من مظاهر الحياة الدنيا.

فالأول: يتمثل بغلق مداخل الاستجابة أصلاً، وعدم السماح لأي خير بمخالطة باقي استعدادات النفس، **والسبب** هو الحكم السريع المسبق، كما جاء في الآية الكريمة في الحكم برفض الإيمان من البداية:"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ....."(سبأ: ٣١)، كما كان موقف الكفار أيضاً المبيّن لهذا السبب بيّن في الآية: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ"(**فصلت٢٦**)، حيث إنهم حكموا مسبقاً على أنفسهم بأن يقوموا بالصد والعناد قبل السماح لأنفسهم باستقبال القرآن بحواس الاستقبال، ولتجنب هذا الأمر كان من حكمة مصعب بن عمير عندما بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم سفيراً إلى المدينة المنوّرة ليعلِّم أهلها الإسلام أن يتعامل بسياسة "أوَ تقعد فتسمع فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره"(١)، والنتيجة للسماع أمر هامّ لا بد من أن يُنظر فيه، وهو وصفٌ للتوافق النفسي الذاتي لحال سامع القرآن، فمن يرقب هذا السامع كان يقول:"فعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهّله"(٢)، وهذا دليل على التكامل بين مادية الإنسان ومعناه، وهذا التكامل منتج للانسجام النفسي مع آيات الله تعالى عندما تتوجه الأسماع إليها(٣)، فإن "الوجه يظهر فيه الترح والفرح اللذان محلهما القلب"(١)،

---

(١) ومثال عليها قصة إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، انظر: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك ابن هشام المعافري، **السيرة النبويّة المعروفة (بسيرة ابن هشام)**، تحقيق عادل أحمد، علي معوّض، شارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م،ج٢، ص٤٣-٤٤.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحات.

(٣) وإن قيل: لماذا كان الصد من غيره الذين سمعوا القرآن وكذبوا به؟ ، فالجواب: لأن هناك قضايا داخلية أخرى تحكم النفس في استقبالها، من تعطيل للعقل، أو سوء استعماله، وأمور خارجيّة أخرى تتحكم من هوى، أو منصب،

فهو مرآة يظهر بها ما يعتقده الإنسان، وما يبطنه، كما أنّ "نور الخشوع يشرق من الباطن على الظاهر"([٢]) للارتباط الوثيق بين الجانبين المادي والذي يمثله ظواهر السمات، والمعنوي والذي يتمثل بالحال الباطنة، وما بينهما من توافق وانسجام.

ولقد تبيّن فيما قبل أن هناك علاقة بين القرآن الكريم والإنسان([٣])، فجاء في الآيات القرآنية ما يثبت هذه الصلة من جهة، ومن جهة أخرى كانت الآيات ذاتها تشبيهاً بليغاً تُبيّن حال المُبتعد عن القرآن، وهذا البُعد يشبّه بالسلخ، ويظهر هذا جليّاً في التعبير القرآني في قوله تعالى:"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ"(الأعراف١٧٥)، والسلخ دليل على النزع الكليّ للجلد بإخراج الجسد عنه([٤])، والجلد جزء من الجسد، ولنزعه من الصعوبة والألم للحيّ ما لا يخفى،"فحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه"([٥])، وعند التصوير بأن الإنسان ينسلخ عن آيات ربه، يعني أنها تمثل جزءاً منه يخرج عنها لأي سبب من الأسباب.

أما الكافرون فإن استفحال الخلل في استعداداتهم يُنتج على وجوههم نظرات المنكر عند سماع آيات القرآن الكريم، لمخالفة ما سمعوه لما قيّد نفوسهم، كما قال تعالى:"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

أما كل من كان أمره كسعد بن معاذ رضي الله عنه فإن نفسه حرّة لا تحكمها الأهواء ولا الشهوات، وحرية النفس وقيادتها وكبح جماحها أمر هامّ في سرعة الاستجابة أو بطئها.

(١) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، ج٦- ص٣٥٨.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج١- ص١٩٥.

(٣) انظر: **الفصل الأول تحت عنوان الاستعدادات الروحية.**

(٤)انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص٥٦٧.

(٥) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، المجلد الرابع، ج٥- ص١٠٤.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمُنْكَرَ..." (الحج: ٧٢)، "لنكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة"([1])، وجاء في سورة محمد تفصيلاً موجزاً لحال الكفار وما يكون على ظاهرة من دلائل باطنهم، فقال تعالى:"أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ"(محمد ٢٥-٣٠)، **والملاحظ من الآيات التالي:**

١ - وجود العمى والصمم في الممتنع عن الاستجابة للقرآن الكريم، وهو سد حواس الاستقبال عن نقل الحقيقة إلى داخل الإنسان.

٢ - عدم السماح للعقول بتدبّر القرآن، وهذا دليل على بقاء الخلل فيه.

٣ - وجود الكره لما نزل من الحق، وهذا الكره مستقرّه القلب الذي تعلّق بمظاهر الدنيا التي تعكسها الحواس، واستقرّ ذلك في سرّهم.

٤ - اتباع سخط الله وهو منهج الشيطان، والكره لرضوان الله الناتج عن الكره للحق.

٥ - وجود المرض في القلب، وذلك لانتشار الفساد من الحواس إلى أن وصل إلى القلب.

٦ - وأخيراً دور سمات الوجه بمعرفة داخل الإنسان، ونقل هذا الكره إلى سمات الإنسان كمرآة للباطن.

---

(١) البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، المجلد١٣- ص١١٧.

إن عدم توجيه الحواس نحو القرآن كبداية لتغيير للنفس هو من القضايا المعطِّلة لعمل كل الاستعدادات؛ لأنها منافذ المعرفة والعلم، ومبدأ الاستقبال والتأثُّر بالعالم الخارجي، كما أنها سبيل نقل اللغة ومحاكاتها للنفس، وهي مفتاح الخطاب للوجدان والقلب، فإذا أوصدت الأبواب عُرف الجواب، وكذلك إذا أوصدت الحواس مُنِعَتْ الاستجابة الناتجة عن عدم وصول المعرفة، ومن هنا يأتي دور التفصيل في العامل الثاني من عوامل فساد استعدادات الإنسان وهو الفساد العملي للعقل والقلب، ووجود خلل ما في العلاقة التي تجمع عمليهما.

– **العامل الثاني: الفساد العملي للعقل والقلب:** إن الفساد العملي بين قائدي النفس وما وجد بينهما من اضطراب وعدم اتفاق له دور كبير في منع التغيير الفردي المتمثِّل بتغيير نفسه، حيث إن استخدام جوانب العقل بطريقة لا تناسب طبيعته، إما لعدم معرفة طبيعة عمله، أو إهماله، أو تقييد عمله بما يحجز حريّته، ويصرف عنه سلامة الحكم، كلها تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي الصدّ الناتج عن انحراف الميزان الحكمي للعقل البشريّ، أي أن يصدر العقل قرارات خاطئة غير متزنة، وهذه القرارات ناتجة عن قناعات منبعها خلل في التفكير غير الممنهج، وهذا له دور في تشكيل توجهات القلب في الشعور واللاشعور بما يصدره العقل من قناعات.

فالتفكير هو من أهم المؤديات إلى إدراك الشيء، ومعرفة التصور عنه، فهو يمثل أحد قدرات الاستدلال النابع من ذكاء الجنس البشري، ومن خلال تنظيمه المتفاوت بين الأشخاص يكون انعكاس السمة الخاصة(١) لشخصية الإنسان.

---

(١) **أي الفروق الفردية**، إن الشخص الذي يمتاز بزيادة في معيارية تنظيمه للأفكار ينعكس عليه ذلك من خلال سرعة استجابته للمؤثرات الخارجية الإيجابية، وقلة تأثره بالمؤثرات السلبية، ودقة تحليله للمدخلات، وقدرته على التمييز بين الأحداث والأشخاص والتصورات، وكلما قلّ تنظيم التفكير، كلما زاد التفكير شتاتاً وقلت الاستجابة وتم الخلط واللبس، وتعرض الشخص لصعوبات حياتية.

ولقد مرّ سابقاً ضرورة تشكيل التفكير المنهجيّ الذي يعين الإنسان على سلامة اتخاذ القرار، لذا فإن عدم سير عملية التفكير بالطريقة المنهجية المنظمة يكون استهلاكاً للقدرات العقلية بطريقة مرهقة للنفس، كما قال تعالى في وصف فئة من المستمعين للقرآن، وكيف يُهلكون أنفسهم فيقول عز وجل:"وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"(**الأنعام: ٢٥ – ٢٦**)، فقولهم هذا أساطير الأولين هو القرار غير المتزن الذي أصدره العقل، فعدم فقه القلب عند سماع آيات الله يكون بسبب توجهه إلى مصلحة أخرى، فكأن الأذن لم تسمع أصلاً؛ لأن ما لم يظهر له نتاج فهو هباء، ولم يظهر لهذا السماع نتاج فكان هباء كأنه لم يكن أصلاً، فالتعامل مع كلام الله تعالى في النفس بطريقة غير منظمة، وغير ممنهجة، يعني مرورها دون التأثّر بها، قال تعالى عند وصفه لحال الممتنعين عن الإيمان عند سماعهم للقرآن الكريم:" كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ*وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ*لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ"(**الحجر١٢- ١٥**)، وسلك" أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء"([1])، إذن فنفوذ القرآن في النفس يكون بهذه الطريقة غير المنظمة والتي تؤدي بالنفس إلى الحيرة بين صحة ما يُسمع، وسوء النفس بما تُضمر، فيولد الشتات وعدم الاستقرار المؤدي إلى حجب التوافق، وصراع النفس بين استعدادين هامّين يؤثران في اتخاذ القرار وهما العقل والقلب، وعندها يتكوّن المانع بسبب الجهد الحاصل من التفكير العشوائيّ، فجاءت الآيات في وصف صورة جديرة بالذكْر، جليّة الخطر، تصف حال من مُنِعَ الاستجابة لمنهج الله، فنكص على عقبيه، قال تعالى:"قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى

---

(١)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص ٥٦٨.

اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام٧١)، فقوله: **(حيران)** يعني" التردد في الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه"(١)، والحيرة سبب الاضطراب النفسيّ والجهد الفكريّ بلا طائل.

وهنا لا بد من النظر فيما يمنع العقل من التفكير المنهجيّ، والقلب من الفقه القرآنيّ، فالمانع من التفكير العقلي المنظم أمران: **(الشك، والظن)**، أما ما يمنع القلب من الاستجابة هو **(الهوى)**، وبين هذه الأمور كلها تتأثّر وتؤثّر ببعضها البعض، وفيما يلي التفصيل:

- أولاً: الشك ودوره في المنع من الاستجابة:

إن الشك في لغة العرب دال على التداخل(٢)، والتداخل يعني قيام المعلومات الدالة على عدّة قضايا دون تمييز، بطريقة عشوائية تؤدي إلى اللبس والخلط ، فهي تدهور الاحتفاظ بالحقيقة في الذاكرة، نتيجة لتراكم حقائق سابقة يتعامل معها الشخص(٣) وتناقضها مع حقائق لاحقة مستجدّة على النفس، وهذان الأمران – اللبس والخلط– من أكثر الأمور تشكيلاً للتفكير المنحرف، وبما أن العقيدة تقوم على البرهنة بالأدلة العقلية، فإن وجود اللبس والخلط يعني وجود قِصَرٍ في التمييز بين صحة الأدلة وخطئها، من خلال تساوي الاحتمالات العقلية والأدلة الواردة، فلا يتكون العلم اليقيني المبنيّ على تمييز الدلائل والبراهين بطريقة منهجية سليمة بسبب هذا التداخل؛ لأن العلم لا يتحصّل إلا بالدليل اليقيني، والدليل لا يكون يقيناً إذا خالطه الشك والاحتمال.

ولا تخفى خطورة هذا الأمر، حيث إن وجود الشك في وجود الله يعنى أن أدلة وجوده وعدمها أفي عقل الإنسان متساوية، وهذا يعني الإنكار الفوري للأدلة الواردة، ويتبعه "التعطيل وهو إنكار

---

(١) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، **تفسير مفاتيح الغيب**، المجلد الخامس، ج١٣–ص٢٦.

(٢)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الأول ، ص٦٠٦.

(٣) انظر: أ.ف. بتروفسكي و م.ج. ياروشفسكي، معجم علم النفس المعاصر، مصدر سابق، ص١٥١.

وجود الله"(١) ووجود اقتناع عقلي مسبق بأن كل أمر يُراد منه التصحيح والتغيير على الاعتقاد المستقرّ في النفس مرفوض مسبقاً، وهذا يعني الإعراض المباشر دون محاولة إعمال العقل بصورة سليمة؛ لأن محاولة التفكير المشوبة بالتداخل والخلط قد تثير البلبلة في العقل، وتؤدي إلى إرهاق الفكر، فيتجنب الإنسان هذه البلبلة وهذا الإرهاق بالتسليم الانهزاميّ على أن أي محاولة للإقناع مرفوضة.

ولقد عرض القرآن الكريم هذه القضية، وبيّن خطورتها، وما تؤدي إليه عند لزومها تفكير الإنسان من خلال عرض طريقة تفكير الشاكّين المنكرين، ففي سورة إبراهيم عليه السلام جاء عرض لحوار الشاكّين مع رسلهم، وكانت ردودهم سريعة ومتضاربة، يتخبّطون في خلط ولبس للأمور، إنكاراً وكفراً بسبب شكّهم، ولقد تعجّب الرسل من ذلك الإنكار الجاحد، مع وضوح الدلالة على الوجود والوحدانية لله تعالى، إلا أن الشك في وجود الله – رغم إقرار الفطرة بوجوده– يقتضي إنكار ما بقي من تفاصيل الإيمان، فقال جل ذكره:"أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ"(إبراهيم: ٩ - ١٠).

إن العقيدة الإسلامية لا بد أن تقوم على اليقين فيما جاءت به الرسالات الإلهية، والتسليم للأمور الواردة فيها على أنها حقائق مؤكَّدة، ومؤصَّلة من خلال الاقتناع العقلي والتفكير البنّاء في آيات القرآن الكريم، وعند وجود الشك في الإنسان؛ يكون الضلال حاله "حين تفسد فطرته، وتُستغلق

(١) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين، **مفاتيح الغيب**، المجلد ٩، ج٢٥، ص٦١.

بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحي من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته"([١])، ولقد بيّن القرآن الكريم أن الله قد أرى الناس آياته، وجعلها متاحة أمامهم مهما تفاوتت مقدراتهم فقال:"وَيُرِيكُمْ ايَاتِهِ فَأَيَّ ايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ"(**غافر٨١**)، والانحراف الفكري هو العدول عن فكرة سويّة أو شبه يقينية إلى فكرة أخرى، بهذا الانحراف يكون امتناع النفس من التغيير.

إن هذا النوع من أنواع التفكير العشوائي المنحرف يؤدي إلى إنكار أي فكرة صحيحة، ومخالفة البراهين البدهية والدلائل المنطقية في وجود أصول العقيدة عند الإنسان، وإرجاع الأمور المدركة بالحواس إلى عدم الأصل، أو المصادفة، أو وجود الوجود كله دون موجد، وعليه يكون قيام الإنسان في الحياة على انحراف معرفته بالله تعالى، مع أن "أبلغ دليل على أن هذه القوة– الفهم– إنما هي من تدبير فاطر حكيم؛ أنه أوقفها عن الإنتاج في رأس هذا المنكر، جزاء لاستكباره، وتحقيقاً لسبب عقابه الخالد"([٢]).

- **ثانياً: الظن ودوره في منع الاستجابة:**

لقد أشارت معاجم اللغة([٣]) إلى أن **الظن** قد يكون إيجابيّاً نابعاً عن أقرب درجات اليقين، حتى لا يكون بينه وبين اليقين إلا استشعار الأمر بظهوره للعيان كما في قوله تعالى:"وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"(**البقرة: ٤٥ - ٤٦**).

إن الظن من المؤثرات الفعّالة في انحراف الاعتقاد، وهذا الانحراف هو أحد العوامل المانعة من التغيير بمنهج القرآن الكريم،؛ لأن أصل الظن عدم العلم بالشيء فقال تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ

---

(١) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، المجلد الرابع، ص٢١٣٠.

(٢)البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، ص٩٥ بتصرف.

(٣)انظر ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص٩٧ .

بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً"(**النجم ٢٧ – ٢٨**)، أما التغيير الفرديّ الذي جاء به القرآن الكريم فهو عمليّة معرفية، فيها يتم تقرير الحقائق، وترتيبها، توظيفها لكل استعدادات النفس في الإضافة عليها، إذن فالقرآن الكريم عند تغييره للفرد تعامل معه من خلال عملية معرفيّة، بإقامة العلم بوجود الله تعالى متصف بما أخبر به القرآن الكريم، والإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم، يؤدي إلى اعتقاد سليم مبنيّ على الحق، "والحق بمعنى العلم، فلا يقوم الظن مقام العلم"(١)، فمنبع الظن الوهم، حيث يكون إدراك المعاني بتصرف من الخيال، فينقلهما من صورتها الحقيقية إلى صور وهمية غير مطابقة للواقع، ويسمى الخيال وهماً عندما يصادم الحقائق، ويولد انحرافاً في الفكر والتصورات.

والظن مرحلة متقدمة تقوم على الشكوك الموجبة للخلط في الأفكار، بل إن قيام البراهين ومدى موافقتها للفطرة وإقناعها للعقل في نظر مضطرب التفكير يوجب مزيداً من الإنكار، وهذا ما بيّنته الآية الكريمة:"وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً"(**الإسراء٨٢**)، و أيضاً قوله تعالى:"هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً"(**فاطر٣٩**)؛ لأن تصوّراته عن الله وعن الإنسان والحياة تكون ناشئة عن تصورات مجتزأة عن الحقيقة، فربما يكون هناك اقتناع بوجود إله، ولكنه ليس الذي يدعو إليه الرسول، أو أن يكون الله هو الإله، ولكن ليس وحده بل هناك واسطة إليه، وقد يكون مقتنعاً بوجود الله إلهاً واحداً ولكنه ينكر اليوم الآخر، أو يكون مقتنعاً بوجود الله تعالى إلهاً واحداً، ولكن ينسب إليه ما لا يليق به من اعتبار الملائكة بناته، أو اعتبار عيسى –عليه السلام– هو الله، تعالى عن ذلك، وقد يظن أن لن يقدر عليه أحد كما ظن فرعون سابقاً، أو لا يراه أحد فينسى الله

---

(١) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت ٥١٦ هـ)، **معالم التنزيل**، ج٤– ص٣٠١.

تعالى ويحيد عن تقواه كما في قوله تعالى:"أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ"(**البلد٥-٦**).

لقد بيّنت آيات القرآن الكريم حقيقة اتخاذ الظن سبيل التفكير – وساء سبيلاً– ، فقد وضّح حقيقة الظن بأنه لا يقوم على حقائق علمية، بل هو ضرب من العبث الفكريّ الذي يقود إلى خلل عقليّ في استخدام قدرات الإنسان، فيقول تعالى:"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ"(**ص٢٧**)، وذكر اسم الإشارة (**ذلك**) "إشارة إلى القضية المنفية لا إلى نفيها، أي خَلْق المذكورات باطلاً هو ظن الذين كفروا، أي اعتقادهم. وأُطلق الظن على العلم لأن ظنهم علم مخالف للواقع، فهو باسم الظن أجدر؛ لأن إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المُشْبِه(١) والباطل"(٢).

– ثالثاً: الهوى القلبيّ ودوره في منع الاستجابة:

إن أصل الهوى في اللغة دال على "خُلُوٍّ وسقوط؛ لأن أصله الهواء بين الأرض والسماء، وسُمِّي لخلوِّه"(٣)، وبما أن الهوى من الفراغ؛ فإن من أهم المحركات للهوى فراغين: فراغ العقل، وفراغ الوقت، فوجودهما سبيل الحركة له. ويقول ابن منظور:" وهَوى النفسِ إرادتها والجمع الأَهْواء... "(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم:" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به "(٥)، يعني

---

(١) ومعنى كلمة **المُشْبِه:** أي العلم الذي فيه لبس أو خلط بين الحقائق.

(٢)ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، مجلد ٩، ص٢٤٨.

(٣)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص٥٩١.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (هوا).

(٥) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر(٨٥٢هـ)، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م، ج١٣– ص٣٤٧، وخلاصة الحكم على الحديث رجاله ثقات، وقد وصفه

إرادته، وبهذا الأمر كمال القناعة والاعتقاد بتفاصيل المنهج الرباني، ووصول الإنسان إلى دائرة التنقل في درجات توجيه إرادته كما يريد الله، ليسمو ويرتقي بقدر توفيقه بين الإرادتين، "فالهَوى العِشْق يكون في مداخل الخير والشر"([١])، فإذا توجه إلى ما يريد الله تعالى كان من مداخل الخير.

والهوى عامل أساسيّ في توجيه الاقتناع العقلي والقناعة النفسية التي هي "السكون عند عدم المألوفات"([٢])؛ لأنه "محبةُ الإنسان الشيء وغَلَبَتُه على قلبه..."([٣])، فإذا توجه القلب إلى حب الذات يورث الاستكبار وهو من أهم الموانع التي تمنع من التغيير نحو المنهج، وطفق الإنسان في تحصيل كل حاصل يشعره بما يناسب هواه، وكذلك إذا توجه إلى حب الشهوات كما قال تعالى:"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ"(آل عمران: ١٤)، كان الإنسان صارفاً كل جهده واستعداداته في جمع ما يوافق شهواته التي مال إليها هواه، فهوى الإنسان متوجّه إلى ما يحب، ومستقرّ الحب في القلب.

وبما أن التغيير جاء بإيجاد معارف، وأن بداية المعارف إدراك عقليّ؛ فإن النفس التي تحبّ زخرف الحياة الدنيا وما في زخرفها من متاع قليل تأبى أن يكون من الحقائق ما يخالفها، أو ما يعكّر صوفها، فيقف الهوى مانعاً من موانع الاستجابة لمنهج القرآن الكريم، ويسعى جاهداً لردّ كل

الحكمي بأنه حديث صحيح، انظر: الحكمي، الشيخ حافظ بن أحمد(١٣٧٧هـ)، **كتاب معارج القبول**، ضبطه عمر محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، مجلد ٢، ص٤٢٢.

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (هوا).

(٢) الجرجاني، **التعريفات**، ص١٧٩.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (هوا).

ما يخالف هذا الهوى من قناعة، وبهذا يكون الهوى مانعاً من موانع التغيير الذي ينتج عن كل الموانع الأخرى.

المانع الثاني: تأثير المانع الحياتيّ البيئي

وهذا الجانب بتوجيه المدخلات الحسيّة الصالحة والفاسدة على السواء، وهو مختصّ بكل ما يحيط بالإنسان، من سلوك مؤثر نابع من الحياة الأسرية والمجتمعية، ولا يكون لهذا المانع ذاك الأثر إلا إن وجد شيء من فساد الاستعدادات، حيث إن القرآن عندما بنى النفس الداخلية، والشخصية الإنسانية، جعل الإنسان مستعدّاً للثبات على الأصل الثابت دون تأثير المؤثرات الخارجية والبيئيّة حوله، بل كانت عملية الارتقاء كفيلة بإيجاد الأفراد المؤثرين بالبيئة، فيعبَّرُ عن هذه الشخصيّة بمسمّى **(الشخصية القيادية)**، وجعل التأثّر والتأثير في البيئة متحققاً بمدى قوة الإيمان وضعفه، مهما كانت قوة التأثير الواردة، فجاء قوله تعالى:"يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ امَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ"(إبراهيم٢٧)، دليل على تحقيق الثبات على الأصل السليم، الذي هو سبيل تحقيق الاستقامة على المنهج القرآنيّ، مهما واجهته الهجمات والأزمات. والبيئة المحيطة بالإنسان إما أسرته أو المجتمع الذي حوله، والتفصيل فيما يلي:

- **العامل الأول: المانع المتعلق بالجانب الأسريّ:**

جاء الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم:"كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"([١])، ما يدلل على أن للأسرة الدور الأول في تغيير الفرد بالإلتزام بمنهج الله، أو البُعد عنه.

---

(١)أخرجه البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي(ت ٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، **كتاب الجنائز** بَاب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ، حديث رقم ١٢٦٦، المجلد الأول، ج٢- ص٥٧٦.

فالأسرة هي البانية للسلوك الأوّليّ الفرد، ومنها تشكيل معارفه فيما ينبغي فعله عند مواجهة أمر ما، واستمرار استقباله للأصول السلوكية الخاطئة منذ بداية إدراكه سبيل لتوليد قناعة بأن هذا هو المفروض فعله في المواقف، ومن هنا ينشأ الإصرار على اتباع سنة الأولين المتمثلة بحجة: **(إنا وجدنا آباءنا على أمة)** كعامل من عوامل المنع من التغيير، حيث إن استمرارية الاكتساب الأوليّ ثبات للفعل، وثباته على مرّ الزمن يعني رسوخه في الذهن، وأن مخالفته جرم؛ لخروج هذا الخارج عن العادة، مما يؤكد أن هناك قناعة بأن هذا السلوك المتوارث هو السلوك المهتدى به فبيّن ذلك قوله تعالى:"قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ"**(الزخرف٢٢)**، وهذه القناعة فاسدة بورودها في سياق الذم عندما بيّنها القرآن الكريم.

لقد كانت حجة الممتنعين عن اتباع الله وجود آباءهم على سنّة، فتربية الآباء وتوجيههم لأبنائهم من نعومة أظفارهم لها دور في تشكيل المعارف التي ترسخ في نفس الفرد، فإذا غرسوا في نفسه الخير كان قيام حياته على هذا الخير، وإذا غرسوا في نفسه الشر كان قيام حياته على بذرة الشرّ فقال تعالى:"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ"**(الأعراف٥٨)**، فيكون الشر الكامن في النفس إذن هو أحد موانع التغيير الفردي الناتج عن العامل الأسريّ.

كما أن الأسرة لها دور هامّ في تشكيل عادات الفرد في الحياة، والعادات تمثل "جانباً هامّاً في السلوك؛ لارتباطها بالعواطف والاتجاهات والقيم"([1])، فأصلها " تثنية في الأمر"([2])، وتختص فيما كان فيه تكرار عمليّ، كما أنها–العادة–" الاستعداد المكتسب بالتعلم، المتمثلة بمجموعة من الأفعال

---

(١) منصور، عبد المجيد وآخرون، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٢)ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، المجلد الثاني ، ص١٩٥.

التي يتم تكوينها بالتكرار والاقتران والترابط"([1])، ويمكن أن تكون ثابتة إلى حدٍّ ما، بحيث يمكن حدوثها بالطريقة نفسها عند وجود ما يثيرها، أو اقترانها بحدث يُذكّر بها، أو ارتباطها بأمر يحيها، "وتكون باتفاق أسرة أو مجتمع بشكل عام على الإتيان بها، حيث تمتاز بمجهودها البسيط على النفس؛ لأنها ناتجة عن تصرف دون جهد في الفكر أو حصر الانتباه"([2])، وقد يكون الاكتساب البيئيّ للعادة فرديّاً، أي يكتسب الفرد العادات من الخارج دون اتفاق جماعة، ويعتاد عليه عند نظره لمن حوله، ومن هناك يكون غالباً لكل أسرة عاداتها الخاصّة، وهذه العادات تجعل لها تصرفات خاصة يجتمع كل أفرد هذه الأسرة على العمل بها.

- **العامل الثاني: المانع المتعلق بالجانب الاجتماعي:**

وهذا العامل مرحلة تنتج عن العامل الأول، فللمجتمع دور هام في التأثير على تصرفات الفرد إيجابياً أو سلباً، كما إن لقضية التأثّر والتأثير المتبادلة بين الناس هي قوام العادات الجماعية دور هام في تغيير الفرد من الظلمات إلى النور أو العكس، فيقول تعالى:"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً "(**الكهف٥٥**)، فالإنسان إما أن يتأثر بعادات موروثة في الأسرة، أو يتأثر بقيم واتجاهات تُفرض عليه من المجتمع بحيث تصبح كعقيدة سائدة مخالفتها تولّد العقاب النفسي أو الفعلي، فلا يستطيع أحياناً الانفكاك عنها.

ثم إن انتشار آفة معيّنة في المجتمع ما مهما كان شذوذها عن الأصل يكسر حاجز الشعور بالحياء من اقترافها؛ لأنها لم تَعُدْ أمراً شاذّاً في اعتبار الجماعة، لذا تصبح أمراً معهوداً على النفس، مما يسوّغ للنفس تفلتها نحو الانحراف السلوكيّ، حتى وإن خالف الاعتقاد، فيوجه الفرد كل

(١) منصور، عبد المجيد وآخرون، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص١٦٩- ١٧٠، بتصرف.

(٢) المرجع سابق، ص١٦٩- ١٧٠، بتصرف.

استعداداته للبحث عن الشهوة، ويكون لها حجة في استمرارية معصيته، فالشعور بالشذوذ السلوكيّ أمر هامٌّ يكفل الردع للنفس عن تفلّتاتها، ولهذا الجانب جاء نظام العقوبات معتبراً هذا الأمر في وعقوبة الزاني والقاذف مثلاً.

لقد كُسر حاجز الشعور بالشذوذ عند قوم لوط ، فكانت المعصية قد تفشّت في المجتمع كما بيّنتها الآية الكريمة في قوله تعالى:"وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ*إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ"(الأعراف٨٠ – ٨١)، وكان الشذوذ هو العادة المستحكمة فيه، وكان للمجتمع أثره في تواصل التأثّر بالمعصية، وكانت مانعاً من موانع استجابتهم لنبيّهم لوط عليه السلام، وأصرّوا على ما هم عليه حتى جاءت سنّة الله تعالى في عقابهم لامتناعهم، فقال تعالى:"فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ"(الحجر: ٧٤).

لقد كان لأعداء دين الله دوراً في تغيير العادات الأصيلة، والمراوغة للدس فيها ما ليس منها، قال الله تعالى:"الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ"(الأعراف: ٤٥)، ويجدون من داخل المجتمع الإسلاميّ أتباعاً يروّجون الفساد العقديّ، والانحراف الأخلاقيّ في المجتمع، ويدسّون في وسائل الإعلام ما يُظهر الفاحشة بأبهى صورها، ويزيّنونها بزينة الحرية والكرامة، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك؛ لأنهم عبيد الشهوة والاختلال العقليّ، فيشكّكون بمدى صلاح منهج الله تعالى لقيام السعادة والاستقامة في مجالات الحياة كافة، كما فعلت طائفة من أهل الكتاب يوم أحكموا كيدهم، وجاءوا بمكرهم فقال تعالى:"وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"(آل عمران: ٧٢)، ويخلطون اليقين بالظن، والحق بالباطل حتى التبس على العقول تحديد الصواب من الخطأ في الفكر وفي السلوك، واتبعهم خفاف العقول، بل من عطّلوا كل استعداداتهم، واتخذوا من قيود الكفر سبيلاً للحريّة، واختلّت الموازين الحكميّة؛ لأن أول أمر ركّزوا عليه في حربهم الفكريّة والمعنويّة هو بث الخلل في ميزان الحكم العقليّ، فصارت العقول

تصدر أحكاماً باطلة بُطلان الواقع الذي يعيشه الناس، وسلّموا أمرهم لهوى القلب كي يميل بالنفس من شهوة إلى أخرى، ومن ضنك الحياة إلى ضنك الممات، فانسلخ الناس عن دينهم وهم يبحثون عن دينهم، وصار الناس يعتقدون أن التحضّر هو الإتيان بما يتصف به الغرب، وليست عقيدة القرآن العربيّ، ودسّوا لغة غير لغة القرآن لتنشغل العقول عن فهم القرآن وإدراك معانيه إلى إدراك لغات ما أنزل الله بها من سلطان، كما عملوا على إيجاد كل ما يضمن تفاعل الفرد والجماعات في سلسلة المنع من الاستجابة للحق، فعلا الزبد، وما ينفع الناس موجود غير ظاهر، وظهوره وعدٌ ربّانيّ لا يُخْلَف، وإن قامت الإنس والجن على أن يخفوه، فسيظهره الله يوم يقول كن فيكون، قال **تعالى:**" يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"(**الصف ٨- ٩**)([١]).

([١]) إن الواقع الحاليّ يترجم للمتأمّل التفاصيل والأسباب التي منعت الناس من الاستجابة لمنهج الله تعالى، وإن للغزو الفكريّ والثقافيّ الغربيّ – حزب الشيطان- الدور المحرّك لقيادة عجل كل الموانع التي تمنع التغيير، فأثاروا الشكوك، وخلطوا اليقين بالظن، ووجهوا الأسماع والأبصار إلى حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة...إلخ حتى يأخذ الهوى دوره في الصد عن سبيل الله تعالى، **انظر: لتمهيد هذه الرسالة.**

الخاتمة

لقد خلصت هذه الدراسة إلى عدّة نتائج منها:

١ - إن للقرآن الكريم منظومة متكاملة وشاملة لإحداث التغيير في النفس الإنسانية، تبدأ من تغيير المعارف والأفكار، وتتدرج لتغيّر الاعتقاد والتصورات، ثم تعمل على توجيه السلوكات والتصرفات، حتى يكون الفرد المتغيّر في أعلى درجات الكمال الإنسانيّ النسبيّ، لتنتقل عملية التغيير إلى تفاعل بين أفراد المجتمع الواحد لبنائه والارتقاء به.

٢ - إن من أهم المعارف التي تعتبر مدخلاً هامّاً للتغيير هو معرفة الإنسان نفسه؛ كي يملك زمام الأمور في التعامل معها، وتغييرها، وتوجيهها نحو منهج الله تعالى.

٣ - لقد جاءت أساليب القرآن الكريم بإحاطة عملية تامة وشاملة لكل استعداد من استعدادات النفس البشريّة أفراداً وجماعات، فهي تعاملت مع جانبين:

- الجانب الذي يشترك فيه الناس جميعاً، وهو جانب تحقيق المعرفة عن الخالق والكون والإنسان والحياة، لإحداث التغيير الجوهريّ.
- والجانب الذي يختلف فيه الأفراد فيما بينهم(الفروقات الفردية)؛ لإحداث التغيير الارتقائي بتحفيز التنافس بين أفراد المجتمع.
- إن إحياء مبدأ الكرامة الإنسانية والحق الإنساني كما ورد في القرآن الكريم هو أساس من أسس انعكاس الاعتقاد على السلوك، وليس كما هو في أي هيئة أو منهج أو مسلك؛ فالفارق كبير بين كرامة يضعها خالق كامل، وكرامة ينتقص منها مخلوق ناقص.
- إن من مداخل الغزو التغييري ضد منهج الله تعالى سلب النظرة للقيمة المعنويّة التي هي إعطاء كل أمر في الحياة معنى، وبقدر معناه تكون قيمته، حيث عمل هذا الغزو على تغيير هذه القيمة إلى توجيه الأنظار إلى القيمة المادية، أي أن يكون لكل شيء قيمته بقدر

جودة مظهره، وعلى هذا الأمر أصبحت الحياة بلا معنى بكل ما فيها، بل هي مجرد ماديات يسعى الإنسان للحصول عليها، حتى نسي دينه الذي يعطي للحياة معناها، والمادة في الدين خادمة لإبراز المعنى دون أن تطغى عليه.

- لقد اختلف الفلاسفة فيما إذا كان الإنسان مفطوراً على الخير أو الشر أو اجتماعهما في نفسه، وخلصت الدراسة بالأدلة والبراهين إلى أنه مفطور على الخير، فخلقه كان قبل وجود الشر المتمثل بعصيان إبليس، وهناك من الأدلة الأخرى ما يثبت الخير في فطرته، وعليه فإن عملية التغيير هي عملية إرجاع الإنسان إلى أصله الخيّر، فكلما زاد رجوعه إليه زاد كماله.

- التوصيات:

توصي هذه الدراسة بما يلي:

١ -أن يعاد النظر في الاعتبارات التي تقوم عليها الجوانب العلمية، ليكون نتاجها علماء يقومون بمهمة التبليغ والدعوة للدين كما يريد الله تعالى، لا كما تمليه الأهواء والمصالح الدنيوية، وخصوصاً فيما يتعلق بالعلم الشرعي.

٢ -إحياء مبدأ الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والحرية الإنسانية كما جاء بها القرآن الكريم ونظّمها، لا كما هي في أي مسبيل أو مسلك أو منظمة أو هيئة، لأن الفارق كبير بين كرامة يضعها خالق كامل عليم بأحوال خلقه، وكرامة يخطط لها مخلوق ناقص تحكمه الأهواء والشهوات والمصالح.

٣ -أحياء الأسر الإسلامية بالحظ الوافر من العلم والمعرفة بكتاب الله تعالى، والحظ على قيامها عاى أسس دعا إليها النبيّ الكريمة صلى الله عليه وسلم، فبالأساس الطيب تكون الثمرة الطيّبة، ولا أطيب من أساس دعا إليه منهج القرآن الكريم لتغيير الفرد.

تم بحمد الله وفضله

قائمة المصادر والمراجع

١ – إبراهيم، مصطفى، **المعجم الوسيط**، قام بإخراجه إبراهيم أنيس وآخرون، بإشراف حسن عطية، محمد شوقي، دار الأمواج، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٢ - الأصفهاني، الراغب(ت٤٢٥هـ)، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، دمشق/ ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣ - الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٤ – الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي(٧٥٤هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، بعناية عرفان حسونة، مراجعة صدقي جميل، دار الفكر للطباعة، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٥ – باشميل، محمد أحمد، كتاب **كيف نفهم التوحيد؟**، مركز شئون الدعوة، السعودية، بدون رقم طبعة، ١٤٠٨هـ.

٦ – بتروفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، محرر الطبعة العربية سعد الفيشاوي، ترجمة حمدي عبد الجواد و عبد السلام رضوان، دار العالم الجديد، القاهرة، ط١/ ١٩٩٦م.

٧ – البخاري، عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة(٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابها فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.

٨ – بدري، مالك، التفكر من المشاهدة إلى الشهود، **المعهد العالمي للفكر الإسلامي**، واشنطن، ١٩٩١م.

٩ – بدوي، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي**، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

١٠ – برغوث، الطيب، **منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.

١١ – برنهارت، **علم النفس في حياتنا العملية**، ترجمة إبراهيم عبد الله محيي، مكتبة أسعد– بغداد، ط٤، ١٩٨٤.

١٢ – بصل، مصطفى، **علم النفس الفيزيولوجي**، جامعة دمشق، ط٤، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

١٣ – البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي(ت٣١٦هـ)، **الأصول في النحو**، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٤ – البغوي، أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء الشافعي(ت ٥١٦هـ)، **تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٥ – البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر(ت٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآي والسور**، خرج أحاديثه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦ – البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، دار الفكر، ط١، ١٩٦٩م.

١٧ – بينيش، هلموت، **أطلس علم النفس**، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، المكتبة الشرقية، بيروت، ط١/ ٢٠٠٣م.

١٨ – البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين(ت٤٥٨هـ)، **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، وثّق أصوله عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٩ – البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين(٤٥٨هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١/١٤١٠هـ،١٩٩٠م.

٢٠ – الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى(ت٢٧٩هـ)، **جامع الترمذي**، إشراف ومراجعة صالح عبد العزيز، دار السلام، الرياض، ط١/١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢١ – تميل، كرستين، **المخ البشري مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك**، ترجمة عاطف أحمد، عالم المعرفة، بدون رقم طبعة، ٢٠٠٢م.

٢٢ – ابن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، مطبعة المدني**، القاهرة، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

٢٣ – جابر، د.جابر عبد الحميد و علاء الدين كفافي، **معجم علم النفس والطب النفسي**، دار النهضة العربية، القاهرة/ ١٩٨٨م.

٢٤ – الجرجاني، عبد القاهر(ت ٤٧١هـ، أو ٤٧٤هـ)، **دلائل الإعجاز**، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط٥/١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٢٥ – الجرجاني، أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي(ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، وضع حواشيه محمد باسل السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ/٢٠٠م.

٢٦ – جلبي، د.خالص، **الطب محراب الإيمان**، دار النفائس، بدون رقم طبعة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

٢٧ – أبو حطب، فؤاد عبد اللطيف، وفؤاد عثمان مشارك، **التفكير دراسة نفسيّة**، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون رقم طبعة، سنة ١٩٧٢م .

٢٨ – الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مكتبة مدبولي، القاهرة/ الطبعة الثالثة ،١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٢٩ – الحفني، عبد المنعم ، **الموسوعة النفسية علم النفس في حياتنا اليومية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١–١٩٩٥م.

٣٠ – حقي، إسماعيل حقي البروسوي (ت١١٣٧هـ)، **تفسير روح البيان**، تعليق وتصحيح أحمد عبيد، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٣١ – الحكمي، الشيخ حافظ بن أحمد(١٣٧٧هـ)،**كتاب معارج القبول**، ضبطه عمر محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٢ – الحملاوي، الأستاذ الشيخ أحمد، **شذا العرف في فن الصرف**، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية عشر/١٩٥٧م.

٣٣ – الحوالي، سفر بن عبد الرحمن، **العلمانية، نشأتها وتطوّرها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، مكتب الطيب، مصر، الطبعة الشرعية الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٣٤ – الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي(ت٧٢٥هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٣٥ – خليل، عماد الدين، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٣٦ – الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام(٢٥٥هـ)، **سنن الدارمي**، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٧ - ديكارت، رينه، **تأمّلات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٦١م.

٣٨ - دراز، محمد عبد الله، **دستور الأخلاق دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تقريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٤، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣٩ - دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، اعتنى به وخرّج أحاديثه عبد الحميد الدخاخني، الرياض، دار طيبة، ط١٤١٧/٢هـ، ١٩٩٧م.

٤٠ - الدسوقي، فاروق، **استخلاف الإنسان في الأرض**، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٤١ - الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، **ط٤**- ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٤٢ - الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الرازي(ت٦٠٦هـ)، **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق محمد صغير حسن المعصومي، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

٤٣ - الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٤٤ - رضا، محمد رشيد بن علي (المتوفى : ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م)، **تفسير القرآن الحكيم المشهور بالمنار**، خرج أحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥ - زريق، معروف، **الأذكياء**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤٦ - الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **تفسير الكشاف**، شرحه وراجعه يوسف الحمادي، مكتبة مصر، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

٤٧ - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت٥٣٨هـ)، **أساس البلاغة**، قراءة وضبط محمد نبيل، دار صادر، ط١- ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٤٨ - زيدان، د.محمد مصطفى، **معجم المصطلحات النفسية والتربوية**، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م.

٤٩ - الزيات، فتحي مصطفى، **الأسس البيولوجية والنفسية للنشاط العقلي المعرفي(المعرفة ، الذاكرة، الابتكار)**، دار النشر للجامعات ، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، القاهرة.

٥٠ – سارة، د.قاسم، **معجم أكاديميا الطبي**، تقديم سارة الخياط، مراجعة محمد الدبس، دار أكاديميا، بيروت، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

٥١ – سالمي، عبد المجيد ونور الدين خالد وشريف بدوي، **معجم مصطلحات علم النفس**، دار الكتاب بيروت، ط١، ١٤١٩– ١٩٩٨م.

٥٢ – السامرائي، فاروق السامرائي وأحمد الدغشي، بحث بعنوان: **الأساس الفطري في التربية الإسلامية**، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلّد ٢٤، سنة ١٩٩٧م.

٥٣ – السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث الأزدي(ت٢٧٥هـ)، **سنن أبو داروود**، تحقيق رائد بري ابن أبي علفة، دار طويق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٥٤ – السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت١٣٧٦هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، اعتنى بهذه الطبعة محمد عبد الرحمن مرعشي، قدم لها القاضي عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٥٥ – سميث، شارلوت سيمور، **المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية**، ترجمة علياء شكري وآخرون، مراجعة وإشراف محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة/ المشروع القومي للترجمة، بدون رقم طبعة.

٥٦ – السنوسي، أبو عبد الله، **شرح السنوسية الكبرى**، تحقيق د. عبد الفتاح بركة، دار القلم، الكويت، ط١/ ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٥٧ – سيد، د. فتح الباب عبد الحليم، **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، دار عالم الكتب، القاهرة، بدون رقم طبعة، ١٩٩٦م.

٥٨ – السيد، عبد الحميد مصطفى، **الأفعال في القرآن الكريم (دراسة استقرائية للفعل في القرآن الكريم في جميع قراءاته)**، دار الحامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٥٩ – ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي (٤٥٨هـ)، **كتاب المخصص**، قدّم له الدكتور خليل إبراهيم جفال، دار أحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ، ١٩٩٦م).

٦٠ – ابن سينا، **أحول النفس رسالة في النفس وبقائها ومعاده**، حققه أحمد فؤاد الأهواني، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٦١ – الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (ت١٣٩٣هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

٦٢ – الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٦٣ – الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٨م.

٦٤ – صابر، محي الدين، **التغيير الحضاري وتنمية المجتمع** ، مركز تنمية المجتمع،١٩٦٢م.

٦٥ – الصدر، محمد باقر، **السنن التاريخية في القرآن**، أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره الشيخ محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف، بدون رقم طبعة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٦٦ – صليبيا، جميل، **علم النفس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٩٧٢م.

٦٧ – صليبا، د.جميل، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، ط١.

٦٨ – الصنعاني، عبد الرازق، **مصنف عبد الرزاق**، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٦٩ – الطالقاني، ابن عباد(٣٨٥هـ)، **المحيط في اللغة**، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٧٠ – الطبراني، الحافظ إبي القاسم سليمان بن أحمد(ت٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، حققه حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي،ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧١ – الطبري، (٣١٠هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، طبعة دار الكتب العلمية، ط٣/١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٧٢ – الطنطاوي، محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، مراجعة عبد الرحمن العدوي، دار المعارف، القاهرة.

٧٣ – ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي(ت٨٨٠هـ)، **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق وتعليق عادل عبد الموجود ومحمد عوض، وشارك في التحقيق محمد سعد حسن ومحمد الدسوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٧٤ – ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، بدون طبعة، أو سنة نشر.

٧٥ – عبد الوهاب، محمد، **كتاب التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد**، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧٦ – العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي(١١٦٢هـ)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م.

٧٧ – ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي(ت١٢٢٤هـ)، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٨ – ابن عربي، محيي الدين، **الإنسان الكامل**، جمع وتأليف محمود محمود الغراب، بدون دار نشر أو رقم طبعة.

٧٩ – العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر(٨٥٢هـ)، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م.

٨٠ – العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر(ت٨٥٢هـ)، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق خالد عبد الرحمن البكر، تنسيق سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٨١ – ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق عبد الله الأنصاري، عبد العال إبراهيم، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمدان آل ثاني أمير دولة قطر، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٨٢ – العقاد، عباس محمود، **الفلسفة القرآنية**، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال، العدد٢٢٩- ذو الحجة١٣٨٩- مارس ١٩٧٠م.

٨٣ – العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، دار نهضة مصر، بدور رقم طبعة.

٨٤ – العقاد، عباس محمود، **((الله)) كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، دار المعارف، ط٧، مصر.

٨٥ – العمادي، محمد بن محمد الحنفي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٨٦ – الغزالي، محمد، **كيف نفهم الإسلام**، دار القلم، دمشق، ط١٤٢٦،٢هـ/٢٠٠٥م.

٨٧ – الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار مصر للطباعة،بدون رقم طبعة، سنة١٩٩٨م.

٨٨ – ابن فارس ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥)، **معجم مقاييس اللغة**، وضع حواشيه ابراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ.

٨٩ – فايفر، جون، **العقل البشري**، ترجمة الدكتور م.عيسى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.

٩٠ – الفراهيدي، الخليل بن أحمد(ت١٧٠هـ)، **كتاب العين**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩١ – فريد، عزيز، **علم النفس العملي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون رقم طبعة ، ١٩٤٥م.

٩٢ – فضل الله، السيد محمد حسين، **تفسير من وحي القرآن**، دار الملاك، ط٢/ ١٤١٩–١٩٩٨م.

٩٣ – القرطبي،أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(ت٦١٧هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، طبعة جديدة ومنقحة، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٩٤ – القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك(ت٤٦٥هـ)، **تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات**، وضع حواشيه وعلق عليه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٥ – قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٩٦ – قطب، سيد، **هذا الدين**، مكتبة وهبة، ط٤، بدون سنة نشر.

٩٧ – قطب، سيّد، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**، بدون اسم دار للنشر، ط٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٩٨ – قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية الرابعة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٩٩ – قطب، محمد، **منهج الفن الإسلامي**، دار الشروق، ط٦، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٠٠ –قطب، محمد، **معركة التقاليد**، مكتبة الأقصى، بدون رقم طبعة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

١٠١ –قطب، محمد، **في النفس والمجتمع**، دار الشروق، بدون رقم طبعة، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

١٠٢ -قطب، محمد، **منهج التربية الإسلامية،** دار القلم، القاهرة، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

١٠٣ -كاريل، أليكس، **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٠٤ -كاربر، جين، **المخ المعجزة**، مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٢م.

١٠٥ -ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، راجعه ونقّحه خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

١٠٦ -كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين**، مؤسسة الرسالة، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

١٠٧ -الكلابي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، بدون رقم طبعة، سنة ١٤٤٣هـ/١٩٢٤م.

١٠٨ -الكيلاني، ماجد عرسان، **أهداف التربية الإسلامية**، مؤسسة الريان، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

١٠٩ -ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(٢٧٣هـ)، **سنن ابن ماجه**، حققه بشار معروف، دار الجيل، بيروت.

١١٠ -ماكوي، تشارلز دبيلو، **لماذا لم أفكر في هذا من قبل**، مكتبة جرير، بدون رقم طبعة أو سنة نشر.

١١١ -مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١١٢ -المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله البصري(٢٤٣هـ) ، **العقل فهم القرآن**، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١١٣ -مدكور، علي أحمد، **منهج التربية في التصور الإسلامي**، دار الفكر العربي، ط١/١٢٤٤هـ ، ٢٠٠٢م.

١١٤ -المرادي، ابن أُمّ قَاسِم، **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق فخر قباوه ومحمد فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

١١٥ -مرسي،محمد منير،**التربية الإسلامية أصولها وتطوّرها في البلاد العربية**،عالم الكتاب،القاهرة، ١٩٩٨.

١١٦ -أبو مصلح، د.عدنان ،**معجم علم الاجتماع**، دار أسامة ، عمان- الأردن، ط١/ سنة ٢٠٠٦م.

١١٧ –المنصور، غسان، **المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس**، رسالة ماجستير في علم النفس سنة٢٠٠٢ م، إشراف د. على منصور، جامعة دمشق.

١١٨ –أبو موسى، محمد، **دلالات التراكيب (دراسة بلاغية)**، مكتبة وهبه، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١١٩ –الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة**، دار القلم، دمشق، ط٤/١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٢٠ –الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

١٢١ –النجار، عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

١٢٢ –النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي(ت٧١٠هـ)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققه يوسف بدوي، راجعه محيي اليد ديب، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٢٣ –الهروي، أبو عبد القاسم بن سلام(ت٢٢٤هـ)،**غريب الحديث**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢٤ –ابن هشام، أبو محمد عبد الملك ابن هشام المعافري، **السيرة النبويّة المعروفة (بسيرة ابن هشام)**، تحقيق عادل أحمد، علي معوّض، شارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

THE QUR'ANIC METHODOLOGY
IN CHANGINGTHE INDIVIDUAL

By:

Tahani Afif Yousef Jaber

Supervisor:

Dr. Ahmad Isma'el Nofal

Abstract

The present thesis investigates The Quranic Method in Changing Individuals by taking people away from darkness to the light. The change will occur via the elevation of individuals through faith issues which lead to happiness in this life and the Hereafter. The thesis is into an introduction and five chapters.

The introduction deals with change. It compares the Islamic approach with materialist approaches.

The first chapter gives definitions of the technical terms used in this study. These terms are considered as the tie between the five chapters. They are the core of the study. These concepts are: (approach, change, self, readiness). The researcher discusses in detail the issue of self readiness for change, and the relationship between individuals and social change. Then, the chapter ends with the aims of change in the Qur'an.

The second chapter deals with the issue of gradualism in the Qur'anic approach of change where pillars of individual change are discussed. This includes the principles of building the essence of mankind as the first stage.

Moreover, the third chapter discusses the Qur'anic methods of changing individuals to the best. It used methods of exposing the individual to what the Holly Quran came with till the methods that get the individual to the practical execution of the instructions of the Holy Qur'an

Besides, the fourth chapter touches on the features of the Qur'an which distinguish it from other laws, for instance independence, mediation, and sophistication so as to result in changing the individual . Then it introduced the effects of the Quranic approach in changing the individual.

The fifth chapter deals with the inhibitions of the individual change; i.e. the psychological and environmental and life ones that prohibit and inhibit the individual from obeying Allah The Almighty and His messenger to actualize the instructions of the Holly Quran that are valid for the individual's life. Then, the study concluded with a group of findings and recommendations.

This is what I have done. And Allah the Almighty loves those who are charitable and of good deeds. If I am so, I ask Him The Almighty to include me with whom I love . And if I mistook, God The Almighty loves the repentant , and forgives those asking for pardon. I ask for His pardon and I repent to forgive my mistake and to include me among those whom He forgives and loves.